الحثيّون وحملاتهم على سورية

الدكتور فاروق اسماعيل

جامعة حلب

يعدّ تاريخ الحثيين ذا وضوح متميز نظراً لوفرة النصوص الكتابية المتنوعة، ولاسيما التاريخية عنه. فقد عبّر ملوكهم عن اهتمام خاص بتأريخ أحداث عهود حكمهم، ودوّنوا تقارير مفصلة عن حملاتهم الحربية وإنجازاتهم، وكتبوا حوليات عنها، جمعوها أحياناً في تقرير عام شمل حوليات عقد كامل من الزمن.

يضاف إلى ذلك كثرة المعاهدات السياسية الدولية التي تضمنت عادة مقدمات تاريخية لخّصت العلاقات السابقة بين المتعاهدين، وحرص بعض ملوكهم على تدوين سيرهم الذاتية وأخبار الأسرة الحاكمة، فتاريخهم لذلك كامل لا نقص في مراحله، ولكن ما يمكن أن يثير الجدل حوله هو ترتيب الأحداث ضمن فترة حكم ملك من الملوك.

إن الاطلاع على تاريخهم مشوق مثير؛ لأنه مليء بالأحداث والحروب والفتن والمؤامرات، ويشعر المتعمق فيه بأنه أمام رواية تاريخية طويلة فيها كل عناصر التشويق والإثارة.

وتعود صلة مدن شمالي سورية ولاسيما حلب به، إلى أنها ابتليت بالاحتلال الحثي لها والسيادة عليها حوالي أربعة قرون، لم يُجدِ خلالها محاولات حلب وغيرها من دويلات المدن السورية العديدة الصغيرة في التحرر منها لتفرقها وضعفها أمام الخصم القوي

الضخم. كما لم تنفع اتصالات بعضها مع القوة السياسية الكبرى الثانية في المنطقـــة؛ أعني المصرية، ولم تكن نتيجتها سوى تبديل سيّد بآخر.

واستطاعت القوتان السياسيتان الحثية، والمصرية، وضع حـــدّ لتنـــامي قـــوة مملكـــة الحوريين-الميتانيين، التي سعت إلى جمع المدن السورية في إطارها وتشكيل قوة ثالثة سورية، وذلك بأن حاربتها عسكرياً بضراوة، وتمكنت من زرع الشقاق بين الأســـرة الحاكمة، وخلقت فيها تيارات متصارعة. ولولا ذلك لكانت المملكة الحورية الميتانيـــة مرشحة قوية لتوحيد الكيانات السياسية السورية المتفرقة.

لقد كانت سورية -بشكل عام- مسرحاً للصراع السياسي الاقتصادي بين تلك القـــوى في العصر البرونزي المتأخر أو النصف الثاني من الألف الثاني ق. م، وهو عصـــر مظلم في تاريخ سورية مقارنة مع العصور السابقة أو اللاحقة.

تسمية الحثيين مأخوذة عن التوراة، حيث يرد فيها بصيغة (حِتّم)، وتشير إلى شـــعب صغير كان يقيم في سورية وفلسطين في بواكير الألف الأول ق. م. وواضح أنـــها لا تتوافق مع السياق التاريخي ولا الإطار الجغرافي الحقيقي للحثيين، وربما تكون الدلالة التوراتية مقتصرة على مجموعات حثية استمر وجودها في ســـورية وفلســـطين بعـــد انتهاء المملكة الحثية في مطلع القرن الثاني عشر ق. م.

ثم ربطها الباحثون مع تسمية ختي Hatti التي ترددت في الكتابات المسمارية دالة على أكبر مجموعة سكانية في بلاد الأناضول أو آسية الصغرى، وكان هؤلاء يســـتخدمون في تدوين لغتهم الكتابة المسمارية أيضاً، ويسمون هم أنفسهم بـــ (نسيين). وكان يقطن معهم في المنطقة نفسها مجموعات أخرى ذات صلة بـــهم مثـــل اللوفييـــن والبـــاليين وغيرهم. ومن معاني الاسم ختي في الأكدية: الرعب والهلع الضرب والقمع[١]. كمـــا يفسره بعضهم بمعنى: أناس القمر، عبدة القمر[٢].

يقصد بـ "بلاد الأناضول" أو آسية الصغرى "جميع المناطق التركية التي تشكل منابع دجلة والفرات حدّها الشرقي. وهي مناطق جبلية وعرة بركانية يحيط بها البحر من الجهات الثلاث الأخرى. وقد كانت مأهولة منذ عصور ما قبل التاريخ، تدل على ذلك -بشكل رئيس- الآثار المكتشفة في جبل هويوك التي تشير إلى حضارة ذات طابع زراعي.

كانت هناك قبائل بدائية عدة تستوطن البلاد منذ الألف الثالث ق. م. ونعرف من هذه القبائل القديمة[٣]:

Arawanna: أي "الأحرار". وكانوا يقطنون غرب نهر الهاليس (كيزيل إرماك).

Masa: وهو اسم قبيلة صغيرة كانت موجودة في العهد الحثي ومعروفة برماحها وحرابها، ويعتقد -اعتماداً على اللغة- أنهم ذو صلة مع القسم الشمالي الغربي من شعوب الفقاس.

Gašgaš: أو الكشكيون. كانوا يقيمون في الشمال الشرقي من البلاد وفي أعالي نهر الهاليس وشمالي الفرات. يعدون من أبرز القبائل المحاربة، ويبدو من الأسلاب التي غنمها الملوك الحثيون من مواطنهم أو الجزية التي فرضوها عليها أنهم كانوا يربون الأبقار والأغنام، ويعنون بزراعة الكروم وتصنيع الخمور. وقد نظر إليهم الحثيون دوماً بحقد وفوقية، ووصفوهم بـ "رعاة الخنازير" و"نسّاجوا الكتان" وكانت حروبهم ضدهم شبه دائمة.

كانت مناطقهم غنية بثرواتها الطبيعية، وينسب بعضهم إليهم استخراج المعادن، بل ويعدّونهم مكتشفيها. ونعلم أن الآشوريين أقاموا مراكز تجارية في مناطقهم ومارسوا فيها تجارة النحاس. ويلاحظ في نمط البيوت المكتشفة هناك أنها متميزة؛ فهي مؤلفة من طوابق متعددة -على الأقل من طابقين-، وسقوفها هرمية الشكل.

إن تأمل لفظ تسميتهم وأسماء عدد من مواقعهم يقود إلى ملاحظـــة وجــود ظــاهرة التكرار المقطعي فيها، نحو جش جش، داري تارا (اسم جبل)، مالي ماليا، خان خاني. كما يلاحظ أن كثيراً من أسماء مواقعهم تنتهي بالمقطع الصوتي maha-.

يرى بعضهم أنهم ذوو صلة مع (ليليج) الذين كانوا يشكلون فئة من سكان المنطقة فـي عصور ما قبل التاريخ (الألفين السادس والخامس ق. م.). كما يشيرون إلى احتمـــال استمرار وجودهم في البلاد حتى عهود متأخرة معتمدين على مشابهة أسماء عدد مـــن مدن البفلاجونيين Paphlagonen التي ذكرها سترابون مع أسماء مواقعهم. وثمة مـــن يعتقد بأن يكونوا هم أنفسهم الذين سماهم اليونان: Kerketai، وقد أشار سترابون إلـــى وجودهم في القفقاس وقد طابق R. Bleichsteiner هؤلاء مع الشركس المعاصرين.

إنّ أقدم خبر عن بلاد الأناضول في المدونات المسمارية هو موضوع نص أدبي سماه مؤلفه في آخره بـــ "ملك المعركة أو المواجهة Sar tamhari(٤)، حيث ذكـــر: "انتـــهى الرقيم الأول من ملك المعركة". مما يشير إلى وجود تتمة للنص لم يعثر عليها بعد.

يروي لنا النص أن تجاراً آكديين مقيمين في مدينة بوروش خندا، التي يعتقد بمطابقتها مع عجم هويوك في وسط البلاد قرب بحيرة الملح، تعرضوا لمضايقات واضطهاد من قبل حكامها، فأعلموا الملك الأكدي شركين (ســـرجون ٢٣٥٠-٢٢٨٤ ق.م.) بذلـــك، وناشدوه المساعدة والحماية. استجاب شركين لطلبهم لأنهم أغروه بغنىً البلاد وثـــروة قصره الملكي، وكما تكلفوا بدفع نفقات السفر، وعبرت حملته الجبال الوعرة التي لاقى الصعاب في عبورها حتى وصل المدينة وطوقها ثم اقتحمها واحتلها، ولم يقتل حاكمها بعد أن تذلل أمامه وطلب الرحمة. واحتل المدينة ثلاث سنوات.

إنه نص تاريخي أدبي مليء بالتعابير الشعرية والوصف الفني لبطولة شـــركين ملـــك المعركة وللطبيعة التي بهرت بجمالها أفراد جيشه الذين لم يألفوا مثل تلك المشاهد في بلاد الرافدين السهلية.

كما نقرأ في نص أدبي يعود إلى عهد حفيده نرام سين (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق. م.) فخره بانتصاره على تحالف ضم عدداً من حكام تلك البلاد، من بينهم حاكم بوروش خندا وحاكم خَتّوشا(٥).

في أواخر الألف الثالث ق. م. تدفقت هجرات بشرية متتالية هندوأوروبية إلى البلاد عبر مضيق البوسفور ومناطق شرق البحر الأسود. واختلطت مع القبائل الأصلية البدائية فيها وفرضت سيادتها على أجزاء كبيرة من البلاد منها المنديون أو المحاربون المنديون ERIN Manda الذين قام نرام سين بثلاث حملات مدمرة ضدهم، أنهم كانوا يثيرون مخاوف حكام أكّد. وقد استقروا في القسم الغربي الجنوبي من البلاد الذي عرف فيما بعد باسم أرزاوا. ويرى كورنليوس(٦) Friedrich Cornelius –اعتماداً على مميزات خاصة بآثارهم المادية، كأسلوبهم الخاص في تشخيص الوجوه البشرية بشكل دائري وأشكال أدواتهم المشابهة لنماذج عثر عليها في وسط أوروبة– أنهم انطلقوا من مناطق أوروبة بغرض التجارة، ووصلوا طروادة التي كانت فيما بعد منها للقيام بأعمال الغزو والسلب في المسالك التي كان شركين الأكدي قد سار فيها وأخضعها لسيطرته.

ومنها أيضاً اللوفيون أي ذوو الثعالب (الثعالبة –كما نقول حالياً البقّارة، الغنامة..–)، وقد كانوا مغامرين وصلوا المنطقة، وتوزعوا فيها، وسادوا على سكانها الأصليين، ولاسيما بعد حملة شركين. وكذلك الباليون الذي انتشروا في مناطق الكشكين وجنوبها. والحثيون (الختيون) الذين استقروا في وسط البلاد، ثم احتلوا الصدارة بين تلك الشعوب وصاروا قادة البلاد.

لقد حافظت هذه الموجات البشرية الجديدة على لغاتها الأصلية، ولكن دخلت إليها كلمات كثيرة من اللغات المحلية الأناضولية كما تأثرت بها واستفادت منها أيضاً،

وتصنف لغاتها في مجموعة لغوية مستقلة ضمن أسرة اللغات الهندوأوروبية، وتدعى **مجموعة اللغات الأناضولية القديمة**، وأبرزها اللغة الحثية[٧].

لم تكن هذه اللغة معروفة لدى الباحثين قبل عام ١٩٠٦، حيث كشف هـ. فينكلر Winckler بالقرب من قرية بوغاز كوي حيث كانت العاصمة الحثية (ختّوشا) على بعد (١٥٠ كم/ مائة وخمسين كم) تقريباً شرقي أنقرة. عن أرشيف كتابي ضخم بلغ -حتى الآن- حوالي خمسة وعشرين ألف رقيم مدوناً بالكتابة المسمارية. كان قسم منها باللغة الأكدية، ولذلك كانت دراستها أمراً ممكناً وتحدّد من خلالها الاسم القديم للموقع وهو ختّوشا عاصمة الحثيين، كما أمكن معرفة معلومات كثيرة عن العلاقات السياسية لها. أما القسم الأكبر من النصوص فكان بلغة غير معروفة مماثلة للغة رسالتين كان قد عثر عليهما سابقاً في تل العمارنة بمصر منذ ١٨٨٧م.

في عام ١٩١٥، أعلن الباحث التشيكي هروزني B. Hrozny أنها أقدم لغة هندوأوروبية مدونة متكاملة في نحوها وثروتها المعجمية. ثم اتضحت الجوانب المختلفة لتلك اللغة التي كان أصحابها يسمونها (نيسا) شيئاً فشيئاً، وأمكن قراءة تلك النصوص، وعرفت لغتها بالحثية أي باعتماد التسمية الأكدية لمناطق انتشارها (ختي) والتسمية التوراتية للمتكلمين بها في الألف الأول ق. م. بعد زوال مملكتهم الموحدة.

يلاحظ في اللغات أو اللهجات المحلية الأناضولية أنها إلصاقية أي أنها -على غرار السومرية- تعتمد في التعبير عن وظيفة نحوية جديدة للاسم أو دلالة معنوية إضافية له على إلصاق (إلحاق، أو إضافة) سوابق أو لواحق مقطعية إليه، فقد كانت تضاف فيها سوابق إلى الاسم المفرد عند جمعه، وكذلك عند بناء الصيغ الفعلية الأساسية. كما تضاف لواحق عند بناء الصيغ الاشتقاقية. كما يلاحظ فيها خلوّ الفعل من المظهر الزمني، ولذلك لا يمكن معرفة زمن حدوثه بشكل مؤكد، ويعتمد فيه على السياق. ويلفت النظر فيها وجود أسماء أماكن كثيرة تنتهي بالسين المفتوحة المشدّدة لفظاً، نحو

Hapigassa, Haranassa, Nesa, Hattusa. كما أن طائفة من أسماء الأماكن فيها تنتهي بـ sna.

أما اللغة الحثية التي تصنف هندوأوروبية فهي لغة متصرفة كاللغات السامية لا يفرّق فيها -في الشكل الكتابي- بين الاسم المذكر والاسم المؤنث، ونوعا الجنس فيها يعتمد على تقسيم الأشياء إلى حية (مذكرة ومؤنثة) وجامدة، وللاسم فيها -إضافة إلى المرفوع والمنصوب والمجرور- ثلاث حالات أخرى (Instrumental, Ablative, Dative). ليس فيها حروف جر، ونجد لكل من الماضي والمضارع صيغتين مختلفتين، تعبر واحدة عن بداية الزمن والثانية عن استمراره ودوامه، ويعتمد بناء الجملة فيها على الاسم.

وفيما يتعلق بالأصوات فهي تقسم إلى أصوات معجمة واضحة اللفظ وأصوات مهملة يخفف لفظها أو يهمل. وصوت الراء فيها، على غرار الحورية واليونانية والفنلندية والأرمنية القديمة، يهمل تماماً، ويلفظ الشين سيناً.

وبشكل عام نجد فيها كثيراً من الرموز السومرية، والكلمات الأكدية والحورية، كما نجدها متأثرة بنحو تلك اللغات ولاسيما في صيغ علامات الجمع والعلامات المحددة التي كانت تسبق كلمات معينة ذات إطار دلالي موحد.

يؤكد الباحثون الأوروبيون دوماً صلتها باللغات الأوروبية الحديثة، ولاسيما في مجال المعجم اللغوي، ويعرضون شواهد مقارنة تؤكد ذلك، مثل watwr "مـاء"، natta "أداة النفي"، e-it "يأكل"، mallizzi "يرسم".

ولكن يبدو لي أنهم يبالغون في ذلك لأعراض معينة، ولا تخلو بعض مقارنتهم من التكلف، ولا أعتقد أن عدد الكلمات المتشابهة -أو لنقل المشتركة- كاف للحكم بذلك.

من الأمثلة على التكلّف في المقارنة أذكر من أيام الدراسة أن كلمة laitrueun التي تعني في الحثية "الشاهد" ومعناها في الأصل هو "الرابع" فُسِّرت ووضحت علاقتها مع الروسية على النحو الآتي: في الروسية تعني كلمة القاضي الثالث أيضاً، لأنه ثالث اثنين متخاصمين يقضي بينهما ويفصل. وكذلك في الحثية فالشاهد هو رابع ثلاثة هم المتخاصمان والقاضي!!

أعتقد أن اللغة الحثية نضجت وتكاملت جوانبها في بلاد الأناضول الآسيوية، ثم دوّنت فيها. وهي تجمع بين قليل من المظاهر اللغوية الهندو أوروبية القديمة، وكثير من المحلية الأناضولية الأقدم، وتأثيرات لعدد من لغات المنطقة المعاصرة لها كالسومرية والأكدية والحورية.

لقد تعرّف الحثيون على الكتابة المسمارية المقطعية -ذات الأصل الرافدي- في شمالي سورية[٨]، وتبنوّها، وسهّل ذلك عليهم إجراء اتصالات سياسية مع الممالك المجاورة، وقد استمروا يستخدمونها حتى نهاية مملكتهم في مطلع القرن الثاني عشر ق. م. ولكنهم أبدعوا في حوالي منتصف الألف الثاني ق. م. نظاماً كتابياً خاصاً يعتمد على الرموز التصويرية نقشوا به أختاماً ملكية ونصوصاً على منحوتات صخرية عُثر على كثير منها في موقع بازيليكايا بشكل خاص. وقد شاع هذا النظام الكتابي بشكل أساسي في بلادهم وشمال سورية بين ١٢٠٠-٧٠٠ ق.م.، وهي كتابات تدوّن من اليمين إلى اليسار، وتبدو مشابهة لنظم الكتابة الهيروغليفية المصرية، والكريتية، ولكنها ليست ذات صلة بها. وتسمى بـ الكتابات اللوفية الهيروغليفية"[٩].

تفيد النصوص الحثية ولاسيما المكتشفة في العاصمة ختّوشا، في تشكيل صورة عن مظاهر تاريخهم الحضاري ولاسيما الديني، لأن القسم الأعظم منها دينية المضمون تقدم لنا وصفاً للطقوس والشعائر والاحتفالات الدينية وما كان يرتل فيها من أدعية وصلوات وما يقدم خلالها من نذور وأضاحٍ.

لقد عبدوا كسائر شعوب الشرق الأدنى القديم عدداً كبيراً من الآلهة، وتحدثوا عن ألف إله في بلادهم!. وأبرز آلهتهم[١٠]، إله الطقس السماوي Taaru الذي صوّر فنياً في هيئة ثور. وقرينته إلهة الأرض Wurunsemu، التي نعتت بـ: شمس أرينّا، وملكة بلاد ختّي وملكة السماء والأرض ومديرة السيادة الملكية، وسيدة العدالة الإلهية. ومن أبنائهما الإله Telipinu إله النبات والخضرة، وثمة أسطورة عن اختفائه عن الأرض وعودته إليها تذكّر بما كان يحصل للإله دوموزي في بلاد الرافدين، وكذلك إله الطقس في نيريك، وإلهة باسم Nazzulla كانت للحرب وتذكر غالباً مع أمها Wurunsenu.

ومن آلهتهم أيضاً Estan إله الشمس والإلهة Inar الملاك الحامي و Lelwannis إله العالم السفلي و Hahnastita إلهة العرش والإله Wasezzili الذي يعني اسمه أو اسمها الأسد اللبوءة، وهناك آلهة الحب والجبل والنهر والنبع والنهار والليل والحبوب والقطيع وغيرها مما يتصل بالطبيعة والزراعة.

وقد تبنوا عبادة آلهة الشعوب المجاورة مثل زبابا، وتَشميتم، الرافديين، وتبشوب، وخبات، وشرُما، الآلهة الحورية.

وتبدو طقوسهم الدينية الاحتفالية ذات ملامح خاصة مرتبطة بالفكر الزراعي ارتباطاً وثيقاً ويظهر من تاريخهم السياسي أن الاهتمام بالحياة الدينية كان يختلف بين ملك وآخر.

ووصلنا منهم عدد من النصوص الأدبية أيضاً[١١]، وقد تأثرت معظمها بآداب الشعوب المجاورة، ولم يكن لهم إلاّ عدد قليل من النصوص التي تبدو إبداعاً حثياً خالصاً. فقد أثر فيهم الأدب الحوري بشكل واضح ولاسيما في الأسطورة المسماة "مملكة في السماء"، وقد كشف باحثون عن تأثر الشاعر اليوناني هزيود (حوالي ٧٠٠ق.م) ببعض ما ورد فيها عن الصراع بين أجيال الآلهة وظهر التأثير الحوري كذلك في أطول نص أدبي حثي كامل هو أسطورة "أنشودة أولي كومّي".

كما لا يخلو الأدب الحثي من تأثيرات الفكر الكنعاني الأسطوري، ويظهر ذلك في عدد من النصوص القصيرة صعبة الفهم أبرزها نص عن الطلاق بين الآلهة، ملخصه أن الإلهة عشيرتو، تسعى إلى إغراء إله الطقس وإغوائه، لكنه يأبى ذلك، بل ويعلم جها بذلك، ولكن بناء على توجيه الزوج ينام معها ثم يحقّرها. تغضب الإلهة وتهيج دب سبع سنوات ثم يوجهها زوجها لفعل الأمر نفسه مع إله الطقس لتروي ظمأها ى الانتقام بالطريقة نفسها ولكن الإلهة عشتار تسمع بذلك فتحوّل نفسها بومة تطير تعلم إله الطقس بذلك، وتحذّره(١٢).

كما تأثروا بأدب بلاد الرافدين ولاسيما بملحمة جلجامش، التي وصلنا منها نص باللغة الحثية، وهو ليس ترجمة بل كتب بلغة وأسلوب خاصين، إضافة إلى أعمال رافدية أخرى.

ويمكن من خلال النصوص الحثية الاقتصادية الإدارية -وهي ليست قليلة- معرفة بعض مظاهر الحياة الاقتصادية والإدارية والاجتماعية(١٣). لقد حلّت بهم مجاعات وظروف اقتصادية صعبة أحياناً، ويعود ذلك إلى محدودية المساحات القابلة للزراعة في كثير من مناطقهم بسبب طبيعتها الجبلية، واعتماد المناطق الأخرى على الزراعة البعلية، كان ذلك يدفعهم إلى القيام بحملات هدفها السلب والنهب إلى مناطق مغرية اقتصادياً ولاسيما المنطقة الشمالية من سورية وبلاد الرافدين.

كما كانت تلك الأسلاب وكذلك الضرائب التي يجنونها تساعد على تنشيط الحرف اليدوية في بلادهم، وقد تطورت منتجاتهم الحرفية، وتوصلوا إلى إبداع تقنيات جديدة في هذا المجال. وقد برعوا في مجال التعدين، لوفرة الفضة والنحاس وكذلك الحديد الذي عرفوه في وقت مبكر -منذ بداية الألف الثاني ق.م.- على خلاف شعوب المنطقة الأخرى. وقد صنعوا منه أدوات زراعية وأسلحة حربية وأدوات تزينية، كما عرفوا صهره أيضاً، وفي مجال التجارة لم تكن لهم سوق تجارية داخلية متطورة،

وإنما يركزون على التجارة الخارجية التي تعود في بلادهم إلى زمن المراكز التجارية الآشورية القديمة. وقد كانت التجارة مرتبطة بالقصر الملكي، حيث يمارس التجار أعمالهم لصالحه ولتأمين حاجاته بطلب منه، ولذلك يوصفون بـ "تجار الملك"، ويعود ذلك إلى طبيعة النظام السياسي ذي الطابع العسكري الحريص على القبض على زمام كل الجوانب.

ويمكن وصف بنية المجتمع الحثي بأنه كان قبلياً إقطاعياً، ثم صار مع إنشاء المملكة الموحدة ذا طبيعة عسكرية ديمقراطية شكلياً. لقد كان نظام الحكم ملكياً وراثياً، وقد أدى ذلك إلى حصول نزاعات بين الأسرة الحاكمة والطبقة الأرستقراطية في البلاد.

كان الملك يعتمد على فئة كبيرة من الموظفين الممتثلين لأوامره، وله قيادة الجيش وكذلك الزعامة الروحية الدينية فهو يمثل إله الطقس الإله الرئيس. صحيح أن الملوك لم يؤلهوا أنفسهم -مثل ملوك أكّد وغيرها-، ولكنهم عدّوا من الآلهة بعد موتهم، فقدمت لهم مثل الآلهة- نذور وأضاحٍ.

أدت الملكة دوراً هاماً في قيادة البلاد إلى جانب الملك، وبرز بعضهن بأدوار متميزة مثل توناّنا، كما عمل الأمراء قادة لكتائب من الجيش. ولجأ الحكّام إلى الزواج السياسي وسيلة لتقوية الصلات مع القوى السياسية والعسكرية الأخرى.

ابتدع الحثيون نظام إقطاع الأراضي أو إلزامها للحكام الموالين لهم خارج البلاد كما في سورية الشمالية، وعقدوا معهم معاهدات تبعية جائرة مدوّنة باللغتين الأكدية والحثية. وقد ضمنوا -بربطهم معهم اقتصادياً- موالاتهم ومساعدتهم والتزامهم بدفع ضرائب سنوية ثابتة لهم. وكان يتوجب على المُقْطع أن يتخلى عن حق ممارسة أي عمل سياسي خارجي دون أمر الملك، وألا يأوي الحثيين اللاجئين الفارين ويخفيهم وأن يرسل بين فترة وأخرى رسلاً محملين بالهدايا إلى القصر الملكي. وذلك مقابل تمتعه بالاستقلال الشكلي في بلاده وحرية التصرف بأراضٍ هي بالأصل أراضيه.

لقد دفعت الروح العسكرية لدى الحكام وضخامة عدد سكان البلاد والرغبة في تنظيم شؤونها وربط الأمور مع مركز قيادة البلاد إلى إصدار قوانين ومجموعات مراسيم مفصّلة تتناول مسائل حياتية متنوعة، أهمها القانون الحثي(١٤). الذي عثر عليه مدوّناً في رقميين كبيرين، ويتألف من مئتي فقرة تتعلق بحالات القتل والضرب الإيذاء والسرقة والخدمة في الجيش وغيرها. وهي متأثرة -بشكل واضح- في أسلوب صياغتها الشرطية (إذا حصل كذا وكذا فالعقوبة هي كذا) بالقوانين البابلية.

ويجد كذلك نص قانوني أصدره الملك تلبينو (١٥٠٠-١٤٧٥ق. م.) يخص الأسرة الحاكمة وينظم عملية وراثة العرش ويضع أسساً لها. وقد دفعه إلى ذلك ازدياد الفتن والمؤامرات والاغتيالات ضمن الأسرة الحاكمة، فحاول بذلك وضع حداً لها(١٥).

أما آثارهم الحضارية المادية فتشكل الشواهد المعمارية أبرزها ولاسيما المكتشفة في العاصمة ختّوشا (بوغاز كوي، أو بوغاز كاله شرقي أنقرة)(١٦). كانت المدينة مأهولة في نهاية الألف الثالث ق. م. ، وكان فيها مركز تجاري آشوري قديم (كاروم) في القرن التاسع عشر ق. م. وفي حوالي ١٦٥٠ق. م. اختارها الملك لابارنا عاصمة له، وسمى حفيده ختّو شيلي (الأول) نسبة إليها.

يخترق المدينة رافدان لنهر بوداكوز يحصران بينهما المدينة السفلى وآثار المركز التجاري الآشوري والمعبد الكبير وقلعة المدينة وقصرها الملكي والقلعة الجنوبية. وفي جنوب المدينة (المدينة العليا) يوجد حصنان (الأزرق والجديد)، وعدد كبير من المعابد الصغيرة.

كانت قلعة المدينة الرئيسة محاطة بسور شبه بيضوي، بداخلها باحة محاطة برواق تحرسه تماثيل بازلتية ضخمة لأسود، كما ضمّت القلعة قصراً ملكياً ضمّ غرفة خاصة بالرقم الطينية. أما المعبد الرئيس الواقع في أقصى الشمال فقد كان مخصصاً لإله الطقس والعاصفة، ويشبه في مخططه المعابد الرافدية، وهو محاط بسور قوي ذي

بوابات ثلاث. وكانت المعابد الثانوية العديدة في الجنوب منفصلة عن بعضها ولكل منها مخطط متميز عن الآخر.

وقد أحيطت المدينة بسور مزدوج في قسم كبير منه، وله سبع بوابات (البوابة الشمالية، الجنوبية، الغربية السفلى، الغربية العليا، بوابة الأسد، بوابة أبي الهول Sphinx، بوابة الملوك) وكانت عليها أبراج دفاعية.

وقد تميزت عمارة هذه الأبنية الرسمية في العاصمة بحجارتها الضخمة المنحوتة، ونوافذها الكبيرة، والاهتمام بجمالية الأعمدة والأروقة والمداخل التي نصبت فيها تماثيل منحوتة متنوعة.

وعلى بعد كيلومترين فقط في الشمال الشرقي من المدينة يقع موقع يازيليكيا، الذي توجد فيه مجموعة كبيرة من التماثيل الضخمة المحفورة على صخور، وتمثل مجموعة الآلهة الحثية.

لقد دُمّرت هذه المدينة "العاصمة" في مطلع القرن الثاني عشر ق. م.، ثم أعيد بناؤها جزئياً والسكن فيها في القرن السابع ق. م. -عندما سيطر عليها الفريجيون-، وصارت تسمى Pteria. وما زالت آثارها باقية، وأقيمت القرية الحديثة في الشمال الغربي منها.

أما العمارة الشعبية فقد ظهرت آثارها في مواقع عدة. ويلاحظ فيها أن البيوت كانت منظمة متجاورة، وأن المبنى الواحد كان مؤلفاً عادة من غرفتين أساسيتين كبيرتين تضاف إليهما عند الحاجة غرف أخرى، كما كان ذا طابقين يصعد إلى الثاني المخصص للسكن منها بدرج خشبي في طرف الأول المخصص للحاجات المعيشية، ويبدو أنه لم تكن هناك حاجة إلى وجود ساحات أمام المباني كما هي الحال في بلاد الرافدين. وقد استخدمت في بنائها الحجارة وكذلك الآجر.

في مجال الفن التشكيلي تميّزت بشكل خاص المنحوتات المجسمة والنافرة المحفورة في الصخور. وقد اهتم بها الحثيون لارتباطها بالمجالين الحربي والديني، فقد صوروا بها الانتصارات الحربية والمشاهد الدينية والأسطورية ووضعوها في مداخل المدن والقصور الملكية والمعابد. كما اهتموا بتشكيل تماثيل للمحاربين ركزوا فيها على إظهار قوتهم العضلية ولاسيما عضلات القدمين والركبة، ويظهر المحارب عادة وهو يحمل سلاحه على خصره، ويلبس عمامة متميزة تغطي رأسه وأذنيه، ويرتدي ثوباً قصيراً يصل إلى أعلى الركبة.

كما عثر على تماثيل معدنية برونزية ذات طابع ديني، تمثل غالباً المرأة في حالة الجلوس، وتحمل طفلاً أحياناً.

تبدو أختامهم الأسطوانية متأثرة بالرافدية والسورية، كما ظهرت التأثيرات السورية بشكل واضح في بعض الأعمال الفنية المصنوعة من العاج التي عثر عليها في موقعي عجم هويوك، وألاجه هويوك.

وفي سورية الشمالية خلال العصر البرونزي المتأخر يلاحظ استمرار التقاليد الفنية السورية الخاصة، مع الاستفادة من الاحتكاك والاطلاع على حضارات الشعوب المجاورة في خلق إبداعات فنية جديدة.

وتظهر بعض ملامح التأثير الحثي في الفن السوري آنذاك في مجال العمارة بشكل خاص، وذلك في بوابات أوغاريت الحجرية ذات الشكل الهرمي، ولكنها متميزة في طريقة صف الحجارة بشكل مائل وعقدها معاً في القمة ببلطة كبيرة، وكذلك في أنماط البيوت السكنية والأسوار الدفاعية كما في إيمار. ويحتمل وجود تأثير أكبر في عمارة موقع كركميش (جرابلس) العائدة إلى ذلك العصر، ولكنها لم تكتشف بعد.

أما التاريخ السياسي للحثيين فهو -رغم قصره الزمني- حافل بالأحداث، وقد تركّز الحديث هنا على ما يلقي ضوءاً على الصراع الحثي السوري وحملات الحثيين على

المناطق السورية الشمالية، وذلك خلال العصر البرونزي المتأخر (١٦٠٠-١٢٠٠ق.م.).

يمكن تقسين التاريخ الحثي إلى أربع مراحل أساسية، وهي:

١- المرحلة السابقة لتأسيس المملكة.

٢- المملكة القديمة.

٣- المملكة الوسطى.

٤- المملكة الحديثة.

تضاف إلى ذلك مرحلة خامسة هي التالية لانهيار المملكة أي مرحلة الألف الأول ق.م.

ما زالت المرحلة الأولى غير واضحة تماماً. إذ يبدو أن نزاعات حصلت بين المراكز الحضارية في بلادهم، وظهر خلال ذلك وجهاء زعماء سمّوا أنفسهم بـ "الأمراء العظام"، الذين وحّدوا التابعين لهم، وخلقوا لمراكز وجودهم حدوداً خاصة. وفي تلك الفترة كان التجار الآشوريون يجولون في بلاد الأناضول، ويؤسسون مراكز تجارية خاصة. وصلتنا من تلك المرحلة رسالة لـ (آنوم خربه) حاكم مدينة ماما -التي يعتقد أنها تطابق موقع Göksün جنوب شرقي كانيش- إلى ورَشاما حاكم كانيش ويرد اسم صاحب الرسالة هذه في نص لشلمنصر الثالث -أي بعد الرسالة بحوالي ألف سنة-، ونعلم من النص أن آنوم خربه كان من أبرز حكّام تلك البلاد في عهده (في حوالي ١٨٠٠ق.م.)[١٩].

كانت مدينة كُشّار من المدن الهامة على طريق القوافل التجارية الآشورية، وكانت تتبع لحكمها مدن أخرى. وقد استفاد حكّامها من الضرائب التجارية، وأصبحوا أغنياء وذا جيش قوي. ومن أبرزهم بيتْخانا وابنه أنيتّا. وثمة نص ينسب إلى الابن، يتحدث

فيه عن حملات وفتوحات عسكرية قام بها أبوه ضد مدن المنطقة مثل نيسا/ كانيش، التي عاملها كمدينة مقدسة ثم نقل مركزه إليها. أما هو فقد حاول توحيد أجزاء البلاد، وقهر تحالفاً بين حاكمي ختّوشا وزلْبا (ألاجه هويوك شمال ختّوشا)، وأعلى مكانة نيسا دينياً وسياسياً. وقد عاصر بزوغ نجم ملك آشور الأموري شمشي أدد الأول ثم انهيار قوته التي لم يستطع أبناه الحفاظ عليها، فأنهى المركز التجاري الآشوري في كانيش في أواخر القرن الثامن عشر ق.م.

بعده قام أحد خلفائه بعبور جبال طوروس إلى الجنوب، وقام أحد القادة العسكريين بحصار مدينة أورشوم (شمال حلب وغرب كركميش)، ويرد في النص الذي يروي أخبار الحصار أن حاكم حلب أرسل إلى القائد العسكري قوات للمساعدة. ولا يبين النص نتائج ذلك[٢٠]. ولكن هناك نصان قصيران[٢١]، يذكران تغلغل قائد القوات الحلبية واسمه زُكراشي Zukraši في بلاد الأناضول، ونشوب حرب ضده أدت إلى جرحه وقتله. وزُكراشي هذا يذكر في نصوص آلالاخ[٢٢]، وهو على الأرجح من الجيل التالي لحمورابي حلب، ويعود إلى حوالي ١٦٧٠ق.م.

في هذه الفترة (أوساط القرن السابع عشر ق.م.) انتقلت السيادة في شمالي غربي بلاد الرافدين إلى الحوريين، الذين بدأوا يتوسعون غرباً في شمال سورية. وبذلك صاروا يشكّلون خطراً على حكّام بلاد الأناضول ويهددون علاقاتهم التجارية مع بلاد الرافدين ومصر عبر سورية.

أما المرحلة الثانية مرحلة المملكة الحثية القديمة فتبدأ حوالي ١٦٠٠ ق.م. عندما ظهر من أسرة كُشّار حاكم قوي عرف باسم لابارنا (ومعناه السيّد). لقب نفسه بـ "الملك الكبير"، واهتم بمدينة ختوشا ومنطقتها، ووسع مناطق نفوذه (من بحر إلى بحر) كما يرد في نص لخليفته[٢٣]، أي من البحر الأسود إلى الأبيض المتوسط، ونظم البلاد في مقاطعات، عيّن في الجنوبية منها (شمال سورية) أبناءه وأقارب له حكّاماً عليها. ولعل

ذلك دليل على وجود مخاوف من حكّام الدويلات السورية، وتعاون سكان المقاطعات الجنوبية معها. وفي أواخر حياته أصدر مرسوماً سمي فيه ابنه أو ابن صهره -الذي سماه في المرسوم لابارنا أيضاً- وريثاً له، وقد عرف فيما بعد باسم ختّوشيلي (الأول).

في عهده صارت ختّوشا مركزاً للحكم، وفي ذلك -إضافة إلى صلة اسم الملك باسم المدينة- إشارة إلى أن المدينة وهي مكان ولادته أو إقامته. قام بحملات عدة شملت معظم المناطق؛ أشهرها حملة على مدينة زلبا الشمالية (ألاجه هويوك). فقد كانت إحدى بنات الملك متزوجة من حاكمها أو أحد أبنائه؟ وقام أحد حرّاس جناح النساء بقتلها[٢٤]. فكان قرار الثأر من المدينة، التي تتالت عليها الحملات حتى أبيد سكانها ودمّرت.

كما قام بحملة على شمال سورية، واحتل آلالاخ، ويدّعي في تقرير حربي له أنه دمّرها[٢٥*]، ولكن يرجح أن ذلك تعبير مجازي، فآثار الطبقة الأثرية المعاصرة للحدث (ط٦) لا تشير إلى دمار حقيقي[٢٦]. وباحتلاله آلالاخ التابعة لحلب فقدت حلب واحدة من أهم مراكزها العسكرية القريبة من المملكة الحثية. كما هاجم أورشوم شمال حلب ونهبها مع مدن أخرى صغيرة هناك. وقد كان هدفه من ذلك ملك حلب الذي كان يقود تحالفاً يضمّ عدداً من حكام سورية الشمالية، ومعظمهم حوريون. وعندما انشغل ختوشيلي بعدها بسنوات، بحملات في المناطق الجنوبيّة الغربية (أرزاوا) تغلغل الحوريون في بلاده، واستسلمت لهم مدن كثيرة، ووصلوا حتى غرب أنقرة. ولكن ختوشيلي تراجع بسرعة من منطقة أرزاوا، وحاول أن يحاصر الحوريين ويقطع عليهم طريق الانسحاب، فأدرك الحوريون ذلك، فتراجعوا بسرعة وحصلت معارك بينهم في المناطق القريبة من شمال سورية.

كما تذكر تقاريره أنه توجه في السنة السابعة من حكمه إلى Haššuwa التي تعرف من وثائق ماري أنها كانت في المنطقة الفراتية الواقعة بين كركميش وسمساط[٢٧].ويذكر أن حاكمها تحالف مع حلب، وواجهه مع قوات حلبية في هضاب أدالور، ولكنه يقول: "لقد عبرت نهر Pyaramus (سيحون؟) كأسد، وضربت خشوًا كأسد"[٢٨]، ثم دخلها ونهبها وحمل منها أسلاباً كثيرة. كما قام في السنة التالية بحملة على مدينة Hahhum القريبة من سمساط -وقد كانت هذه المدينة من المراكز الأساسية لتجارة الذهب- ويقول بأنه أحرقها وربط ملكها أمام عربته.

وفي أواخر عهده قام بحملة على حلب لم يحقق فيها نجاحاً هذه المرة، فقد جرح في الحرب جرحاً قاتلاً، فنقل إلى مدينة كشّار العاصمة الأولى. وهناك دعا كبار رجال المملكة أو مجلس الأشراف (بانكو) للاجتماع، وعيّن حفيده الفتى مورشيلي وريثاً له، وطلب من مستشاريه أن يربوه تربية قاسية، فلا يأكل سوى الخبز ولا يشرب سوى الماء، وعندما يشبّ يأكل طعاماً جيداً ويشرب خمراً. ويأمل منه أن يكون وريثاً محباً لسفك الدماء[٢٩]. وكأنه يوحي له بضرورة الانتقام من أهل حلب.

ولذلك كانت أولى أعمال مورشيلي (الأول) عندما استلم عرش المملكة احتلال حلب وتدميرها[٣٠]، كما استمال عصابات الخابيرو والمرتزقة لممارسة أعمال تخريبية في سورية، ونجح في تقليص النفوذ الحوري في المناطق القريبة من الفرات، وتابع سيره حتى بابل واحتلها وأنهى حكم سلالة حمورابي الأمورية فيها، وأخذ منها غنائم كثيرة، ولاسيما تماثيل الآلهة، وكان قبلها قد نقل تماثيل آلهة حلب إلى مدينتي ختّوشا العاصمة وساموخا (كرشهِر قرب ملطية). ولم يطل وجوده في بابل لبروز الخطر الحوري على بلاده[٣١].

خلال غيابه المتكرر عن قصره وبيته، كانت زوجته قد سلمت نفسها لـ "خانتيلي" أحد أفراد حاشية القصر وأنجبت منه[٣٣]. فأعد خانتيلي -مع صهر الملك المدعو زيدانتا-

له استقبالاً غير منتظر. لقد قتلاه عند وصوله. ثم تزوج خانتيلي الملكة الأرملة واستلم العرش دون أن يحمل لقب "ملك". اضطربت البلاد في عهده، وتراجعت القوات الحثية عن كثير من المدن الواقعة على حدود سورية الشمالية مثل أشتاتا (إيمار) وكركميش وخوربانا. واستطاعت حاكمة حثية تتمتع مدينتها Sugziya بالاستقلال -لوقوع مدينتها في سهل ضمن سلسلة جبال طوروس شمال منعطف الفرات يصعب الوصول إليه- أن تقبض على الملكة الخائنة وتأسرها وماتت هناك بطريقة ما، فثأر لها خانتيلي وقضى على حاكمة Sugziya وأبنائها.

استغل الحوريون هذا الوضع ودعموا نفوذهم في شمال سورية، وازداد وجودهم في غرب الفرات ولاسيما في مملكة حلب. وإلى هذه الفترة يعود النقش الكتابي المطول الموجود على تمثال أدريمي ملك آلالاخ وموكيش الذي فرّ من حلب إلى أخواله في إيمار فلم يلقَ حياة عزيزة عندهم فانتقل إلى بلاد كنعان عبر البادية، وبقي هناك فترة من الزمن طامحاً إلى مساعدة مصرية للعودة إلى عرش آلالاخ. وقد تحقق له فيما بعد، وعاد إلى حكمه تحت سيادة الملك الحوري بَرتَرْنا. ونعلم أن أدريمي اشترك معه في الحرب ضد الحثيين في مناطق كليكية وغرب الفرات[٣٣].

وعندما أصبح خانيتيلي عجوزاً واقترب من الموت -كما جاء في نص كتابي[٣٤]- قتله زيدانتا ابن زوجته وأبناءه وتسلّم العرش، ولكن حكمه لم يدم سوى شهور عدة. لأن ابنه آمونا الذي شبّ لم ترضه أفعال أبيه الذي شارك في قتل جدّه وقتل جدّته، فقتل أباه بيده، وآل الحكم إليه، وضعفت المملكة في عهده، وكثرت التمردات، ومات بشكل مفاجئ بعد حكم حوالي سنتين فقط، ثم انتقل إلى خوزيّا الذي لا نعرف صلته مع الأسرة الحاكمة، فلم يستطع أن يدير البلاد طويلاً، وخلفه حموه تيليبينو[٣٥]، الذي أنهى مسلسل الأحداث الدموية في القصر وذلك مع بداية القرن الخامس عشر ق.م.

أراد تيلبينو تحقيق الهدوء وإغناء الروح الدينية في البلاد، وأصدر قانونه الدستوري الشهير[٣٦]، الذي وضع فيه نظاماً محدداً لوارثة العرش، وأفسح مجالاً للديمقراطية. كما اهتم بالقوة العسكرية، وقام بحملات على خشوا والجش جش في الشمال وكيزّوفاتنا في مناطق كليكية، وضعفت في عهده الصلات مع منطقة شمال سورية التي شهدت صراعاً بين الحوريين والمصريين، فقد وصل تحوتمس الثالث حتى منعطف الفرات وانتزع مناطق كثيرة من السيادة الحورية.

المرحلة الثالثة (المملكة الوسطى) مرحلة انتقالية قصيرة دامت حوالي قرن من الزمن، تفاصيلها غير واضحة تماماً. حكم خلالها خمسة ملوك أشهرهم توتخاليا (الثاني) الذي كان حوري الأصل. لقد حارب الحوريين بضراوة، وتروي النصوص أنه أسر سبعة آلاف محارب منهم، ونقلهم إلى عاصمته. كما هاجم حلب وأرغمها على العودة إلى السيادة الحثية.

وفي معاهدة عقدت فيما بعد بين الملك مورشيلي (الثاني) وملك حلب استرجاع لأخبار عهد توتخاليا هذا وزعم بأنه دمّر حلب، ولكن يعتقد أنه لم يكن تدميراً حقيقياً.

في آخر هذه المرحلة حكم توتخاليا (الثالث) الذي تمزقت البلاد في عهده، وثارت عليه كل مناطق أطراف المملكة الداخلية، وكذلك الحوريون الذي عبروا الفرات، واحتلوا المناطق الجبلية غربه، ولم تبقَ للملك سوى منطقة صغيرة كثيفة السكن بين بحيرة الملح وجانبي نهر الهاليس.

وفي هذه الأثناء بدأ التحرك المصري بعقد صلات مع منطقة أرزاوا الساحلية. في رسالة من تل العمارنة[٣٧]، نقرأ أن أمنحوتب الثالث طلب يد ابنة تَرخُنْدا رابا ملك أرزاوا، وأرسل له هدايا كثيرة ثمينة مع رسوله علّه يوافق ويرسل ابنته. كما استلم رسالة استلم بلغة أهل أرزاوا[٣٨]. ولا ندري أتحققت رغبته؟.

لم يستطع الملك الحثي السيطرة على الوضع السيئ، (ولم يكن بطلاً كما وصفه ختوشيلي الثالث فيما بعد[٣٩]، ولم تجد محاولات بعض القادة العسكريين في إنقاذ البلاد، حتى بزوغ نجم ابن الملك شوبيلو ليوما[٤٠]، الذي تتالت نجاحاته العسكرية، واستحق وراثة العرش رغم أنه لم يكن الوريث الشرعي. وقد استطاع أن يعيد للملكة أمجادها، وبحكمه تبدأ مرحلة المملكة الحثية الحديثة التي استمرت حوالي قرنين.

لقد كان شوبيلو ليوما محارباً بارعاً ينتقل من ساحة إلى أخرى ورجل دولة ناجحاً وحاكماً عادلاً، سعى إلى إخماد المقاومين التقليديين للمملكة في جميع الجهات، كما اهتم بأعمال البناء والتحصين وتنظيم الشؤون الداخلية. وفي عهده يتردد ذكر السوتيين في النصوص -وهم من بدو الفرات الأوسط يعدّون جزءاً من أسلاف الآراميين-، فقد حارب مجموعات منهم كانت قد تغلغلت في مناطق الفرات الأعلى.

في بدايات حكمه توجه إلى الجنوب واحتل المعابر المؤدية إلى شمال سورية، ثم تابع مندفعاً لقمع تمرد ضد سيادته في مدينة أرماتينا Armatena التي يبدو أنها في شمال الساحل السوري. وفي طريقه حارب كركميش وحلب وأوغاريت ونوخشي (بين حلب وحماة في جهة البادية) وكينزا (قاديش)[٤١]. ولم يكن هدفه الاستقرار في سورية بل الحصول على اعتراف دويلاتها ومدنها بقوته وتحصيل الضرائب منها.

في النصف الثاني من حكمه استفاد من خلافات داخل القصر الميتاني، وساعد متعاونين معه في تولي الحكم، فضمن جانبهم مما جعله بمأمن من الخطر الآشوري المتزايد، كما عقد صلات مع بابل وتزوج (المُتَرّمِل مرتين!) من أميرة بابلية (تُدعى Tawananna) غدت فيما بعد ذات شأن[٤٢].

وقام بحملة جديدة على سورية احتل في باديتها مدينة حلب، ونصب ابنه الكاهن تلبينو حاكماً عليها، ثم موكيش، وقابله حاكم نيا (على العاصي، سهل الغاب) بالاستسلام له ثم Arahti فقطنا. وسار ملك أوغاريت (نقميبا) لمقابلته، وسجد أمامه طالباً العفو لأنه

لم يشاركه في حملته هذه كما طلب منه في بداية الحملة واعداً إياه بتوسيع المناطق التابعة له، فعفا عنه، وعقد معه معاهدة جديدة وألزمه بدفع جزية أكبر(٤٣). ثم أخضع نوخشي وبدّل حاكمها(٤٤)، وعاد إلى الجنوب متوجهاً نحو بلاد أبينا (حوالي دمشق)، وفي طريقه احتل كينزا. ويقول في خاتمة تقريره السنوي عن حملاته هذه مفتخراً: (لقد أنجزت كل هذا في عام واحد).

لقد ترك مراقبة الشؤون السورية لابنه تلبينو حاكم حلب، وعاد إلى بلاده.

في السنة التالية حصلت تبدلات سياسية في سورية. فقد فوجئ تلبينو بهجوم ضخم للسوتيين، ادّعى فيما بعد أنه ردّهم، ثم سافر إلى أبيه ليشرح له الأوضاع، ويطلب المساعدة. وكانت فترة غيابه عن حلب فرصة استغلها الحوريون الميتانيون والمصريون للهجوم على المناطق التابعة له من الشرق والجنوب. فنظم الملك الحثي حملة جديدة على سورية وصلت قواتها حتى مناطق دمشق وحاصر كركميش واحتلها بصعوبة وكلف أحد أبنائه (شرّي كوشوخ) بحكمها.

في تلك الأثناء مات ملك مصر توت عنخ آمون. وكانت أخبار الانتصارات الحثية في سورية تصل إلى هناك. وتروي لنا رسالة من أرشيف ختّوشا(٤٥) أن شوبيلو ليوما فوجئ بوصول رسول مصري أرسلته الملكة المصرية الأرملة نقل إليه رجاءها بأن يرسل إليها أحد أبنائه ليكون زوجاً لها كي لا تضطر إلى الزواج من أحد خدمها، بعد انقضاء فترة الحداد (سبعين يوماً). خشي الملك أن يكون ذلك خدعة، فأرسل جواسيس له للتقصي. وبعد فترة عادوا، وعاد الرسول المصري ناقلاً لوم الملكة على ذلك التفسير السيئ لرغبتها الحقيقية وتأكيدها على انه لا يوجد في البيت الملكي المصري حيّ واحد يمكن أن تتزوجه، وأنها لم تعرض رغبتها على أي ملك آخر، ...فأرسل الملك ابنه زنّانزا Zaunnazas؟ مع الرسول للزواج والسيادة على العرش المصري.

وفي العام نفسه لجأ إليه كورتي وازا وريث العرش الميتاني في وشوكاني طالباً مساعدته ضد معارضين في القصر[٤٦]، فزوّجه شوبيلو ليوما ابنته، ووجّه حاكم كركميش لمساعدته في العودة إلى حكم مملكة ميتاني ومراقبة المنطقة الفراتية بين أشتاتا (إيمار) وترقا. وشعر الملك الحثي بأنه بات السيد الأوحد في المنطقة؛ فمصر ستكون في يد أمير حثي وميثاني محكومة بإشرافه. ولكن المفاجأة أيقظته من حلمه؛ فقد قتلت المعارضة المصرية ابنه قبل أن يفوز بالعرش، فثار وقام بحملة للثأر. عبر سورية إلى فلسطين فجنوبها حيث مناطق السيادة المصرية، ولكنه اضطر مرغماً إلى التراجع بسبب وباء انتشر بين محاربيه.

وفي مملكة ميتاني جابه ابنه وصهره مقاومة شعبية مؤيدة للملك الميتاني المنافس (شوتا ترنا) ولم يكن سهلاً عليهما دخول العاصمة وشوكاني.ثم جاءت قوات آشورية لمساعدة شوتا ترنا، واضطر الحثيون إلى التراجع أيضاً. ثم انقطعت أخبار هذا الملك المتميز بين ملوك الحثيين حتى وفاته.

في عهد ابنه الأكبر ووريثه أرنو فندا (الثاني)، الذي حكم فترة قصيرة (٣ سنوات) لا نجد أخباراً عن سورية. وتنازل ابنه حاكم كركميش (شرّي كوشوخ) عن حقه في وراثة العرش لأخيه الأصغر مورشيلي (الثاني) الذي حكم حوالي ثلاثين عاماً (١٣٤٩-١٣٢٠ق.م.).

لقد حارب أيضاً في جبهات عدة، واهتم بإحياء الحياة الدينية التي أهملها أبوه في سنواته الأخيرة. وفي سنته السابعة حصل تمرد ضده في نوخشي استطاع حاكم كركميش السيطرة عليه. وبعدها خلال مشاركته في احتفالات لتشييع موتى وباء انتشر في مدينة كومّاني، مدينة الإلهة خبات، جاءه خبر انتفاضة جديدة في نوخشي، فتوجه لقمعها، وضرب خلال حملته مدن حلب وكينزا وأشتاتا. ونصب في حلب ملكاً جديداً بعد موت تلبينو[٤٧]، ودعاه للتوقيع على معاهدة يقرّ فيها بعدم محاولة الاستقلال عن

الحكم المركزي، رغم أن الملك الجديد كان ابن أخيه. والمفيد في نص هذه المعاهدة أنه بدأ بلمحة عن علاقة حلب منذ القديم مع المملكة الحثية[٤٨].

لم يكن سهلاً عليه تهدئة الأوضاع والسيطرة عليها في سورية. وآخر أخبار المدن السورية في تقاريره هي موافقته على استقلال حاكم سيانو. والأرجح أنه أحسّ بصعوبة السيطرة عليها فأهمل التفكير بالسيادة عليها وتركها تحكم نفسها، وانصرف إلى الاهتمام بشؤونه الداخلية والحياة الدينية.

تسلّم العرش بعده ابنه مُونلّي (١٣٢٠-١٢٩٠ق.م.) الذي اشتق اسمه من لقب إله الطقس. لا نعلم تفاصيل أخبار عهده لأنه نقل العاصمة من ختوشا إلى دتّاسا في منطقة نهر خولايا ولم تكتشف بعد، ولذلك لم يصلنا أرشيفه الملكي. يبدو من أخباره المذكورة في وثائق حثية تالية[٤٩]. وفي الكتابات المصرية على جدران معبد أبي سنبل في النوبة أن أبرز أحداث عهده كانت معركة قادش (تل النبي مند) التي واجه فيها الجيوش المصرية بقيادة رعمسيس الثاني (في حوالي ١٢٩٩ق.م.).

كانت هذه المعركة[٥٠] تتويجاً لمحاولات مصرية سابقة (في عهد ستي الأول) للتوسع في مناطق النفوذ الحثي في شمال سورية. ولكن رعمسيس الثاني هاجم بقوة أكبر، وسار بحملته في الشريط الساحلي حتى سيميرا (تل الكزل). وقابله بالمثل الملك الحثي وحصلت المعركة في قادش، وقد دونت أخبارها بالكلمة والصورة بشكل مفصل، ولا نعرف تفاصيل نهايتها، ولكن رعمسيس الثاني يدعي أن الحثيين عرضوا عليه اتفاقاً لوقف الحرب، كما يقرّ بتخلي قواته عنه خلال هجوم حثي مفاجئ. ونعلم أن الحثيين توغلوا إلى جنوب قادش حتى مناطق دمشق، وهم الذين عينوا حاكماً جديداً في أمورو مما يوحي بتفوقهم. ولكن ذلك لا يعود على الأرجح إلى القيادة الناجحة للملك الحثي مونلّي الذي (لم يكن رجل أفعال بل محباً للطبيعة) كما تذكر النصوص اللاحقة! بل إلى أخيه ختوشيلي الثالث ومساعدة كثير من المدن السورية له.

بعده استلم ابنه مورشيلي الثالث العرش وتفرد عمه ختوشيلي الثالث ببعض المناطق المهمة، ومع الزمن ظهر الصراع بينهما وتمكن العم الخبير بشؤون الحرب والإدارة من الانتصار عليه في معركة بينهما، وحاصره في مدينة ساموخا، ثم أسره وأعلن نفسه ملكاً.

أبعد ختوشيلي الثالث الملك المخلوع إلى بلاد نوخشي في سورية.حاول مورشيلي أن ينتقل إلى بلاد بابل للاتفاق مع ملكها ضد عمه، ولكنه أخفق، وأُبعِد إلى الساحل السوري، ومن هناك هرب إلى مصر. ونعلم بعدها أن ختوشيلي الثالث حاول تحسين العلاقات مع مصر وآشور وبابل، وقاد حملات داخلية عدة اعتمد فيها على ابنه لكبر عمره، وعندما مات تولى العرش ابنه توتخاليا الرابع (١٢٦٥-١٢١٥) الذي حكم أطول مدة بين ملوك الحثيين (٥٠ عاماً).

كان توتخاليا فتى ذا تجارب حربية سابقة، وقد شاركته أمه في شؤون الحكم في أول عهده. وبرزت ضده أخطار داخلية كثيرة، ولكن الأصعب من ذلك هو بدء الصراع الآشوري الحثي في عهده، فقد بدأ الملوك الآشوريون -بدءاً من توكولتي الأول- يهاجمون المقاطعات الحثية في مناطق الفرات، ويذكر الملك الآشوري في إحدى حولياته أنه أجلى منها ٢٨,٨٠٠ حرفي حثي إلى عاصمته آشور[٥١]. وقد دفع ذلك الملك الحثي إلى أن يفرض على حكام المقاطعات السورية التابعة لنفوذه عدم إقامة أية علاقات تجارية مع آشور وعدم السماح بوصول أية مواد إليها عبر الساحل السوري من قبرص وغيرها (ولاسيما النحاس)؛ ويعدّ قراره هذا من أقدم الشواهد على سياسة الحصار أو الحظر الاقتصادي[٥٢].

ولتحقيق ذلك بدقة حسّن علاقاته مع حكام سورية، كما كانت علاقاته حسنة مع مصر إذ تروي النصوص أن مصر زودته في سنة قحط (١٢٣٦-١٢٣٥ ق.م.) بسفن مليئة بالحبوب.

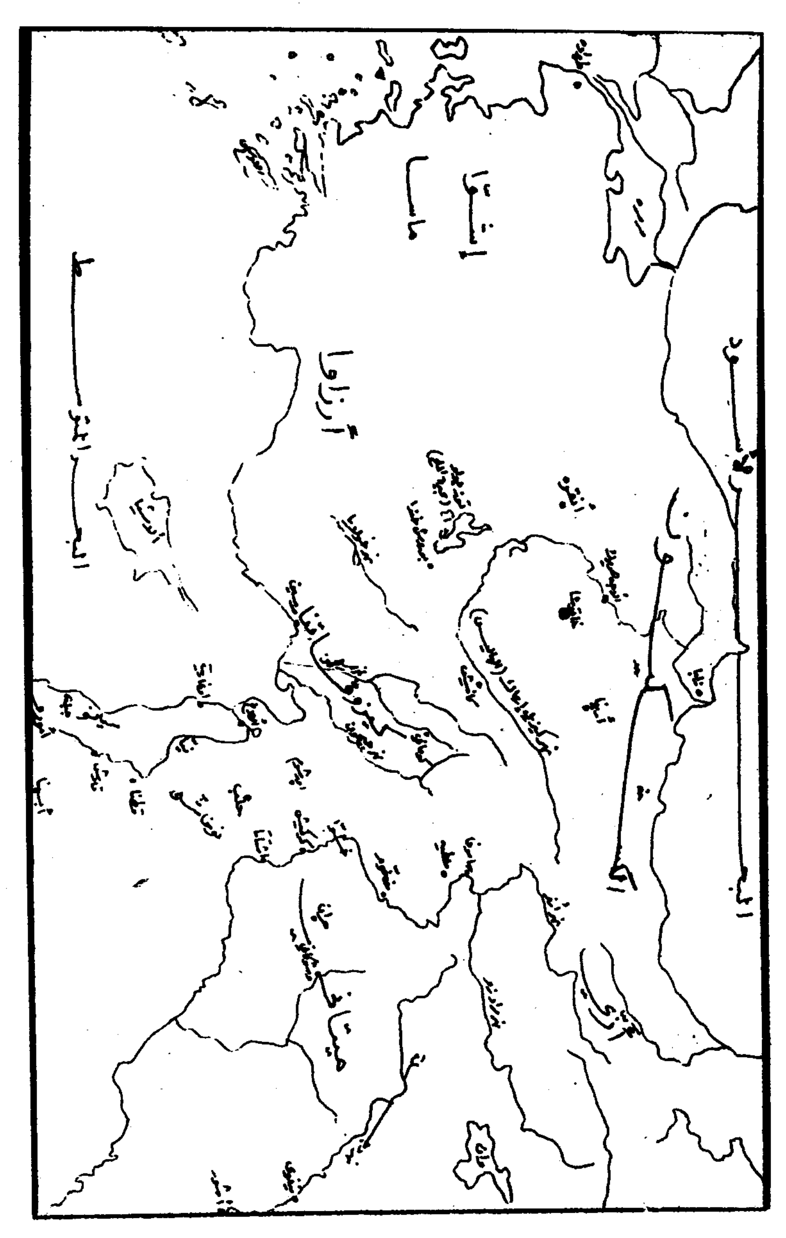
عرف عنه اهتمامه بالحياة الدينية وبناء المعابد والقصور. وفي أواخر عهده وصل الإغريق إلى طروادة وتوزعوا في مناطق الساحل الشمالي الغربي.

بدأ أفول المملكة الحثية في عهد ابنه ووريثه أرنو فاندا (الثالث) (١٢٢٠-١٢٠٠ ق.م.) حيث تأثرت بتغلغل الإغريق، وانفصلت المقاطعات البعيدة عن العاصمة، ونشبت حروب داخلية أفقدت العاصمة هيبتها، واستمر ذلك في عهد أخيه شوبيلو ليوما (الثاني) (١٢٠٠-١١٩٦ ق.م.)، ولكنه استطاع أن يحسّن الأوضاع قليلاً، وتتحدث تقاريره عن انتصاره على قبرص (ألاشيا). ولكن ازدياد تغلغل المجموعات البشرية التي تسمى في النقوش المصرية بـ "شعوب البحر" وهجومها على بلاد الأناضول وسورية الشمالية أنهى الكيان السياسي للحثيين.

في الألف الأول ق. م. برزت مملكة تَبَل بين الهالس، وطوروس، وريثة للملكة الحثية. كما تحدثنا النقوش الآشورية والفينيقية والآرامية والحثية الهيروغليفية (اللوفية) وبعض المصادر الكلاسيكية عن إمارات صغيرة كثيرة العدد ظهرت، وتسمى في الدراسات بالإمارات الحثية الجديدة أو المتأخرة، ومنها قوّ (حوالي أضنة)، ملد (ملطية)، كومّوخي (كومّا جيني)، جرجم (حوالي مرعش)، خيلاكو (شمال غرب كليكية)... ولم تكن هذه الإمارات قوية، فكانت تتبع للآشوريين والآراميين، ثم خضعت في القرن السادس/ للسلالة الإيرانية الأخمينية/ فالإسكندر[٥٣]. وقد عثر على أهم آثار هذه المرحلة في سورية في كركميش. وعين دارا وغيرها من مواقع شمال سورية. ودراسة تاريخ هذه المرحلة وآثارها الحضارية يحتاج إلى بحث مستقل متمم.

القرن	ق.م.	
قبل تأسيس	١٩	المراكز التجارية الآشورية (مدينة كُشّار)
المملكة	١٨	بيتّخانا
الحثية	١٧	أنيتّا
		لابارنا
		ختوشيلي الأول
		مورشيلي الأول
		خاتيلي
المملكة القديمة		زيدانتا
		آمونا
		خوزيّا
	١٥	تلبيّو
		ألّوومْنو
		تَخور ويلي
المملكة الوسطى		توتخاليا الثاني
		أرنو وندا الأول
	١٤	توتخاليا الثالث
		شوبيّلو ليوما الأول
		أرنو وندا الثاني
		مورشيلي الثاني
	١٣	مُوتلّي
المملكة الحديثة		مورشيلي الثالث
		ختوشيلي الثالث
		توتخاليا الرابع
		أرنو وندا الثالث
	١٢	شوبيلو ليوما الثاني

(الملوك الحثيون)



بلاد الحثيين ومناطق توسعهم

المصادر والمراجع والحواشي

(١) من معاني الاسم "ختّي" في اللغة الأكدية الرعب والهلع وكذلك الضرب والقمــع.
راجع معجم اللغة الأكدية: w.VON Soden: AHW. P. 336

(٢) F. Cornelius: **Geschichte der Hithiter**.
Darrnstadt, 4. Auflage, 1990, p. 40

(٣) **Ibid**. p. 38ff.

(٤) لقد كشف عن عدة نسخ من هذا النص المدون باللغة الأكدية وذلــــك فــي تــل العمارنة بمصر وآشور ونينوى في العراق، إضافة إلى نسخة معدلة عنها مدونة باللغة الحثية وذلك في بوغازكوي بتركية، وقد نشرت جميعها وتناولتها بــالدرس أبحاث عدة. راجع أحدث ترجمة للنـــص فــي : B.R. Foster: Before the Muses. **An Anthology of Akkadian Literature**. CDL Press. Bethesda, Maryland 1993 ,Vol. I, pp.250 - 256.

(٥) **Ibid**. pp. 262–269

(٦) المرجع رقم (٢) ص ٤٤. وكذلك الحاشية ٩ (ص٢٩٢).

(٧) يعتمد العرض الموجز عن اللغة الحثية.
H. Klengel: **Kulturgeschichte des alten Vorderasien**. Akademie-Verlag. Berlin 1989, pp.234-234.

ولمعرفة المزيد عنها يفضل مراجعة:

J. Friedrich, E. Reiner; A. Kammenhuber; G. Neumann; A. Heubeek: Altkleinasiatische Sprachen. in: **Handbuch der Orientalistik, I. Band 2**. Leiden-Köln 1969.

(٨) راجع: H. Klengel: **Kulturgeschichte** . P.235

(٩) راجع: W.von Soclen: **Einführung in die Altorientalistik**.

WB Dafmstadt 1985, p. 35.

(١٠) راجع الفصل الخاص بالديانة الحثية والحورية في:

H. W. Haussig (Hrsg.): **Götter und Mythen imVordern Orient**. Stuttgart 1965.

(١١) عن الأدب الحثي راجع:

H. G. Güterbock: **Hithitische Literatur**. in:W. Röllig (Hrsg.): **Altorientalische Literaturen** .Wiesbaden 1978. p p. 211-254

(١٢) راجع: H. Klengel: **Kulturgeschichte,** p. 250

(١٣) **Ibid,** pp. 238-244

(١٤) انظر ترجمته في: توفيق سليمان: **دراسات في حضارات غرب آسية القديمة**، دار دمشق، دمشق ١٩٨٥، ص ٣٠٧-٣١٠.

(١٥) **المرجع نفسه**، ص ٢٧١-٢٧٤.

(١٦) عن أهم الشواهد والمكتشفات الأثرية في ختوشا (بوغازي كوي) راجع:

M. Roaf: **Cultural Atlas of Mesopotamia and Ancient Near East**. Facts on File, Oxford 1990,p.144ff.

وعن الفن الحثي بشكل عام راجع: H.Klengel:**Kulturgeschichte**.pp.252-266.

(١٧) يعتمد البحث في عرض تاريخ الحثيين السياسي في خطوطه العامة على الكتاب: F. Cornelius: **Geschichte der Hithiter**.

(١٨) نشر الرسالة الباحث التركي كما بلكان، راجع:

K. Balkam: **Letter of Anurn-Hirbi of Mania to King Warshama of Kanish**. Ankara 1957.

(١٩) F. Cornelius: **Geschichte der Hithiter . p .81**

(٢٠) هو النص الحادي عشر في المجلد الأول من نصوص بوغازي كوي المسمارية، راجع: H. H.Figulla; E. F. Weidner **Keilschrifttexte aus Bogazköi. WVDOG 30/I**. Lleipzig 1916

(٢١) اكتشف النصان في بوغازي كوي، وهما منشوران ضمن نصوصها. راجع: **KUB 36**,100–102. KBo 7,14.

(٢٢) راجع سرد أسماء الأشخاص المذكورين في مجموعة نصوص آلالاخ، وذلك في: D. J. Wisetnan: **The Alalakh Tablets**. Londonl9S3,p.153.

(٢٣) Fischer-**Woltgeschichte**. Band 3,Frankfurt am Main, 1966,p.115f

(٢٤) اعتماداً على ما جاء في النص: **KBo** III 38

(٢٥) اعتماداً على ما جاء في النصين: **KBo** X, 2, I, 15 **KBo** X, 1, I, 6.

(٢٦) راجع: ليونارد وولي: ألالاخ مملكة منسية، ترجمة فهمي الدالاتي، منشورات وزارة الثقافة دمشق، ١٩٩٣، ص ٨٤.

(٢٧) راجع مثلاً أرشيف ماري الملكي، الجزء الأول (النص الأول) والجزء الثاني (النص ١٣١).

(٢٨) F, Cornelius: **Ceschichte .** p.103

(٢٩) F. Somrner; A. Falkenstein: **Die hethitisch-akkadjsche Bilingue des Chattusili I**. München 1938. p.l2ff.; 147ff.

(٣٠) راجع (النص ١٣) في مجلد النصوص: E. Forrer: **Bogazköi-Texte in UMschrift WVDOC** 41.1972

(٣١) راجع: F. Cornelius :Ceschichte. 112 وكذلك الحاشية ٥٥ (ص ٣١٠).

(٣٢) اعتماداً على نص من بوغازي كوي هو (**KBo III** 1 I, 32).

(٣٣) راجع الترجمة العربية للنقش في:

د. عيد مرعي: **أدريمـــي ملــك آلالاخ، دراسات تاريخيــة**، العـــددان ٢٩/٣٠ (١٩٨٨) ، ص ١٠٣-١٢٦.

(٣٤) **KBo** I, 27.

(٣٥) سمي بهذا الاسم نسبة إلى الإله تلبينو إله الخصب.

(٣٦) راجع المرجع المذكور في الحاشية ١٤.

(٣٧) راجع الرسالة ٣١ من نصوص العمارنة في:

J. A. Knudtzon: Die **EL-Amarna-Tafeln.Teil I**. Leipzig 1915.

(٣٨) **Ibid** الرسالة ٣٢.

(٣٩) راجع النص: **KUB** 19, 9.

(٤٠) تعتمد معلوماتنا عن شخصيته على تقرير مفصل لابنه مورشيلي، راجع:

H. G. Güerbock: **JCS 10** (1956) 41ff.

(٤١) حول حملاته على المدن السورية راجع الفصل السابع عشر من:

A. Goetze: **Cambridge Ancient Historj**.1962

(٤٢) **Ibid.** p. 15

(٤٣) راجع نصوص أوغاريت: **PRU** IV, p.35ff, 43, 4Off.

(٤٤) **KBo I,** 1, 38ff.

(٤٥) **KBo V**, 6,III وقد لقيت هذه الرسالة اهتماماً خاصاً من البـــاحثين، ونشـــرت عنها دراسات كثيرة.

(٤٦) **KBo I,** 3, 2lff.

(٤٧) A. Goetze: **Annaen des Mursillis. MVÄ 1933**. pp.110, 118,122.

(٤٨) KBo 1,6 KUB 111,6,5.

(٤٩) أهمها النص الكبير لختوشيلي الثالث (KUB I,1) إضافة إلى نصوص أخرى.

(٥٠) عن أحداث معركة قاديش ونتائجها راجع:

F. Cornelius : **Geschichte der Hithiter**. pp. 229-234.

توفيق سليمان: **دراسات في حضارات غرب آسية القديمة**، ص ٢٧٨-٢٨٥.

(٥١) راجع:

E. Weiclner: **Die Inschriften Tukulti-Ninurtas I. und seine Nachfolger. Graz** 1959.

(٥٢) عن الخطر الاقتصادي راجـــع: F. Cornelius: **Geschichte**. Pp. 254f.
والمراجع المذكورة في الحاشية ١٦ (ص ٣٤٣) منه.

(٥٣) عن التاريخ السياسي لبلاد الحثيين بعد انهيار المملكة الحثية، راجع:

H. Klengel: **Kulturgeschichte**. 463ff.

ماوية ملكة العرب وإشكالية تاريخ العرب قبل الإسلام في بلاد الشام

الدكتورة شكران خربوطلي

جامعة دمشق

قسم التاريخ

إنّ البحث عن تاريخ القبائل العربية في بلاد الشام قبل الإسلام حديث مضطرب، ويكتنفه الغموض ومتعب، وذلك لأن الصورة التي تقدمها المصادر العربية حول تعاقب ظهور القبائل في بلاد الشام وسلطانها لا نستطيع الأخذ بها لعدم معاصرة أصحابها لما كانوا يكتبون عنه، فالعرب بدؤوا يظهرون على مسرح التاريخ كمجموعة بشرية لها هويتها الجماعية، ونظمها، وعلاقاتها الخارجية منذ القرن العاشر ق. م. على أقل تقدير(١).

بينما بدأ أول تدوين لأخبار العرب السابقين للإسلام في عهد معاوية بن أبي سفيان في أواخر القرن السابع الميلادي، ومثل هذه المسافة الزمنية الطويلة بين وقوع الإحداث وتدوينها أمر يُضعِف بالضرورة من قيمة هذه الكتابات.

أضف إلى ذلك أن كل ما يتعلق بالشام من أخبار قبل الإسلام، والأخبار الإسلامية لاسيما العصر الأموي، وقف منها الرواة العراقيون بعد الثورة العباسية بإيحاء من السلطة أو لأسباب أخرى موقف المتجاهل إن لم نقل موقف الراغب بالطمس وهذا ما حدث.

وما ورد لدى يوسيفيوس الذي توفي حوالي نهاية القرن الأول الميلادي، لا كبير قيمة له لأنه لم يكتب عن قبائل العرب وأحوالها مباشرة، وإنما جاءت كتابته عنها بشكل جانبي وغير مباشر في أثناء حديثه عن تاريخ اليهود، وهو حديث يعتمد على التوراة[٢]، فقط لا يجوز الأخذ به، فالتوراة في سفر المكابيين الأول والثاني[٣]، لا يجوز الاعتماد عليه والوثوق به، لأنه يتعارض مع المعطيات الأثرية، مثلاً دولة الأنباط ليس لها ذكر، والحديث مع دولة تدمر مغلّف بالأسطورة، والصور عن تعاقب ظهور القبائل وسلطانها لم يستطع الباحث أن يأخذها كالضجاعمة، والغساسنة، وكلب، والدراية، حول دولة هيرود وخلفائه الأدوميين في ظل الرومان، ودولة الأنباط، لم يعد بالإمكان الاعتماد عليها والوثوق بها حيث أن المعطيات الأثرية تفيد أن دولة هيرود، الأدومية، لم تكن يهودية، بل كانت تعبد بعل السماء، وهذا يغيّر كثيراً من صورة الأحوال، ويرشدنا إلى القول: بأن المكابيين لم يقيموا دولة ولم يحكموا في القدس، ولا في الضفة الغربية وللإنصاف القول: إنه توفّر لهم نوع من سلطة عشائرية محدودة قرب نابلس في الجبال، وأن هيرود لم يكن له سلطان على القدس ولم يبنِ في القدس ما يسمى بالهيكل الثالث وهذا كله يأتي من خلال الدراسات المتأنية للنقوش الصفوية، والنقوش النبطية العديدة، آخذين بعين التقدير أنه ما يزال هناك بعض النقوش النبطية، والصفوية، لم تنقل للعربية.

ولعلّ بعض تاريخ العرب قبل الإسلام، وخاصة في قسمه الشمالي لا يمكن أن نتعرّف عليه إلاّ من خلال المصادر الكلاسيكية "اليونانية والرومانية والنصرانية القديمة". فهي صحيحة ولكنها شحيحة لأن مؤلفوها استقوها من رجالات الحملات الرومانية واليونانية التي حاولت الاستيلاء على بلاد العرب ومن الرحّالة والتجّار والملاّحين الذين جابوا هذه البلاد، وقد تحدثت هذه الكتب عن وجود علاقات قديمة بين سواحل بلاد العرب وبلاد اليونان والرومان والفرس، وعن تسرّب المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية، فالمصادر البيزنطية للقرنين الرابع والخامس تعكس اتجاهين سياسيين

للإمبراطورية فيما يتعلق بالعرب، أما أحدهما فبهدف إخضاعهم وربطهم بمعاهدات تتم إما عن طريق القوة أو بالطرق الدبلوماسية، وأما الاتجاه الآخر فهو أن تدخلهم في عقيدتها النصرانية وهو فعلاً "ما بذلت فيه الإمبراطورية جهدها لتقريب العرب إليها مثلما فعلت مع غيرهم من الشعوب البرابرة"(٤).

وفي وسط هذا وذاك من الضبابية وعدم الوضوح وجدنا أنفسنا مع قضية لم تتحدث عنها إلاّ المصادر البيزنطية ألا وهي قضية ماوية ملكة العرب حيث يستأثر الاهتمام الخاص بها بإعطاء فكرة عن طبيعة العلاقات التي نشأت بين القبائل العربية وبيزنطة.

إنّ مؤرخي الكنيسة وحدهم الذين حفظوا ذكرها أمثال أميانوس ماركلينوس، وسوزومينوس، وروفينوس، وأوسيبيوس، وسقراط، وثيوفانيس، وميخائيل السرياني، وشارب...وغيرهم. لذا لا يسعنا المقام إلا الاعتماد على هؤلاء أو على من اعتمدوا عليهم في إخراج صورة هذه الملكة. فأميانوس ماركينوس ولد في أنطاكية ٣٣ م، وعاش في القرن الرابع الميلادي كتب كتاباً باللاتينية أسماه: "التواريخ، غطّى فيه الحقبة ما بين ٩٦- ٣٧٨م، وقد اندثرت من هذا الكتاب الأبواب الثلاثة عشرة الأولى، وتبقى منه القسم الذي يبدأ بالباب الرابع عشر، وينتهي بالباب الحادي والثلاثين، وهو يغطّي الأحداث الواقعة بين عامي ٣٥٣-٣٧٨م، وعلى الرغم أن هذا المؤرخ يشير إلى العرب بشكل عرضي ضمن وصفه لبعض الأحداث مثل غيره من مؤرخي هذه الحقبة إلا أن إشاراته تستمد قيمتها من معاصرته للأحداث التي كتب عنها. وفي بعض الأحيان من رؤيته لها في أثناء الحملات التي اشترك فيها كرجل عسكري وموضوعيته في الكتابة"(٥).

أما سوزومينوس ٤٩١-٥١٨م، فقد ذكر في كتابه عند حديثه عن الشام، شيخاً عربياً عاش أواخر القرن الرابع للميلاد، وكان بدرجة فيلارخوس، أي كان عاملاً لدى الروم على عرب الشام، ويمكن أن نقول: إنه اسم عربي أصيل حُرِّف فصار على الشكل

المذكور "ضجعم" في الأصل، وإليه ينتسب الضجاعمة[٦]، وأن هذا العامل العربي تنصّر، وتنصّر معه عدد كبير من أتباعه[٧]، وأن الله وهبه ولداً، كما قيل بفضل دعاء النسّاك النصارى وأن الأمر صار من بعده إلى ماوية، وقد حاربت الرومان في عهد القيصر "والنس" أوفانيس، في أواسط القرن الرابع للميلاد، وانتصرت غير مرة عليهم، ثم تصالحت معهم، وكان من جملة ما اشترطته عليهم أن يسقف على عربها راهب يدعى موسى، كان يتعبّد في بادية الشام فوافق على ذلك وكان الراهب كاثوليكياً معارضاً لمذهب أريوس[٨].

وأما روفينوس، الذي نقل كتاب أوسيبيوس من اليونانية إلى اللاتينية، فيروي: "أشعلت ماوية ملكة القبائل العربية نار حرب شعواء بفلسطين وبمنطقة الثغور العربية، وخرّبت فيها القلاع والمدن، ونسفت القرى والأرياف، ولقد أضعفت بهذا القتال الدائم القوات الرومانية، وأهلكت الكثيرين، واضطرت الباقين إلى الهرب"[٩].

ولم تقبل ماوية بعقد الصلح إلاّ بشرط أن يجري تنصيب قس من قبيلتها يدعى موسى أسقفاً، وموسى هذا الذي عُرِف في حياته بأعمال البرّ والتقوى، رفض أن يجري تنصيبه بالاسكندرية على يد لوقيا، لأنه كان يعده هرطقياً، وأنّبه على اضطهاده الشديد لرجال الدين الأرثوذكس، وطالب بأن ينصّب على يد أولئك الأساقفة الذين أرسلوا إلى المنفى"[١٠].

وقد جعل هذا المصدر ماوية عربية بدليل أنها اشترطت تنصيب موسى من قبيلتها، وموسى اسم عربي.

ولقيت هذه القصة استقطاباً لدى سقراط، فأشار إلى ذلك قائلاً: إنّ رغبة ماوية في تنصيب أسقف عربي الأصل لنصارى قومها أمر مفهوم[١١]، ولكنه يتابع أنها زوجت ابنتها من الاستراتيلات فكتور، ولا مجال للاعتقاد بأن الروم قد فرضوا هذا الزواج لأن ماوية هي التي أملت بنود السلام بعد انتصارات شعبها العسكرية، وعلى الأرجح

أن هذا الزواج المدهش بين عسكري بيزنطي طاعن في السن وابنة ملكة عربية مظفرة هو العقيدة الدينية المشتركة[١٢]، ولهذا ظلت محافظة على الصلح الذي عقدته مع بيزنطة والذي يتمثل في حفظ السلام مع الإمبراطورية البيزنطية والارتباط معها بحلف عسكري ومد يد العون وقت الضرورة إليها[١٣]. حيث أدّت الجهود المشتركة إلى ردّ العدوان عن أسوار القسطنطينية.

وبعد ذلك استرشد سوزومينوس، بمصنفي روفينوس، وسقراط، فأورد قصة ماوية بتفصيل أكثر ممن سبقه، فحوى تفاصيل مباشرة من الحياة اليومية، وأضاف إلى القصة استطراداً تاريخياً عن أصل بني اسماعيل، وبداية انتشار النصرانية بينهم[١٤]. ولم يُشِرْ إلى أصل ماوية، ولكن يبدو أن رأيه متفق مع روفينوس.

أما ثيوفانيس، فيقول: إنها كانت نصرانية من أصل رومي وقعت في الأسر فاختص بها ملك العرب لجمالها، وبهذا وجدت طريقها إلى العرش[١٥]. ثم يحدثنا عن الخراب الذي ألحقه في ضواحي القسطنطينية.

ويتفق ميخائيل السرياني مع ثيوفانيس حول أصلها الروماني[١٦]. وذلك تماشياً مع المصادر الأولى فإنّ شغف ماوية بالقتال، وإخضاعها للعرب واشتراطها تنصيب أحد العرب أسقفاً كل هذا ينسجم مع كونها تنتمي إلى قبيلة عربية. ويفيدنا إميانوس مارسيللينوس القول ثانية، فيروي قصة الدفاع عن القسطنطينية على نحو يختلف شيئاً ما، فقد ذكر أن عامل عربي قال: إنّه من اسانيته، وقال إنه من السرسين[١٧]، حكم ٣٩٧م، في أيام يوليان جوليان ٣٦١-٣٦٣م[١٨].

وقد فسّر بعضهم كلمة اسانيته "الغساسنة" أي أن الكلمة من أصل غساني[١٩]. وأن السرسين تعني "الشرقيين" غير أن هذا معناه أن حكم الملكة ماوية كان في أيام الغساسنة، وهذا ما لا تؤيده الموارد التاريخية المتوفرة لدينا الآن، لأنه على الأرجح أن الملكة ماوية حكمت قبل تولي الغساسنة الحكم رسمياً من الروم.

وقد أفادنا شارب، أن ملك العرب النازلين في سيناء وما جاورها، لما مات في أوسط القرن الرابع بعد الميلاد، خلفته امرأته ماوية، فتحللت من قيود معاهدة كانت مع الروم، وحملت برجالها على فلسطين وسورية، واستولت على مدينة بطرا "الحجر" ويممت شطر مصر حتى برزخ السويس، فاضطر الإمبراطور فالنس للاستعانة بسادات القبائل للتغلب عليها، ولما وجد أن القبائل لم تفعل شيئاً اضطر إلى التفاوض معها، وترقيتها إلى رتبة ملكة وتجديد المعاهدة بشروط ترضاها ماوية[٢٠]. وذلك لأن أهمية البدو السياسية في أواخر العصور القديمة نابعة بالتحديد من كونهم تجمعات واسعة على الرغم من عدم تماسك قبائلهم[٢١]، ويبدو أن ماوية خلفت زوجها على رأس اتحاد بدوي وهي وزوجها كانا الأسلاف السياسيين المباشرين لشيوخ القبائل "فيلارخ" الذين أتوا بعدهم في القرون اللاحقة[٢٢].

لو استعرضنا العلاقات الدبلوماسية القديمة بين القوى الأساسية في الأزمنة المتأخرة للعالم القديم روما، وفارس، والعرب، لوجدنا أنها قديمة تعود إلى القرن الثالث، ومن هنا نستطيع القول وحسب المعطيات المتقدمة أن الملكة ماوية حكمت قبل تولي الغساسنة الحكم رسمياً من الروم، وأنها كانت تحكم الأقسام الجنوبية من بادية الشام - فلسطين الحالية تقريباً- ولكن يشك في إعطائها لقب ملكة لأن هذا اللقب خاص بالروم، وما كان يعطى للعرب لقب عامل، سيد قبيلة، فيلارخ[٢٣]، وأنها ارتبطت مع الروم بمعاهدة دفاعية لأنهم كانوا بحاجة إلى دعمها الأمر الذي جعلهم يقبلون الشروط التي فرضتها، وفي هذا دليل على القوة التي وصلت إليها، حتى صار بإمكانها أن تفرض شروطها.

ومن ناحية أخرى يبدو أن الهجوم قد حدث بعد ترك القيصر فالنس ٣٦٤-٣٧٨م، أنطاكية وذلك سنة ٣٧٨م[٢٤].

على هذا تحدثت أغلب المصادر الرومانية والبيزنطية واليونانية والنصرانية عن ماوية على عكس المصادر العربية التي حاولت استقراءها، فلم أجد إلا إشارة رواها حمزة الأصفهاني قائلاً: (إنّ اللخمي امرؤ القيس بن عدي ورث أباه عمرو ين عدي وأمه ماوية بنت عمرو أخت كعب بن عمرو الأزدي)[٢٥].

وقد ذكر أن امرؤ القيس قد أمضى أربعة عشر ومائة عام في الحكم، وهذا الرقم مبالغ فيه من باب إضفاء مسحة أسطورية تزامنت العشرون عاماً وخمسة الأشهر الأخيرة من حكمه مع شابور بن هرمز (٣٠٩-٣٧٩م)، هناك أساس قوي الافتراض بأن هذه المقابلة الزمنية الأخيرة هي وحدها التي تتفق مع الواقع التاريخي، أما أزمنة حكم الساسانيين السابقين فقد وضعت في وقت واحد مع حكم امرؤ القيس بهدف ملء الحقبة الزمنية الطويلة التي لم يحفظ لنا العرب عنها أدنى أخبار تشير إلى شخص بعينه يكون قد تولى الحكم من بين اللخميين، وإذا ما وضعنا في حسابنا هذه الاعتبارات إلى جانب حقيقة أن امرؤ القيس اللخمي مات في عام ٣٥٨م، بحوران، واكتشف قبره من عهد قريب في غار الصفاة وعليه كتابة بالحرب النبطي، وتاريخ وفاته فيها "٧ كسلول من السنة ٢٢٣ لبصرى"، وهو يوافق ٧ كانون الأول ٣٢٨م". لتبين لنا وجود اختلاف مع ما تورده المصادر اليونانية واللاتينية لأن موت زوج ماوية الذي خلفته كفيلارخ للعرب إنما يرجع إلى عهد فالتر، كما وأن ثورة العرب قد حدثت في عام ٣٧٦م، بالذات. وزيادة على هذا فقد كان لماوية ابنة زوّجتها من القائد فكتور، فلو حدث وكان لماوية ابن فمن الطبيعي أنه سيرث أباه لا أن ترثه الزوجة وذلك حسب الأعراف السائدة آنذاك أو تحكم وصية عليه إذا كان قاصراً.

وعلى الرغم مما يحيط بالأنساب العربية من خلط واضطراب فمن الجائز أن ماوية كانت أماً لامرؤ القيس الثاني الذي يرد ذكره لدى حمزة الأصفهاني وهذا يحتاج إلى الكثير من التحفظ في التفسير التاريخي، والأقرب إلى الاحتمال هو الافتراض بأن

زوج ماوية كان ينتمي إلى فرع جانبي من اللخميين، هذا بينما حملت ماوية اسم عشيرتها الأزد(*) على نحو ماتبين من رواية حمزة السالفة الذكر.

وهناك إشارة عند الطبري حيث يدعو أم المنذر بن امرئ القيس باسم مارية[٢٦]، ودعاها ابن الأثير ماوية[٢٧]، وهذا يجعلنا نقف موقف المرتاب.

من كل ما تقدم يمكننا القول: إنّ ماوية ملكة قبيلة من العرب شبه البدو، كان أسلافهم قد انتقلوا إلى الصحراء وإلى مناطق جردية جنوبي سورية في القرن الثالث، ومن هذا المكان شبه الدائم لمضاربهم المركزية المتنقلة شنوا حروباً وتوسعوا في المنطقة حتى شملت مساحات واسعة، ثم عقدوا اتفاقاً مع الروم، إلى أن كان حكم ماوية زوجة شيخ القبيلة التي تسلمت الحكم بعد وفاة زوجها، باعتبار أنه لم يكن له أولاد وقد استغلت ضعف الإمبراطورية وحروبها مع القوط، فتوسعت شمالاً وجنوباً ثم عقدت معاهدة، وعند تنفيذ مطالبها، اشتركت بالدفاع عن العاصمة البيزنطية بكتيبة عربية وضعتها تحت تصرف قوّاد الإمبراطورية، فاشتبكت مع العدو في معركة طويلة، حسم أمرها لصالح الإمبراطورية حيث سارع القوط لرفع الحصار والرحيل إلى المناطق الشمالية في شبه جزيرة البلقان، فقد أدّت الجهود المشتركة إلى ردّ العدوان عن أسوار القسطنطينية.

على كل حال إن حكم ماوية الذي تجاهل ذكره المؤرخون العرب وحفظه مؤرخو بيزنطة والكنيسة يفيدنا.

١- في فهم السياسة الرومانية والبيزنطية حيال الحدود الشرقية الصحراوية.

٢- المعاهدة التي عقدها الروم مع قوم ماوية تشكل جزءاً هاماً من تاريخ الأحلاف العربية في القرنين الثالث والرابع للميلاد.

٣-يفيد تاريخ ماوية في التعرّف على أول أسقف عربي لمجموعة من العرب المسيحيين.

٤-والأهم من ذلك هي ماوية التي تشد كل اهتمامنا لأنها تستحق مكانة حرمتها بين النساء العظيمات في العصور القديمة، إذ تدل قوة شخصيتها وشجاعتها في الحروب أنها لا تقل عن زينب "زنوبيا" ملكة تدمر أو عن كليوباترا ملكة مصر أو غيرهن كثير(٢٨).

٥-إنّ قبول شعبها بقيادتها يدّل على أن حكم النساء لم يكن مستغرباً عند العرب قبل الإسلام.

٦-إنّ المصنفات التاريخية البيزنطية ذات أهمية خاصة لأنها هي وحدها التي من شأنها أن تعيننا على تتبع التسلسل الزمني للأحداث، وعلى إثبات الوقائع بطريقة لا تبعث على الشك وذلك من خلال الضباب الذي ران على الرواية المتواترة للقصص والشعر قبل الإسلام الموجودة في بطون المؤلفات العربية.

الحواشي

(١) يحيى، لطفي عبد الوهاب، **العرب في العصور القديمة**، **دار النهضة**، بيروت، ١٩٧٩م، ط٢، ص ٢٢٩.

(٢) يوسيفوس ، فلافيوس، **تاريخ يوسفيوس**، بيروت، ١٨٧٢م، الفصل الثاني والفصل الثالث.

(٣) الكتاب المقدس، **التوراة**، سفر المكابيين، ١-٢.

* **آدوم**: هي في اليونانية أدومية، أطلقت على تلك البلاد لشدة احمرار صخورها الرملية، ورخامها السماقي، وقد كانت بلاد الأدوميين منطقة يمثل حدها الشرقي على وجه التقريب خط ما أصبح يسمى طريق الحج من دمشق إلى مكة، وربما كان وادي العريش هو حدها الغربي، أما جنوباً فقد كانت المنطقة تمتد من رأس خليج العقبة ويقف حدها الشمالي عند النهير المسمى اليوم وادي الأحسى، وهو يجري إلى الشمال الغربي مخترقاً غور الصافية (الصافي) ويصب في الطرف الجنوبي من البحر الميت، وكانت تمر القوافل التجارية بأرضهم فكانوا يفيدون من ذلك فائدة عظيمة، عاصمتهم بصرى، ومن مدنهم السعير وسلع وإيلات وأيلة أزيون.

(٤) بيغوليفسكسا، نينا فكتور فنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، الكويت ١٩٨٥م، ص ٦٠.

(5) Marcellinus (Ammianus) Rerum gestarum libri qui Supersunt, 23, 2, 1. P. 266 Berlini, 1871.

(٦) باشميل، محمد أحمد، **العرب في الشام قبل الإسلام**، بيروت، ١٩٨٧م، ط٢، ص ٧١٦٢.

(٧) باشميل، **المرجع نفسه**، ص ١٦٢.

(٨) علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ط١، ج٣، ص ٣٩٦، اثناسيوس: **سورية المسيحية** ٥/٣٩١.

(٩) بيغوليفسكيا، **المرجع المتقدم**، ص ٥٣.

(10) J. Spencer .Trimingham. Christianity Among the Arabs In Pr. —Islamic Times. Longman London. p .99.

(11) Socrates. Historia ecclesla .Stica ,IV ,36, U ,P. 564.

(١٢) بيغوليفسكيا، **المرجع المتقدم**، ص ٥٧. Spencer.Ibid,p.100

(13) Socrates Ibid. P.574.

(14) Sozomenos, Historiaecdesiastica, I, vi, 38, ed. R. Hussey, t. II OXO, nii 1960, p. 667.

(15) Theophanes, Chronographia, ed. c. De Boor, Lipsae ,1888. P .64.

(١٦) ميخائيل السرياني، مار، **تاريخ ميخائيل**، متروبوليت، حلب، ١٩٦٦م، ج١، ص ٢٢٥.

(١٧) موسل، أ. شمال الحجاز، ترجمة عبد المحسن الحسيني، **مؤسسة الثقافة الجامعية**، ص ١٢٩.

(١٨) علي، جواد، **المرجع المتقدم**، ج٣، ص ٣٩٥.

(19) Musil, kusejr , Amra , Wien, 1907, p.130.

(20) Sharpe, History of Egypt. Vol. 2. London. 1885. P.293.

(٢١) برك وهارفي وبورسك، سبستين وسوزان وغلن، **قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب**، ترجمة فريدة بولس وميسون الحميري،، دمشق، دار قدمس، ص ٢٥٠.

(٢٢) برك وهارفي وبورسك، **المرجع نفسه**، ص ٢٥١.

(٢٣) نولدكة، ثيودور، **أمراء غسان من آل جفنة**، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٣م، ص ١٤.

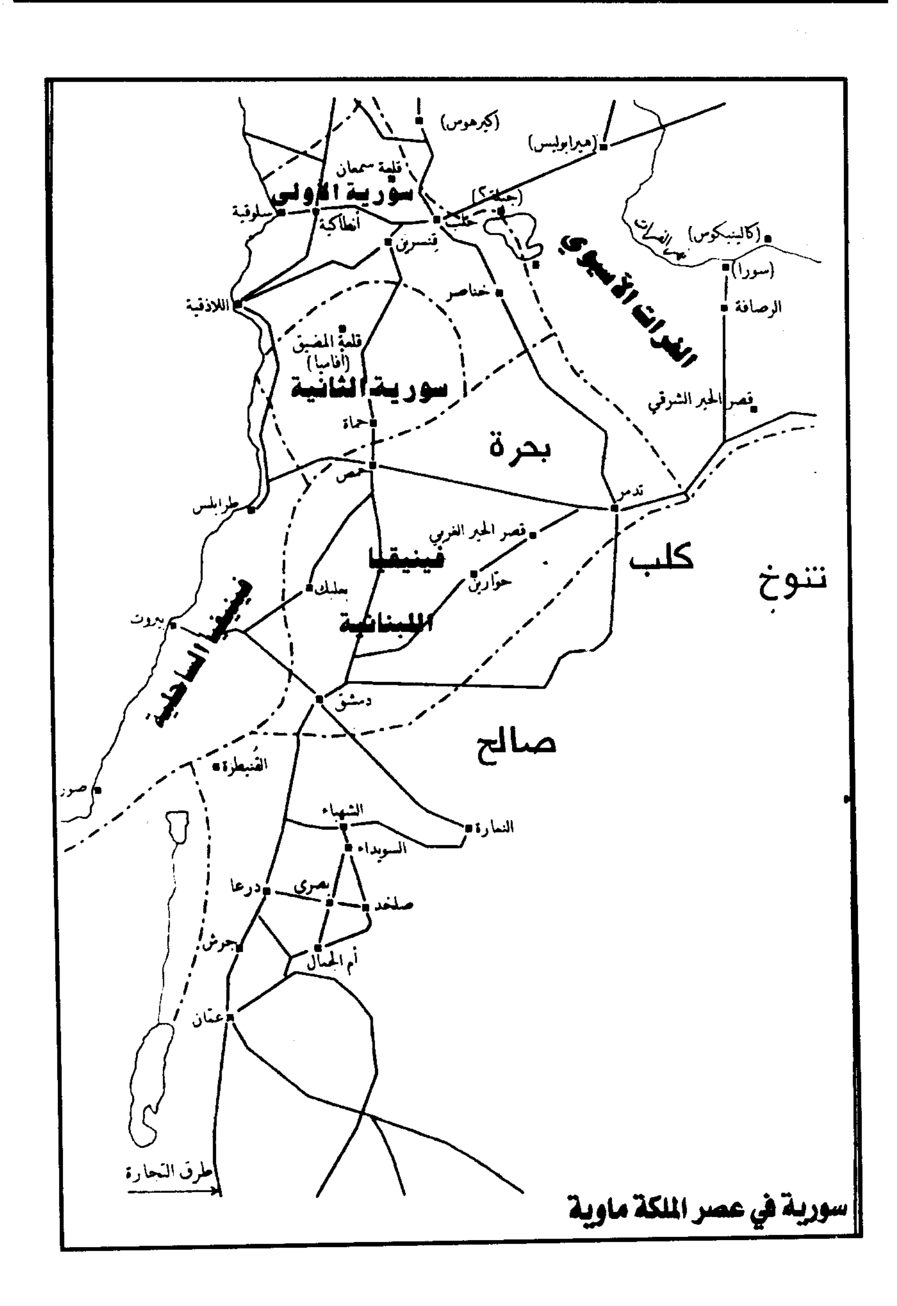
(٢٤) علي، جواد، **المفصل**، ج٣، ص ٣٩٥.

(٢٥) الأصفهاني، حمزة، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٧٧.

(٢٦) الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤ــ ج٢، ص ١٠٤.

(٢٧) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن...، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج١، ص ٤٣٩.

(٢٨) زيادة، نيقولا، **المسيحية والعرب**، دمشق، دار قدمس، ص ٢٦٤.



سورية في عصر الملكة ماوية

من تاريخ اللغة العربية(*)

حوافز التدوين والترجمة

الدكتور مسعود بوبو

سبقت الإشارة (في بحث سابق) إلى أن أول ما اتجه العرب إلى تدوينه كان القرآن الكريم، ثم الحديث الشريف، فالمغازي والأخبار والأنساب والمجموعات الشعرية وكتب التفسير..ومع الاستقرار الذي بدأ المجتمع العربي الإسلامي يعرفه في أعقاب الفتوحات، راحت حركة التدوين تتسع وتتنامى.

وكان من أسباب تناميها توافر أدوات الكتابة والوراقة توافراً يشجع الناس للإقبال على الكتابة والتدوين من غير تردّد أو تخوّف.

ويبدو للمتأمّل في هذه الحقبة الانتقالية وكأن العرب والعربية ينتقلان من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابية، ومن حال السماع والحفظ في الذواكر والصدور إلى حال التدوين والتأسيس لنهضة علمية غنية، كان مما قوّى حركة التدوين وعجّل خطواتها الحوافز الآتية:

(*) نشرت الحلقة الأولى من هذه الدراسات في العدد ٣٣/٣٤ (١٩٨٩)، والثانية في العدد ٣٧/٣٨ (١٩٩٠)، والثالثة في العدد ٤٧/٤٨ (١٩٩٣)، والرابعة في العددين٤٩/٥٠ (١٩٩٤)، والخامسة في العددين ٥٠/٥١ (١٩٩٥)، والسادسة في العددين ٥٥/٥٦ (١٩٩٦).

١- الرغبة في المحافظة على التراث الديني والأدبي بعدما رأى السلف أن كثيراً من حفظة القرآن الكريم ورواة الحديث النبوي قد قضوا في الجهاد وحروب الردّة، أو بلوغ الأجل..وأن مخالطة الأعاجم قد أفسدت الألسنة، فخشي أولو الأمر من عواقب النسيان ومن شيوع اللحن في اللغة. وعلى هذه الصورة كان حال الشعر الذي ضاع أكثره إبّان الفتوحات، وتوقفت أسواقه ومزاكرته وإنشاده في ما يشبه الكساد الشعري بالقياس إلى الماضي. ومن ذا الذي ينسى قولة أبي عمر العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلاّ أقلّه، ولو جاء كم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[١]".

ويعزو هذه الفكرة نفسها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

"كان الشعر علم قوم لم يكن لديهم علم أصح منه"، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا ذلك وذهب عليهم منه كثير[٢]..

هذا الخوف على التراث الديني والأدبي أقلق الجيل الأول من علمائنا وحفزهم على المسارعة إلى صونه بالتدوين والحفظ.

٢- يمكن القول، بشيء من التخصيص، إنّ الحافز المباشر الذي كان أبعد أثراً في تاريخ اللغة العربية هو خدمة العقيدة والنص الديني، فهذا الحافز الداخلي الخاص كان يهدف إلى تفسير القرآن والحديث الشريف، وهو الذي دفع بحركة التدوين قدماً إلى الأمام، وعجّل من إقبال الناس عليها مما أدّى إلى نشأة "علوم القرآن"، وتأسيساً عليها واقتداءً بها نشأت "علوم العربية" من لغة ونحو وصرف وبلاغة وعروضٍ وما شابه ذلك.. حتى لقد بدت تلك العلوم كلها عند العرب متأثّرة بمنهج

تدوين الحديث وضبط مصطلحه في الدقة وحسن التحرّي والتوثيق في رجال السند. وعلى غرار ذلك كان ينهج المؤرخون الأوائل بإسناد الأخبار والروايات إلى منابعها.. وقد بدا هذا التأثر واضحاً بصورة خاصة في طرائق جمع اللغة وتدوينها وتصنيف المعاجم ودواوين الشعر وكتب المجالس والأمالي. وجليٌّ أن هذا كلّه كان معواناً على المزيد من النسخ والتوريق والتصنيف...إلى غير ذلك مما ينطوي عليه هذا النشاط من معنى ومظهر.

٣- حافز خارجي يتجلّى في اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتنامي الحاجة إلى مصادر ثقافية تفيد منها في تنظيم أمورها الاجتماعية والتشريعية والإدارية، وفي السياسة والاقتصاد وأمور الناس المختلفة. وهنا اتجه التدوين إلى لونين من النشاط: أحدهما تركّز على العناية بالدواوين الداخلية كديوان الجيش والأعطيات والرسائل وغيرها ممّا كُتب أصلاً باللغة العربية. والنشاط الآخر اتجه إلى الدواوين التي كانت موجودة، أو اقتضى التطور إيجادها في البلاد المفتوحة، فتعززت بهذا منزلة العربية في الداخل والخارج، انتشاراً أو تدويناً.

٤- الحافز الرابع كان حركة التطور التاريخي والنمو الفكري في المجتمع العربي الإسلامي، وبوجه خاص، بعد أن دخل الإسلام عناصر أعجمية لها ثقافاتها وتأثيرها في هذه الحركة الحضارية الجديدة، بالإضافة إلى الاشتغال بعلوم أخرى، كالعلوم الطبيعية، وفنون الأدب، وابتداء التعريب وترجمة المعارف والعلوم من اللغات المجاورة، في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء وما شابهها... وإذا كانت تلك المدونات المبكرة مباحث مفردة تنحصر في الصحف والأوراق التي لا تضاهي أو تقارب ما نعرفه من الكتب بمفهومها العام اليوم، فإن القرن الثاني قد شهد منذ منتصفه وحتى مطلع القرن الثالث الهجري تطوّراً أبعد في التدوين، وعرف الكتب المنظمة المبوبة الكاملة.. أما الكتيبات الأولى، أو الرسائل بأنها، وإن ضاع معظمها، ممّا قُيّض لعلماء القرن الثالث للهجرة فرصة الاطلاع على

مضموناتها وتمثّل محتوياتها، ثم إذابتُها في تضاعيف كتبهم، ولولا ذلـــك لكـــان أمرها خفياً علينا اليوم.

الترجمة والمترجمون:

إلى جانب العوامل الحيوية السابقة كان للترجمة والمترجمين دور فعّال وإسهام كبـــير في رفد العربية وإغنائها بألوان من المعارف والعلوم منذ بدء الفتوحات الإسلامية، فقد عكف القوم على تفحّص التراث المعرفي للأمم المجاورة، التـــي كـــانت تجربتـــها الحضارية أطول وأقدم من تجربة العرب، وراحوا يتخيّرون منها ما يوافـــق مبادئـــهم وقيمهم، أو يسدّ نقصاً في معارفهم، حتى احتلّت حركة الترجمة منزلة مرموقـــة فـــي الحياة الفكرية والعلمية زمن العباسيين، وحتى قيل إنّ الخليفة المـــأمون كـــان يمنـــح المترجم زنة الكتاب الذي ترجمه ذهباً. وكان يضمّن معاهداته أو كتب الأمـــان التـــي يكتبها شرطاً ينص فيه على أن ترسل إليه نسخ نفائس الكتب لنقلها إلى العربية.

لقد كانت مراكز الترجمة في حرّان وبغداد وجنديسابور والاسكندرية منارات لازدهار الحركة الثقافية واليقظة الفكرية التي انطلقت إشعاعاتها من مدائن العلوم فـــي دولـــة الخلافة الإسلامية، وانتشرت في أرجائها لتتمثّل في الحضارة العربية الإسلامية التـــي شمخت وبلغت شأواً عظيماً تجاوزت به حضارات كانت -يومئـــذٍ- مـــلء الأســـماع والأبصار[٣].

ويستخلص من مصادر التراث العربي أنّ أوّل المحاولات التي أقدم عليها العرب فـــي ميدان الترجمة كانت في زمن الأمويين، وترتبط باسم خالد بن يزيد بـــن معاويـــة (ت ٩٠هـــ)، الذي درس الكيمياء (الصنعة)، والطب، والفلك. يقول ابن النديم فـــي ذلـــك (تحت عنوان: أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي): اصطفـــن القديـــم، ونقـــل الخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها[٤].

كما يُذكر في هذا الباب اسم يعدّ من أقدم المترجمين إلى العربية، هو ماسرجويه أو "ماسرجيس"، كما في الفهرست. كان يهودي المذهب سريانياً، طبيب بالبصرة، تولّى في الدولة المراوانية تفسير كتاب "أهرُن بن أعين" القس إلى العربية (على الأرجح أيام مروان بن الحكم ٦٤-٦٥هـ)، ووجد الكتاب الخليفة عمر ابن عبد العزيز في خزائن الكتب، فأمر بإخراجه ووضعه في مصلاّه، فاستخار الله في إخراجه إلى الناس وبثّه في أيديهم(٥). والكتاب المذكور كُناش (أي المرجع الجامع) فاضل من أفضل الكنانيش القديمة(٦).

ويبدو أن الترجمة التي بدأت في العصر الأموي قد اتجهت إلى الطب والفلك، ومن الخسران أنه لم يصل إلينا شيء من ذلك حتى بعد وفاة خالد بن يزيد بن معاوية، سوى ما ذكر من أن كتاب "مفتاح النجوم" المنسوب إلى هرمس قد نقل إلى العربية سنة ١٢٥هـ، وبعد هذا تُذكَر بواكير الترجمات العربية المعروفة عن الأعمال الهندية واليونانية زمن الخليفة المنصور (ت ١٥٨هـ)، في ميادين الطب والفلك والرياضيات(٧). ومن ذلك أنّ أقدم ترجمة عربية لكُتاب المجسطي لبطليموس ظهرت نحو ١٧٥هـ(٨).

وبصفة عامة كانت الترجمة محدودة أيام الأمويين، كما هي البدايات غالباً، لكن هذه الحركة اتسعت ونشطت في العصر العباسي نشاطاً ملحوظاً بفعل مجموعة من المؤثرات كان في طليعتها التفاعل الثقافي الذي ولّده تلاقي روافد الحضارات اليونانية والفارسية والهندية في ظلّ وجود للفكر الإسلامي مع اتساع رقعة الدولة.. مما أشعر العالم الإسلامي بالحاجة الملحّة إلى معرفة الفكر الإنساني بكل مظاهره وأبعاده المعروفة..وبدأت الضرورة تفرض نفسها لنقل المعارف الأجنبية إلى الفكر العربي(٩). وهكذا تنامى الشعور بالحاجة إلى الوقوف على مصادر المعرفة القيمة عند تلك الأمم المجاورة التي دخلها العرب، أو دخل أبناؤها في الإسلام، وتنامت معه الحاجة إلى إشراق الدولة على ما يمكن أن نسميه تنظيم الثقافة وتوجيهها وجهة الصلاح والخير

تفادياً لعقابيل الفوضى والاضطراب بعد ما سادت اللغة العربية في الأقاليم التي فتحها المسلمون وبدت مؤهلة لاستيعاب العلوم المجاورة، وبعد ما اتسع مجال الترجمة وكثرت أعداد المشتغلين بها طلباً للعلم، أو انتصاراً للمذاهب والعقائد، أو استكمالاً لأدوات الجدل والمنطق والحجاج، أو طموحاً إلى المكانة والشهرة إلى ما هناك من مظاهر "المثاقفة" أو الغليان الثقافي.

ومما عزّز حركة الترجمة ودعم نشاطها مؤازرة سلطة الخلافة العباسية للمترجمين، مادياً ومعنوياً، وإسهامها باستحضار المخطوطات الثمينة بكل وسيلة لتتم ترجمتها برعاية "رسمية" وفق خطة مدروسة تهدف إلى نقل الكتب المختلفة في الطبيعة والطب والمنطق والفلك والكيمياء والحساب والهندسة والفلسفة والحكمة وأمثالها من فروع العلم التي راحت تجذب الناس وتحظى باهتمامهم، أو تلقى في نفوسهم الرضى والقبول.

وكان في صدارة المترجمين الروّاد عبد الله بن المقفّع (ت ١٤٢هـ)، الفارسي الأصل، قال القفطي: "وهو أول من اعتنى في الملّة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، ترجم له كتب أرسطو طاليس المنطقية الثلاثة وهي: كتاب قاطيغورياس (المقولات)، وكتاب باري أرميناس (العبارة)، وكتاب أنالوطيقا (البرهان).. كما ترجم الكتاب الهندي المشهور "كليلة ودمنة"[١٠].

ووصل إلى بلاط الخليفة المنصور هذا الرجل من الهند عارف بكتاب الهنود المشهور باسم "السند هند"، الذي ترجم بعض القدماء عنوانه بعبارة "الدهر الداهر"، في علم النجامة..فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى العربية، وأن يؤلّف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب، فتولّى ذلك محمد بن ابراهيم الغزاري (ت نحو ١٨٠هـ)، وعمل منه كتاباً يسيمه المنجمون "السند هند الكبير"، وكان أهل ذلك الزمان أكثر من يعملون به إلى أيام الخليفة المأمون (ت ٢١٨ هـ)، فاختصره له أبو جعفر

محمد بن موسى الخوارزمي (ت بعد ٢٣٢ هـ)، وعمل منه زيجه (والزيج: كل كتاب مشهور يتضمّن جداول فلكية يعرف منها سير النجوم ويستخرج بوساطتها التقويم سنة سنة)، المشهور ببلاد الإسلام[١١].

ومن الأمانة العلمية أن نورد أسماء جملة المترجمين هنا، إنصافاً للحقيقة والتاريخ، لكنّ حشد تلك الأسماء مغفلة ما أسند إليها من أعمال في الترجمة، أو ممّا أنجزته سيبدو أمراً فيه تزيّد وإسهاب. فابن النديم، مثلاً، ذكر في الفهرست تحت عنوان "أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربي"، نحو ستين مترجماً، من اليونانية والفارسية والهندية، لم يقرن إلاّ قليلاً منهم ببعض ما أنجزوه، فضلاً عن إغفاله ذكر سني وفياتهم وأمكنة نشاطهم وما شابه ذلك[١٢]، وكأن هناك إقراراً غير معلن بضآلة مشاركتهم نظراءهم ما بذلوه من جهد وما قدموه من نتاج فعلي للترجمة. وأما من كان لهم مشاركة مقبولة أو إسهام معروف في هذا النشاط فيمكن أن نذكر منهم أسرة بختيشوع (أسرة من السريان النساطرة)، التي اشتهر منها ثلاثة أطباء أولهم:

جورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري، رئيس أطباء جنديسابور، وقد استقدمه منها إلى بغداد الخليفة المنصور، وأعجب بحسن منطقه عند وصوله، إذ دعا له بالفارسية والعربية إلى أن توفي (جورجيس) سنة ١٥٢هـ.

وثانيهم: ابنه بختيشوع الذي استقدمه الخليفة المهدي (ت ١٦٩هـ)، من جنديسابور ليحلّ محلّ أبيه جورجيس، فظلّ في خدمته وخدمة الهادي والرشيد إلى أن توفي.

وثالثهم: ابنه جبريل (جبرائيل) الذي صار طبيب الخليفة هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ)، وظلّ على ذلك إلى زمن الأمين والمأمون حتى توفي في خلافته سنة ٢١٣هـ[١٣]. وكان لهؤلاء "البخاشعة" أثرهم الذي استمر في الطب والترجمة حتى زمن المتوكل (ت ٢٤٧هـ).

وممّن شاركوا في الترجمة يوحنا بن البطريق الترجمان (أبو زكريا يوحنا بن يوسف الحارث بن البطريق)، المعروف بيوحنا القس، مولى المأمون، وكان أميناً على الترجمة، حسن التأدية للمعاني، بَكِيءَ اللسان (أَلْكَن) في العربية، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، وهو تولّى ترجمة كتب أرسطوطاليس وبقراط من اليونانية إلى العربية(١٤)، توفي بين ١٨٠ و١٩١هـ.

ويذكر هنا أيضاً الفضل بن نوبخت أبو سهل الفارسي الأصل الذي ولاّه الرشيد القيام بخزانة كتب الحكمة، وكان ينقل من الفارسي إلى العربي ما يجده من كتب الحكمة الفارسية، ومعوّله في علمه وكتبه على كتب الفرس(١٥).

كما يذكر بحق يوحنا بن ماسويه، الذي ولاّه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة مما وُجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم(١٦)!؟ ووضعه أميناً على الترجمة، ورتَّب له كُتّاباً حُذَّاقاً يكتبون بين يديه(١٧).

ويرتبط اسم يوحنا هذا بنضج تجربة الترجمة وببلوغها مرحلة متقدمة من التنظيم، وذلك بإنشاء أهم مركز لها هو "بيت الحكمة"، الذي تحول في زمن المأمون إلى مقرّ حقيقي للبحث والترجمة بعد أن تولّى مهمة أول رئيس له يوحنا بن ماسويه المذكور(١٨). وذكره صاحب الفهرست فقال: "هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، كان فاضلاً متقدماً عند الملوك، عالماً مصنفاً، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل"(١٩). توفي في خلافة المتوكّل سنة ٢٤٣هـ.

ومن أبرز المترجمين في هذه لمرحلة حنين بن اسحاق العِبادي(٢٠)، الطبيب الكحال والمترجم المشهور، وكان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه في الطب، تعلّم اليونانية في الاسكندرية، وأتقن إلى جانبها العربية والفارسية، ومن هنا برع في النقل والترجمة.

ولد ببغداد (وقيل في الحيرة)، سنة ١٩٤هـ، وزار بلاد الشام والروم وفارس. قال القفطي:

"وقعد في جملة المترجمين لكتب الحكمة واستخراجها إلى السريان وإلى العربية، وكان فصيحاً في اللسان اليوناني وفي اللسان العربي"(٢١).

بارعاً شاعراً خطيباً لسناً، ونهض من بغداد إلى أرض فارس ودخل البصـرة ولـزم الخليل بن أحمد(٢٢) . [!] حتى برع في اللسان العربي وأدخل كتـاب العيـن بغـداد، واختير للترجمة وائتمن عليها، وكان المتخيّر له المتوكّل على الله، وجعل لـه كتّابـاً نحارير عالمين بالترجمة كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا كاصطفن بن بسـيل(٢٣)، وموسى بن خالد الترجماني، ويحيى بن هارون"(٢٤).

وإبّان عمله سافر حنين إلى بلاد الروم لجلب المخطوطات مما قوّى لغتـه اليونانيـة. وكانت حصيلة ما ترجمه إلى العربية خمسة وثلاثين كتاباً علـى مـا تذكـر بعـض المراجع(٢٥)، ونحو خمسين كتاباً ورسالة في مختلف العلوم والموضوعات(٢٦). وتوفي سنة ٢٦٠هـ أو ٢٦٤هـ(٢٧).

لقد كان حنين أعظم متبحّر في كل تاريخ حركة الترجمة في الإسلام، وأحـد أعـلام الفكر في عصره، وأمّا نهج الترجمة الذي بدأه أسلافه فقد طوّره حنين حين وضعـه على أساس علمي متين، "وله الفضل الكبير في توحيد التعابير والمصطلحات الطبيـة وبخاصة في مجال العين بعد أن كانت متباينة ومختلفة عند من سـبقه"(٢٧). وكـانت مجموعة الدارسين التي تعمل تحت إشرافه تضمّ -بالإضافة إلى من سبق ذكرهم- ابنه اسحاق (كان في نجار أبيه في الفضل وصحة النقل من الترجمة اليونانية والسـريانية إلى العربية، وكان فصيحاً بالعربية يزيد على أبيه في ذلك_(٢٨)، وابن أخته حبيش بـن الحسن الأعسم(٢٩)، وكان عمله على قدر كبير من التنظيم، موزّعاً على المـترجمين والمراجعين والمصححين والنسّاخ والمجلدين..وأما ترجمات حنين الطبية والفلسفية فقد "تمت طبقاً لأعلى المعايير النقد والتحليل الفيلولوجي..وثمة ملاحظة في سيرته الذاتيـة تدلّنا على أنه كان، قبل أن يترجم عملاً يونانياً، يعمد في غالب الأحيان إلـى مقارنـة

مخطوطات عديدة حتى يتوصل إلى تثبيت نص أساسي على نحو متيـــن، ولـــم تكـــن ترجماته تشتمل فقط على كل المؤلفات الطبية مـــن جـــالينوس الطبيـــب والفيلســـوف الأسكندراني، بل وتشتمل أيضاً على نصوص جالينوس التي أعاد فيها كتابة مؤلفـــات أفلاطون وشروحها، مثل كتاب: السوفسطائيين برمنيدس كراتايلوس..إلخ.

وبالإضافة إلى ما سبق ترجم حنين إلى العربية أو السريانية المقولات التالية لأرسطو: المقولات، فن التأويل،و قسماً من أناليطيقا الأولى (القياس) وقسماً من أناليطيقا الثانيـــة (البرهان)، والكون والفساد والميتافيزيك، والنفس، والفيزياء. وفي عدة حـــالات كـــان ينقل حنين النص اليوناني لأرسطو إلى اللغة السريانية، ومن ثم كـــان يتحـــوّل إلـــى العربية على أيد أحد زملائه.

وبهذه الطريقة تمكّن حنين وفريقه أن يترجموا إلى العربية الأعمال الطبية الكاملة التي كتبها كل من أبقراط وجالينوس ومؤلفات أرسطو كلها تقريباً، كما إنهم كانوا مسؤولين أيضاً عن معظم الترجمات العربية لمؤلفات أفلاطون(٣٠).

إنّ قائمة المترجمين تضمّ أيضاً فريقاً من الأسماء التي أسهمت في حركـــة الترجمـــة إسهاماً لا معدى عن الإقرار به وتقديره، من هؤلاء الفيلسوف الكندي (أبـــو يوســـف يعقوب بن اسحاق)، المشتهر في الملّة الإسلامية بالتبحّر في فنون الحكمـــة اليونانيـــة والفارسية والهندية، متخصص بأحكام النجوم، وأحكام سائر العلوم، فيلسوف العـــرب.. ولم يكن في الإسلام من اشتهر عند الناس بمعاناة علوم الفلسفة حتى ســـمّوه فيلســـوفاً غير يعقوب هذا، وله في أكثر العلوم تآليف مشهورة في المصنفات الطـــوال، ومـــن الرسائل القصار جملة متعددة..ترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها المشـــكل، ولخّص المستصعب، وبسّط العويص"(٣١). توفي ببغداد سنة ٢٥٥هـــ، على الأرجح.

ومنهم: ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرايا الصابئي الحرّاني (ت ٢٨٨هـــــ)، كان أيام المعتضد، وكان يجيد السريانية والعبرية واليونانية، ويحسن النقل إلى العربية

بحذق وحسن تعبير. "وقد عده سارتون من أجود المترجمين وكثيراً ما كان ينقل إلى أبناء موسى بن شاكر كتب علماء اليونان، وبخاصة إلى محمد الذي قيل إنه استصحب ثابتاً معه إلى بلاد الروم سعياً وراء الكتب العلمية لنقلها إلى العربية"[٣٢].

ومنهم: متّى بن يونس المنطقي القُنّائي أبو بشر (ت بعد ٣٢٠هـ)، نزيل بغداد، عالم بالمنطق، شارح له، مكثر مطيل للكلام، قصده التعليم والتفهيم. وعلى كتبه وشروحه اعتماد هذا الشأن في عصره ومصره، وكان ببغداد في خلافة الراضي، وكان متعمقاً في معرفة اللغة اليونانية وله مناظرة جرت بينه وبين أبي سعيد السيرافي النحوي (ت٣٦٨هـ).

ذكره محمد بن اسحاق النديم فقال: أبو بشر متى بن يونس من أهل دير قنّي ممن نشأ في اسكول مرماري (مدرسة مار ماري)..ثم ساق جملة من الكتب التي نقلها عن اليونانية[٣٣]، ولعلّ أشهرها ترجمته كتاب فن الشعر لأرسطو.

وتابع خُطا متّى هذا سنان بن ثابت بن قرة أبو سعيد الحرّاني. كان طبيب المقتدر، ثم خدم القاهر. مات ببغداد سنة ٣٣١هـ، بعد أن أسلم، نقل إلى العربية نواميس هرمس والسور والصلوات التي يصلي بها الصابئون، وأصلح كتباً مترجمة[٣٤].

ومنهم: ابن ناعمة الحمصي (ت نحو ٣٢٠هـ)، الذي ترجم ما ينسب في اللاهوت إلى أرسطو وغيره عن اليونانية وأصلح بعض الترجمات.

وأبو عثمان الدمشقي: (ابن يعقوب) من أهل دمشق أحد النقلة المجيدين[٣٥].

ومن مشاهير نقلة العلوم في العصر العباسي قسطا بن لوقا البعلبكي، الذي كان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً ومُنجّماً وعالماً بالهندسة والحساب والمنطق.

يقول ابن جلجل: "وله في الطب تواليف حسان ككتابه في غلبة الدم، وكتابه في نسبة الأخلاط، وكتابه في الفرق بين النفس والروح، وكتابه في الفرق بين الحيوان والناطق والصامت، وكان في أيام المقتدر"(٣٦).

ولعلّ الأرجح أنه كان في زمن المعتمد (ت ٢٧٩هـ)، لأنه عاصر الكندي (فيلسوف الإسلام المتوفى سنة ٢٥٥هـ)، وثابت بن قرّة المتوفى سنة ٢٨٨هـ، ويذهب بعضهم إلى أنه توفي سنة ٢٥٠هـ(٣٧). وكان زمن بين من وفد إلى بلاد الروم بحثاً عن الكتب العلمية اليونانية، وقد ظفر بثروة كبيرة منها. اجتذبه "سنحاريب" أحد حكّام أرمينية، وهناك توفي وأقاموا له قبراً كأعظم ما يقام لكبرائهم السياسيين والدينيين. وكان من أبرز نقلة علوم اليونان وأقدرهم(٣٨)، فصيحاً في اللغة اليونانية جيد العبارة في العربية(٣٩).

ومن المترجمين يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي "نزيل بغداد، وإليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه. قرأ على أبي بشر متّى بن يونس، وعلى أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (ت ٣٣٩هـ)، وعلى جماعته في وقتهم"(٤٠). وتوفي في بغداد سنة ٣٦٤هـ.

ومنهم عيسى بن اسحاق بن زُرْعة بن مرتضى بن زرعة بن يوحنا. فلكي منطقي اشتغل بالطب ونقل من السريانية إلى العربية. ترجم جالينوس (في منافع الأعضاء في جسم الإنسان)، ولد ببغداد وتوفي عام ٣٩٨هـ(٤١).

ويمكن أن نلمح وجهاً آخر لهذا النشاط في حركة الترجمة يتمثّل في تلك القائمة من أسماء المؤلفين الهنود ترجمت كتبهم من غير ذكر مباشر لأسماء مترجميها، من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر أو الاستقصاء الطبيب أنكو، والفلكي والطبيب أريكل، والفلكي والطبيب أندي، والمهندس باجهر الهندي، والفلكي والطبيب باكهر، والطبيب جاراكا، وجبهر، وجباري، وداهر، وراي، والطبيبة روسا، والطبيب شاناق

الهندي، والطبيب منكه الهندي الذي كان طبيب الرشيد الخاص، والذي ترجم كتاب السموم لزميله شاناق إلى الفارسية، ثم ترجمه من الفارسية إلى العربية أبو حاتم البلخي ليحيى بن خالد البرمكي، ثم ترجمه علي بن العباس بن الجوهري مرة أخرى إلى العربية للخليفة المأمون[٤٢]. وهؤلاء جميعاً أو في معظمهم ترجمت كتبهم إلى العربية زمن العباسيين في القرن الثاني للهجرة.

ويذكر إلى جانب هذا أنّ جهوداً خاصة وجدت طريقها إلى هذه الحركة الثقافية في مبعدة عن رعاية الدولة الرسمية، قام بها مترجمون بحوافز شخصية كترجمة "سعديا" سعيد بن يوسف الفيومي اليهودي للتوراة إلى العربية في القرن الثالث الهجري، كما ترجم أسفار أنبياء اليهود إلى العربية. وأُنجزت ترجمات عربية كاملة للإنجيل في هذا العصر نفسه رجع إليها علماء المسلمين، الذين كتبوا في الملل والنِّحل كالشهرستاني وابن حزم وغيرهما[٤٣].

وعلى هذه الصورة صارت الترجمة حرفة لها متطلباتها وحرفيوها ومظانّها، كما صارت في الوقت نفسه جزءاً من خطة الدولة ومشروعاتها "وبرامجها: للإشراف على تطوير الحركة العلمية وتنظيمها، ولهذا رُصدت الأموال، وأُنشئت المراكز والدور، وكُلّف المتخصصون والخبراء التماس الكتب العلمية وإحضارها بغية نقلها إلى العربية.

وبهذا العمل العظيم أوجد العرب سبلاً متحضِّرة للتقارب بين الثقافات والشعوب، والتفتوا إلى لون جديد من الاهتمام وجّه حياتهم وجهة لم تعرفها من قبل فغير جانباً من مسارها وطبيعتها.

وكان لتلك المواجهة بين العربية واللغات المجاورة كالفارسية واليونانية والهندية والسريانية، بعض الآثار والمشكلات. وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين:

"ولما كانت الترجمة أحد مفاتيح مغالق المعرفة، فإنّ دبيب النشاط وسريانه في حركة الترجمة دليل مهم على أنّ الأمة موعودة بنهوض ونشاط مماثلين في حركة التأليف، وهي عملية إبداعية ونمط متقدم من التفكير ولاسيما حين يعبَّر عنه باللغة الأم(٤٤).

أي أنّ الاشتغال بالترجمة سيكون من آثاره حفز الهمم وعلى مزيد من التأمل المعرفي، وعلى المحاكمة والنقد والإضافات والدراسات، وسيلقي بتأثيره تبعات ومهام جديدة على عاتق العربية وأصحابها، وسينعكس ذلك على الثروة اللفظية للعربية: احتياجاً منها، وزيادة فيها، وإرباكاً في منهجيتها المعجمية، وتطوّراً في أساليبها، وتنوّعاً في موضوعاتها. والاشتغال بالترجمة سيثير نقاشات وجدلاً واسعين حول شروط الترجمة والمترجم، كمسألة عدم التماثل بين اللغات، ومسألة الترجمة الحرفية، وإعادة التعبير. وانطلاقاً من مثل هذا التحفظ وتأثيراً بالاعتزال.

قال الجاحظ: (ت ٢٥٥هـ)، بعدمِ قابلية القرآن الكريم للترجمة لكون الخطأ فيه يأخذ أهمية خاصة(٤٥).

المهم هنا أن الترجمة إلى العربية أثارت مشكلات متعدّدة ومتنوّعة بتنوّع طبيعة المادة العلمية المترجمة، وبتنوّع اللغة المترجَم منها.

ولم ينتهِ الجدل حول اقتراح الحلول لتلك المشكلات في حينه، وإنما استمر ذلك ملقياً بظلاله على مؤلّفات المتأخرين عن تلك الفترة العباسية. كما نلحظ في النص الآتي للصفدي (ت ٧٦٤هـ)، حيث قال:

"وللتراجمة في النقل طريقان، أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك، حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئة لوجهين: أحدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات

اليونانية، ولهذا وقع في خلال هذا التعريب (أي الترجمة) كثير من الألفاظ اليونانية على حالها. الثاني: إنّ خوّاص التركيب والنسب الإسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات. الطريق الثاني في التعريب (يعني الترجمة) طريق حنين بن اسحاق والجوهري وغيرهما، وهو أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه، ويعبّر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها، سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها. وهذه الطريق أجود"(٤٦).

وفي هذا الكلام اعتراف بأثر حنين بن اسحاق في تاريخ الترجمة عند العرب وإقرار بفضله، وفيه أيضاً إدراك لصعوبة الترجمة الحرفية ولعدم اطّراد وجود المقابل الدقيق في المفردات، وانطلاقاً من ذلك استملح فكرة الترجمة بالمعنى في محاولة لتجاوز العقبات. ولمْ يفته أن يعرض لخصائص اللغات في التراكيب وأنظمة الجمل والمجازات الكثيرة.

ولا يغيب عن المتأمّل في أمثال هذه الآراء والمناقشات أن يستخلص حقيقة لم تُقَل بكلام صريح وهي حرص المترجمين على الأمانة العلمية كما يلحظ في إلحاحهم على فكرة ترجمة "المقابل" الأجنبي، ترجمة "مجرد اللفظ"، كما عبّر ابن تيميّة (ت٧٢٨هـ)(٤٧).

ومع الترجمة استنفر اللغويون لصون العربية من هجمة الدخيل أو المعرّب في الوقت الذي سعى فيه بعضهم إلى سنّ الأحكام التي من شأنها إخضاع هذا الدخيل لقواعد العربية وسننها، وإلى وضع البدائل الصوتية للأحرف الأجنبية، التي لم تألفها العادات الصوتية العربية عند تعريبها، كالحرفين (P پ) و (V ڤ) في مثل كلمة "**بهلفان**" Pahlavan الفارسية (بهلوان)، وكالحرف كك الذي يلفظ كالجيم القاهرية (G)...إلخ

وألمح كتّاب سيَر الأعلام و"التراجم" إلى مكان النَّقَلة من اللغة في هذا المجال، فكان حديثهم نوع من التقويم، أو الحكم اللغوي الخالص، كقولهم: فلان رديء النقل، أو جيّده، أو فصيح اللسان، أو ألْكَن اللسان، أو يُصحّح له.. كما مرّ في الصفحات السابقة. وهؤلاء كانوا يمثلون دعاة النقاء اللغوي.

وفرزت قضية المصطلح العلمي عند الترجمة جملة من المظاهر اللغوية؛ فمن جهة اغتنى المعجم العربي بمئات المصطلحات، في العلوم التطبيقية والإنسانية، وفي الآداب والفنون وآلة العيش والمسميات الجديدة.. ومن جهة ثانية تعزّزت الظاهرة العلمية والدقة في المادة اللغوية العربية، مما طبع لغتنا بطابع جديد مغاير لما كانت عليه ولو بقدر قليل. ومن جهة ثالثة نشط اللغويون للبحث والتنقير عن المصطلحات الموافقة لما يترجم مما أفضى أيضاً إلى شيء من الفضول اللغوي بمحاولة معرفة اللغات الأخرى والوقوف على خصائصها. كما فتح صفحة، أو وضع نواة لما اصطلح على تسمية بعد ذلك: "المقارنات اللغوية Comparative Linguistics". وشاع في القوم مزيد من التدبر والتأمل وإعادة الكثير من الكلمات المهجورة أو المنسية[٤٨].. كل ذلك بغية توفير الذخيرة اللغوية الكافية لإنجاح حركة الترجمة.

أما ما اعترى العربية في هذه المرحلة من تاريخها فيتمثّل في ما أشاعته الترجمة فيها من جنوح نحو العلمية، ومن طغيان أساليب التعبير المعيارية المحسوبة في إحكام، وربما الجافة، في مقابل أساليب التعبير الشعري المشبعة بالغنائية والإيقاع، أو المثقلة بالمحسّنات اللفظية، أو المزخرفة بالصور الشعرية وبالتشبيهات والكنايات والاستعارات وغير ذلك من ألوان البيان التي تتلون بها الفنون الأدبية. وفي الوقت نفسه أسبغت الترجمة العربية لوناً من لغة الإدارة والحكم، أو من لغة الحياة العملية، ومن لغة الفكر والمنطق والجدل بعد تعرّف علماء الإسلام آراء المدرسة الأيونية، والمدرسة الإيلية، وآراء فيثاغورث والسوفسطائيين وسقراط وأفلاطون وأرسطو.. كما عرفوا آراء أفلوطين وأطلقوا عليه اسم الشيخ اليوناني[٤٩].

وفوق هذا وذاك فقد أصابت الترجمة بنيان العربية بشيء من الوهن والكزازة عندما تولّى الترجمة إليها فريق من الأعاجم، الذين كان تحصيلهم العربية صناعة، فلم يبلغوا من الفصاحة فيها مبلغ أصحابها الذين تشرّبوها مع لبان الأمهات. وما تركه هؤلاء من آثار مترجمة تناقلته الألسنة والأيدي فسرى شيء منه إلى فصاحة العرب الخلّص، مما جعل بريق البيان اللغوي يخبو قليلاً، والسلامة اللغوية يعتورها بعض الترخيص والتساهل في مراعاة القواعد والأصول.

ولا معدى عن الإشارة هنا إلى أن حركة الترجمة، ولاسيما في العصر العباسي، كانت امتحاناً حقيقياً لأصالة العربية ولمقدرتها على استيعاب العلوم الجديدة الوافدة وتمثّلها وإيفائها حقها وحاجتها من المادة اللغوية التي تطلبتها المصطلحات والمسميات. كما كانت امتحاناً لها في مواجهة اللغات العريقة المجاورة، وأحياناً في صراعها مع تلك اللغات. ولقد انتصرت في هذه المواجهة التي زادتها تماسكاً ومنعة، وهيأ لها ذلك سبيلاً لا حباً إلى المزيد من القوة والانتشار في الآفاق، مع أنها كانت في موقف الآخذ أو المتلقّي، وأوصلت ما أخذته واضحاً وبأمانة إلى أوروبة حين راحت تترجم هذا التراث الغزير عن العربية في القرون اللاحقة.

الحواشي والإحالات

١- انظر: **في أصول النحو**: ٥٩ لسعيد الأفغاني، ط. جامعة دمشق ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

٢- **طبقات فحول الشعراء**: ٢٢ لمحمد بن سلام الجمحي. بعناية محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٥٢.

٣- انظر: **الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية**: ٤، (كتيب صادر عن دار مجلة الفيصل بالمملكة العربية السعودية)، العدد ٢٣٩ لعام ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٤- **الفهرست** لابن النديم: ٣٠٣، بعناية الشيخ ابراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٥- انظر: **طبقات الأطباء والحكماء**: ٦١ لأبي داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جُلجُل (ألفه سنة ٣٧٧هـ)، تحقيق فؤاد سيد، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٦- انظر: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء** للقفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة٦٤٦ هـ)، ص ٢١٣، ط. مكتبة المتنبي، القاهرة، د. ت. ويكتب اسم القسّ: أهرون.

٧- انظر: **عبقرية الحضارة العربية**: ١١١المجموعة من المؤلفين الغربيين. ترجمة الغربيين، ترجمة عبد الكريم محفوض، دمشق ١٩٨٢.

٨- وانظر: **مروج الذهب للمسعودي** (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ)، ص ١/٢٩١، (طبعة بولاق-القاهرة ١٢٨٣هـ).

٩- الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية: ١٥ **(مرجع سابق).**

١٠- **إخبار العلماء:** ١٤٨-١٤٩، **(مرجع سابق).**

١١- **نفسه:** ١٧٧، ويقال إن اسم المترجم ابراهيم بن حبيب الغزاري، وليس "محمد".

١٢- بلغ عدد من ذكرهم نحو ستين مترجماً، انظر: **الفهرست:** ٣٠٢-٣٠٣.

١٣- **الفهرست:** ٣٥٨، **وطبقات الأطباء** لابن جلجل: ٦٤.

١٤- **إخبار العلماء:** ٢٤٨-٢٤٩، وانظر: **أعلام الحضارة الإسلامية** لزهير حميدان، المجلد الأول: ٥٧٧، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥، **وطبقات الأطباء والحكماء**:٦٧.

١٥- **إخبار العلماء:** ١٦٨-١٦٩. **(مرجع سابق).**

١٦- قال محقق كتاب "**طبقات الأطباء**" لابن جلجل: "وابن جلجل أول من ذكر ذلك (أي أن الرشيد قلّده ترجمة الكتب)، ومع ذلك فإن كتب التراجم على أن ابن ماسويه دخل بغداد في زمن المأمون وخدمه وخدم المعتصم والواثق والمتوكل إلى أن مات في عصره. أما الرواية عن معاصرته للرشيد فيتفرد بها ابن جلجل. كما أن فتح أنقرة وعمورية (المذكورتين في ترجمته هنا) كان في زمن المعتصم سنة ٢٢٣هـ، وهذا يؤكد أن يوحنا لم يتصل بالرشيد. انظر: **طبقات الأطباء**: ٦٥.

١٧- **إخبار العلماء:** ٢٤٨-٢٤٩. **(مرجع سابق).**

١٨- جعله المأمون رئيساً لبيت الحكمة سنة ٢١٥هـ، انظر: **أعلام الحضارة الإسلامية**، المجلد الثاني، ص ٥٦٩.

١٩- **الفهرست**، ٣٥٧. **(مرجع سابق)**.

٢٠- العِباد (بكسر العين): قوم من قبائل شتّى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فأنِفوا أن يسمّوا بالعبيد، وقالوا: نحن العِباد والنسب إليه عِبادي كأنصاري (بالجمع)، نزلوا بالحيرة. ومنهم الشاعر عدي بن زيد العبادي. وتوهّم بعضهم فأثبته خطأ بفتح العين وتشديد الباء. انظر: **لسان العرب**: عبد.

٢١- في "**طبقات الأطباء**"، ص٦٨، " كان فصيحاً باللسان اليوناني جداً، بارعاً في اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين.

٢٢- يظهر القفطي واهم في هذا، لأن الخليل بن أحمد توفي سنة ١٧٥هـ، أي قبل ولادة حنين، وشاركه في الوهم النقول عن ابن جلجل في "**طبقات الأطباء**" غير واحد؛ إلا صاعد الأندلسي الذي عقّب عليه بقوله: "ولم يكن الخليل بن أحمد بأرض فارس، وإنما كان بالبصرة وتوفي سنة سبعين ومئة... فانظر؟!". ووهم محقق طبقات الأطباء أيضاً فأثبت من كلام خطأ طباعي. والراجح أن الخليل توفي سنة ١٧٥هـ، وانظر: طبقات الأطباء، ص ٦٨.

٢٣- ويكتب "اسطفين" وابن "باسيل"، وهو أحد الذين اشتهروا بالترجمة إلى العربية، ويقول عليه ابن أبي أصيبعة: "كان يقارب حنين بن اسحاق في النقل، إلا أن عبارة حنين أفصح وأحلى". أما موسى بن خالد الترجماني فيقول عليه: "كان لا يصل إلى درجة حنين أو يقرب منها"، عن **طبقات الأطباء**، ٧٠-٧١ (وانظر الهوامش).

٢٤- **إخبار العلماء**: ١١٧-١١٨، و**طبقات الأطباء**، ٦٩.

٢٥- انظر: **الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية**، ٢٧، حيث ذكرت قائمة لمؤلفاته أو مترجماته التي عُثر عليها وتم تحقيقها.

٢٦- انظر: **أعلام الحضارة العربية الإسلامية**، المجلد الأول، الصفحات ٤١٥-٤٢٣.

٢٧- **أعلام الحضارة العربية الإسلامية**، ٤٠٦-٤٠٧، وانظر ثمة مصادر ترجمته، ص ٤٢٣-٤٢٦.

٢٨- **الفهرست**، ٣٥٩، **وإخبار العلماء**، ١١٧-١١٨، وانظر: **تاريخ الطب العربي**، ٦-٩، للدكتور سليمان قطاية، باريس ١٩٨٢، وحبيش هذا هو حبيش بن الحسن الدمشقي المعروف بحبيش الأعسم، واشتهر بالطب والترجمة أما ابنه فهو يعقوب بن اسحاق بن حنين (ت ٢٩٨هـ)، واشتهر بالترجمة وأجادها، وهو من أوائل من ألفوا في تراجم الأطباء كتاباً، وانظر: **طبقات الأطباء**، ص ٦٩، وأعلام الحضارة، المجلد الأول، ١٦١ـ و ٢٩٢.

٢٩- عبقرية الحضارة العربية، ١١١-١١٢ **(مرجع سابق)**.

٣٠- **نفسه**، ٢٤٠-٢٤٧، **وطبقات الأطباء**، ٧٣.

٣١- **الفهرست**، ٣٣٣، **وإخبار العلماء**، ٧٧، **وأعلام الحضارة العربية الإسلامية**، ١٨٩-١٩٠، وانظر ثمة مصادر ترجمته ص ٢١١.

٣٢- انظر: الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية، ٣٠ **(مرجع سابق)**.

٣٣- **إخبار العلماء**، ١٣٠-١٣٣.

٣٤- **السابق**، ٢٦٧.

٣٥- **طبقات الأطباء**، ٧٦.

٣٦- **السابق**، ٧٦ (هوامش التحقيق).

٣٧- وانظر: **الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية**، ٣١.

٣٨- **إخبار العلماء**، ١٧٣.

٣٩- **نفسه**، ٢٣٧.

٤٠- **أعلام الحضارة، المجلد الثاني**، ١٧٥-١٧٦.

٤١- يمكن الرجوع إلى **فهرست** ابن النديم، وكشف الظنون لحاجي خليفة للوقوف على الكثير من التفصيلات في هذا الموضوع، وانظر مجلة "**الفيصل**" السعودية، العدد ٨٧، ص ١٢٤-١٢٥.

٤٢- انظر: **الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية**، ٢٢.

٤٣- **المرجع السابق**، ص ٤.

٤٤- انظر مجلة "**الفيصل**" السعودية، العدد ٢٣٩، ص ٦٦.

٤٥- **الغيث المسجم في شرح لامية العجم**، ١/٧٩ لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٤٦- انظر: "**نقض المنطق**"، ٩٧، تحقيق محمد بن عبد الرزاق حمزة، وسليمان الصنيع، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥١.

٤٧- يذكر هنا على سبيل المثال ما وضعه حنين بن اسحاق من مصطلحات علمية خاصة بالعين نحو: الملتحمة والقرنية والصلبة، والمشيمية، والشبكية معطياً المعنى الدقيق للمقابل اليوناني، وانظر: **أعلام الحضارة**، ٤٠٧.

٤٨- انظر: **الفلسفة الإسلامية**، ١٤-١٥، للدكتور عاطف العراقي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٨.

دراسة في تاريخ عرب آسية الوسطى

الدكتور فوزي مصطفى

جامعة دمشق

قسم التاريخ

مقدمة:

قليلة هي الدراسات التي تناولت أوضاع الأقليات العربية الموجودة في آسية الوسطى.

وبالتالي فإن تاريخ هذه الأقليات و مساهمتها في حضارة المنطقة أو حتى تأسيس المعارف والعلوم النظرية والتطبيقية التي كان لها دور كبير في تطور الحضارة الإنسانية لم يدرس، على الرغم من أن هناك العديد من المشاهير الذين أنجبتهم المنطقة.

وهذه الدراسة المتواضعة التي قمت بها. ذات شقين:

١- الشق الأول ميداني: من خلال الزيارات المتكررة التي قمت بها للعديد من الأماكن وما أقمته من الصداقات مع الأهالي.

٢- الشق الثاني: من خلال المصادر والمراجع والكتابات التي أمكنني الحصول عليها لعلني أستطيع تسليط الضوء على تاريخ العرب في آسية الوسطى، خدمة للعلم وتأدية لواجبي تجاه شعبي وأمتي.

يعود تاريخ اتصال العرب بآسية الوسطى لعام (٢٢هـ)[١] عندما توغلت قوة عربية يقودها الأحنف بن قيس في خراسان متعقبة (يزدجرد ملك الفرس) الذي التجأ إلى تلك المنطقة بعد الهزيمة التي مني بها، وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان توجه عبد الله بن عامر بن كريز إلى آسية الوسطى عام /٣١/هـ، وتعدّ هذه الحملة بداية الاحتكاك بين العرب والترك[٢].

وفي عام /٥٤/هـ قاد عبيد الله بن زياد، حملة إلى بلاد ما وراء النهر ـ إلى بخارى وتم فتح مدن رافي، ونسف، وبيكند القريبة من بخارى[٣]، وفي سنة /٦١/هـ تمكن القائد العربي مسلم بن زياد من غزو خوارزم[٤]. أما التوسع العربي الذي شمل بلاد ما وراء النهر حتى حدود الصين فتم على يد القائد المشهور(قتيبة بن مسلم الباهلي) والذي استغرقت حملته عشر سنوات توزعت على أربع مراحل.

- المرحلة الأولى: وتم فيها الاستيلاء على الطالقان، وبلخ، وذلك عام /٨٦هـ/ـ/٧٠٥م/
- المرحلة الثانية: من عام ٨٧ـ٩٠هـ / ٧٠٥ـ٧٠٨م تم فيها الاستيلاء على بخارى.
- المرحلة الثالثة: من ٩١ـ٩٣هـ ـ ٧٠٩ـ ٧١١م تم فيها فتح منطقة وادي جيحون.
- المرحلة الرابعة: من ٩٤ـ ٩٧هـ ـ ٧١٢ـ ٧١٤م، تركزت الفتوحات على المناطق الواقعة على نهر سيحون، ووصلت إلى منطقة الشاش (طشقند حالياً) شمالاً، وكاشغر شرقاً[٥].

- وقد تم إحصاء عدد المقاتلين العرب في خراسان عام ٩٦هـ، حيث بلغ عدد الذين شاركوا في الفتوحات من أهل البصرة /٩٠٠٠مقاتل/ ومن قبائل بكر بن وائل /٧٠٠٠مقاتل/ ومن تميم /١٠٠٠٠مقاتل/ ومن الأزد /١٠٠٠٠/ ومن الكوفة

/٧٠٠٠/[٦]، وحتى لو كانت الأرقام تقريبية فهذا يدل على حجم وأهمية الوجود العربي في تلك المنطقة.

- ويعدّ القرن الأول الهجري بداية استقرار العرب في مناطق كثيرة من آسية الوسطى ((مرو وبلخ وسمرقند وبخارى وفرغانة[٧] .....الخ)). ويمثلون قبائل عبس، وبني زهرة، وطيء، وباهلة، وتميم، والأزد، وغيرهم.

هذا وقد نفذّت بعثة عام ١٩٣٦م إلى حدٍ كبير إحدى المهام الرئيسية للاستعراب والدراسات الشرقية السوفيتية إجمالاً، وهي دراسة الوضع المعاصر لإحدى القوميات الصغيرة ذات الطابع الخاص في الاتحاد السوفييتي وهم (عرب آسية الوسطى).

وقد كتب الراحل : ف.ف. بارتولد[٨] ، حول ضرورة الإنجاز السريع لهذه المهمة. وبهذا الخصوص أدرجت دراسة ماضي هؤلاء العرب. وكانت المعلومات المتوفرة حولهم وجيزة جداً في أغلب المراجع التاريخية لآسية الوسطى. ولجمع كافة المعلومات حولهم يلزم إنجاز عمل هائل لاستعراض المخطوطات والمطبوعات التاريخية ومجموعات الوثائق. وقبل أن أضع أمامي مثل هذه المهمة سأحاول تلخيص تلك البيانات القليلة التي استطعت جمعها.

عرف منذ القدم وجود عرب آسية الوسطى. وبدءاً من القرن التاسع عشر، وتقريباً كل رحالة كان في خانية بخارى، كرّس لهم بعض الأسطر وهكذا فقد كتب ميندروف[٩]. الذي سافر إلى بخارى في عام ١٨٢٠م، "استوطن العرب في بخارى منذ أن استولى الخلفاء على هذه البلاد، ويمكن معرفتهم من النظرة الأولى بلون وجوههم السمر، وهم يقيمون في القرى وهنالك عدد قليل من العرب يطوفون بالقرب من كارشي وترمذ".

ولدى الكثير من العرب المزارعين قطعان يرسلونها لترعى في السهول. وهم بشكل رئيس

يمدّون التجارة بجلود الخراف الرائعة ويحدد في مكان آخر عدد العرب الإجمالي في بخارى بـ /٥٠٠٠٠/.

واستناداً لما ذكره خانيكوف[١٠] الذي كان في بخارى في عام ١٨٤١ـ ١٨٤٢م يعيش العرب في الأقسام الشمالية لخانية بخارى وبشكل رئيس بالقرب من فاردانز وسمرقند، وهم رحّل، ما عدا قسم منهم يعمل بالتجارة، كما أنهم يتحدثون فيما بينهم بالعربية ((لكن ليس باللغة العربية الصافية)). إذ تشوبها بعض الكلمات من اللغات المحلية الأوزبكية والطاجيكية.

ويعدّ آرمينوس فامبري[١١] ١٨٦٣م مثل ميندروف أن عرب بخارى هم أحفاد الفاتحين في القرن الأول الهجري، ويشير إلى أنهم احتفظوا بالتشابه مع عرب الحجاز والعراق ويضيف " لقد وجدت القليل ممن يتحدثوا باللغة العربية". وهو يحدد عدد العرب بستين ألفاً. يعيشون على الأغلب في ضواحي فاردانزه، واوابكيند، على بعد /٢٥/كم عن بخارى على الطريق إلى سمرقند.

ـ من بين الكتّاب وخاصة الضباط والموظفين الروس المشاركين في غزو آسية الوسطى في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر نجد ـ أدغريبينكين[١٢] الذي عَرِف جيداً منطقة زيرافشانسكي، أي بكلمات أخرى المنطقة التي يشغلها الروس، وهي قسم من وادي زيرافشان حتى كاتاـ كورغان، وزيرا بولاك. وحسب أقواله فإن عرب منطقة زيرا فشان ينقسمون إلى مجموعتين يمكن تمييزهما من حيث المظهر واللغة وما شابه ذلك.

المجموعة الأولى تعيش في منطقة خوجا أحرار، قرب سمرقند، في حي خاص في كاتاكورغان ـ وفي عدد من ضواحي القرى ويتكلمون باللغة الطاجيكية.

أما المجموعة الثانية التي تعيش في انغارسكي تيومن في جنوب غرب سمرقند، وفي السهل بالقرب من كاتاكورغان ــ فإنها تتحدث باللغة الأوزبكية. وبين هاتين المجموعتين يوجد أنصاف رحّل وفلاحون يمارسون صناعة الحرير والسجاد الجيد إضافة إلى الرعي والزراعة. ويتزوجون فقط من بعضهم البعض، حتى أنهم في منطقة كاتاكورغان، يتعقبون من يصاهر من القوميات الأخرى ويضايقونهم، وقليل جداً من بينهم من يجيد القراءة والكتابة، فالعرب حسب ما جاء به غريبينكين ينقسمون إلى عدة فروع من المجموعات القبلية والتي لا حاجة هنا لتعدادها، وعدد عرب منطقة زرفشان حسب معطياته حوالي /٢٠٠٠عائلة/، أي بكلمات أخرى حوالي عشرة آلاف نسمة.

ــ أما الباحث ل. ن. سوبوليف[١٣] فيعدّ أن العدد الذي أورده غريبينكين. مبالغ فيه بمقدار ثلاثة أضعاف ويضيف غريبينكين أن أقرباء المجموعة الأولى يعيشون في القسم الغربي من منطقة كارشينسك، حيث يشتهرون بتربية سلالة خاصة من الأغنام والخيول الأصيلة.

((وعرب كارشينسك يتحدثون فيما بينهم بلهجة عربية خاصة بهم)). وهنالك معلومات تستوجب الاهتمام يدلي بها غريبينكين حول أصل العرب:

* نسبة لفترة مجيء العرب إلى آسية الوسطى هناك قصتان:

- الأولى تقول: بأنهم قدموا إلى المنطقة كفاتحين لنشر الإسلام وذلك في فترة حكم والي ــ خان[١٤] وشاه ــ زنده وغيرهم من الغيورين على نشر الإسلام، والقصة الثانية تقول بأن الأمير تيمور هو الذي جاء بهم إلى آسية الوسطى أثناء عودته من حملاته على المنطقة العربية. عرب الفئة الأولى يعدّون أنفسهم خلفاً للعرب الفاتحين)). أشير أيضاً إلى ما أفاد به غريبينكين أن المجموعة الأولى خلافاً للمجموعة الثانية لم تخدم

في صفوف جيش أمراء بخارى.

- الباحث الأول الذي كتب عن عرب آسية الوسطى بعد الثورة الشيوعية هو م. س. اندرييف[١٥] الذي درس عرب محافظة سمرقند في عام ١٩٢١م. وحسب معلوماته فإن العرب يتحدثون باللغة الأوزبكية وأضاعوا لغتهم الأصلية منذ زمن بعيد. الكثير من معلومات اندرييف تتطابق مع بيانات غريبينكين. مع أن الأخير لم يكن يقتبس ويحتمل أنه لا يعرف تفرع العرب إلى قبائل، يقدمه بشكل آخر إلى حد ما بالمقارنة مع غريبينكين، لكن معلومات الأخير مؤكدة من قبل بوريكينا وازمائيلوفا. القصتان اللتان أوردهما اندرييف غير منتظمتين أو غير متتابعتين نوعاً ما. فكما أورد غريبينكين فإن قسماً من العرب يعدّ نفسه قدجاء في عهد تيمور. والقسم الآخر قد جاء قبل ذلك ويشير أن عرب قضاء كاتا كوغانسك كانوا يقيمون سابقاً في كارشاه. حتى أن بعضهم يذكر مكان (كاماش) الذي رحلوا منه بأمر من أمير بخارى منذ ٢٥٠ عاماً.

والآخرون يعدّون أنهم قد رحلوا من غيسار وبخارى. وحسب إحدى روايات قصة ترحيل العرب من قبل تيمور، فقد أمر بإرسالهم إلى "الصين" ولكن تحت إلحاح معلمه "مير حيدر" فقد سكنوا في ضواحي كيسار وكارشاه.

وتقديراً منهم لموقف مير حيدر ألزم العرب أنفسهم بدفع ضريبة خاصة من أملاكهم لصالح مير حيدر وخلفه.

ومن الطريف الخبر الذي أورده اندرييف حول الصدامات التي حصلت قبله بأربعين عاماً على أرضية العداء القومي بين العرب، والطاجيك، والأوزبك، في كاتا كورغان، وهذا ما يشير نوعاً ما إلى العزلة القومية للعرب.

وفي بداية عام ١٩٣١ صدرت الطبعة الأولى من مقالة بوريكينا وازمائيلوفا[١٦]، والتي كرست خصيصاً لعرب آسية الوسطى.

ولكن بقي بالنسبة إليهم مجهولاً أيضاً بيانات غريبينكين والباحثين الآخرين وكذلك اندرييف، من هذا البحث المعروف للجميع، سأورد فقط بعض البيانات ذات الأهمية التاريخية. في القصص التي يرويها سكان كيشلاك (عرب ـ خانة) بالقرب من سمرقند وجيناو في ناحية كارشين والكيشلان بالقرب من كيرمين يذكرون تيمور، ولكن هذه القصص يختلف بعضها عن البعض الآخر، حيث أن تيمور حسب هذه القصص قام بترحيل العرب من أفغانستان وإيران وليس من المنطقة العربية، وحسب ما ذكره سكان جيناو، فقد مروا عبر اندخوي في تركستان الأفغانية وبقي هناك الكثير منهم، ووصل الآخرون إلى كيشلاك كاتشا (سيتم التطرق إليها أدناه).

ـ السلطان مير حيدر، /صهر تيمور/، كان قد طلب إبقاءهم هنا (من رواية بوريكينا وازمائيلوفا لم يتبين أين بالضبط، في كاتشا أم كارشاه)، وفي كيرمين يقولون أيضاً مثل اندرييف، حول نية تيمور إرسال العرب إلى الصين وحول توسط مير حيدر.

وبالنهاية يقولون في (عرب ـ خانة). أن تيمور قد نقل /٧٠٠٠٠عربي/ من مكان لآخر وأخيراً تركهم وشأنهم ولكن بنتيجة وساطة الشخص نفسه، ويذكر أنه في جيناو توجد مجموعتان:

إحداهما تتحدث العربية وهم بكل بساطة عرب، أما المجموعة الثانية فإنها لا تتحدث العربية وهم عرب ـ اندخويين (ولم يشير إلى اللغة التي تتحدث بها المجموعة الثانية). ووردت في المقالة سلسلة كاملة من أسماء المجموعات القبلية بعضها غاب عن اندرييف لكنها موجودة عند غريبينكين، وهذا ما يؤكد ما جاء به الأخير. سكان قرية جوكاري

(التمسك بالمكان). بالقرب من بخارى حسب الحكايا قد جاؤوا إلى بخارى من اندخــــوي، وكما يتحدثون فقد جاء أسلافهم لاحقاً للمجموعات الأخرى لزيارة ضريح (بــــهاء الديــن النقشبندي) في ضواحي بخارى واستقروا هناك.

ومن المهم أيضاً فصل الطبقات بين العرب من حيث النوع، عادة بالنســـبة للرُحَّـل مــن الفقراء الذين كانوا يستوطنون مباشرة، أما الأغنياء فإنهم يتابعون الترحال لكنهم يمارســون اقتصاداً زراعياً مستقراً بمساعدة العمــال الزراعييــن وأولئــك الذيــن يعملــون بنظــام المحاصصة، أذكر بأن المعلومات تعود إلى عام ١٩٢٩م وهذا الفصل بالطبقات كان شديداً أكثر مما هو عليه الحال لدى السكان المحيطين بسبب انتشار تربيــة الأغنــام ذات فــراء (استراخان الثمين) لدى العرب.

وهناك الكثير من المراجع يرد فيها ذكر عرب آسية الوسطى[١٧]، في تركمانية، وفي واحة خوارزم، وفي فرغانة، وفي الأقسام الجبلية من طاجيكستان، حتى وادي نهر ياخ ـ ســو على حدود دار واز، لكنهم حافظوا على لغتهم وذلك على ما يبــدو فقــط لــدى بعــض المجموعات الصغيرة في واحات بخارى وكارشين[١٨]. ولتوضيح كيف انتشــر الســكان العرب في آسية الوسطى يكفي إلقاء نظرة على أية خارطة تفصيلية، حيث تكاد لا توجــد منطقة بلا (سكان يطلق عليهم "عرب" أو "عرب ـ خانة").

وتجاه المعلومات التي يمكن استخلاصها من الجغرافيين والمؤرخين العرب سأتوقف أدناه، حيث لا توجد لدينا أسساً كافية تجعلنا نعدّ أن العرب المعاصرين في وديــان زيرافشــان وكاشكا داريا خلفاً للعرب المذكورين قبل ألف عام، وزد على ذلك في مناطق أخرى. لذلك فضلت السير بطريق آخر ـ الانطلاق من الحاضر إلى الماضي، من القرن التاسع عشــر إلى القرن السادس عشر والقرن العاشر.

هناك الكثير مما ذكر حول العرب في المراجع التاريخية لآسية الوسطى في القرون الأربعة الأخيرة، لكن أغلبها يرتبط بأراضي تركمانيا، بالعرب الذين تبنوا اللغة التركمانية وانصهروا مع التركمان[١٩]. هذه المراجع كثيرة جداً لكن البحث فيها صعب جداً إلى حد كبير حيث بقيت كلها تقريباً على شكل مخطوطات وقسم منها مجهول قليلاً.

وها هو عبد الكريم بخارسكي[٢٠] الذي كتب في بداية القرن التاسع عشر متحدثاً عن القبائل الرحل التابعين لخانية بخارى، على أثر التركمان القاطنين حول تشار جوي، مسمياً العرب المنتسبين إلى قبائل: بنو حزين، بنو تميم، بنو زيد، وغيرهم الذين لا عدد لهم، بعد ذلك ينتقل إلى الرحل القاطنين في ميا نكال، بالقرب من كاتا كورغان، النص الذي أورده عبد الكريم بخارسكي غير منتظم أو متتابع، حيث لا نرى فيه أين عاش هؤلاء العرب بالضبط، حيث يمكن فهم أن الحديث يدور حول عرب الشاطئ الأيسر لـ أمو ـ داريا. (نهر جيجون).

الوثائق تتحدث أكثر عن العرب. وبغض النظر عن المادة المتاحة لي من هذا النوع بمحض الصدفة، تشكل جزءاً ضئيلاً من كتلة الوثائق الموجودة والتي تعود إلى الأربعمائة سنة الأخيرة، فإنه لدي الآن سلسلة كاملة مما يمكن ذكره عن العرب. الوثائق الأخيرة منها حسب الزمن ـ هي وثائق بداية القرن التاسع عشر حيث نجد في الأمر الذي أصدره الأمير حيدر في عام ١٢١٨هـ (١٨٠٣م) حول تجنيد "كاراتشيريك" ((قوات مدنية)) في ضواحي مدينة بخارى في صفوف القبائل الأوزبكية قد ذكر العرب الذين كان عليهم أن يقدموا /١٥٠/ شخصاً[٢١].

وفي الوثائق التي استخدمها ف.ل. فياتكين في بحثه حول ولاية كارشين[٢٢] والتي تعود للأعوام /١٨٠٠ـ١٨٠٣م/ ذكر العرب القاطنين في قرى كاماش[٢٣] وعبران، وفولاذ

وغيرها، الذين كان عليهم أن يقدموا مائة من الرماة ومن الجدير بالذكر أن قرية كاماش تقع في ناحية بيشكند، وهذه على ما يبدو هي نفس كاماش التي ذكرها اندرييف.

أما قرية عبرون=عبران فإنها تقع في ناحية كاسان[٢٤] إلى الشرق من بخارى، لكن لا توجد معلومات عن قرية بولاد=(فولاذ).

وللأسف لم يقدم ف. ل. فياتكين النص الأصلي للوثائق، ودراسة المجموعة التي استخدمها والموجودة الآن في المكتبة العمومية الحكومية لجمهورية أوزباكستان في مدينة طشقند[٢٥]، يحتمل أن تقدم معلومات إضافية لهذه المسألة التي تهمنا.

ــ كُرِّست هاتان الوثيقتان التاليتان خصيصاً للعرب، وهما موجودتان في مجموعة الوثائق وبطاقات كتب ــ "إنشاء" المحفوظة في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية تحت رمز"A212" وتحتوي على وثائق تعود للنصف الثاني من حكم أمير بخارى حيدر "١٨٠٠ــ١٨٢٦م" وهنا نبين نماذج الوثائق الرسمية حول التعيين بوظائف مختلفة وتوجد وثيقتان خاصتان بالعرب إحداهما بعنوان "نشان(بوظيفة مبرهزار) [٢٦]" ويرد فيها ما يلي:

ــ وحيث أن العقل اللامع الذي يعرف قيمة (الناس) والفكر النير هو أساس العدل يوليان الاهتمام بوضع المماليك القدماء. (خاصتنا) فقد تطرقا إلى جزء من رحمة الخانات ولبوا أمل "اللاجئين من الحرب[٢٧]". ذلك المحب للخير ميرزا بيك ولد اسماعيل بيك الذي أجلسناه على رأس خان الذي أصبح مير هزار، وقدمت الرحمة لجماعة العرب الذين يتحدثون باللغة العربية (أعراب ــ عربي كوي) المقيمين في العاصمة الرائعة (بخارى) المتألقة وضواحيها.

ــ ومن الجدير الذكر أن المجموعة اعترفت بالمذكور أعلاه مير هزار رئيساً لهم (كالون)

حيث أعزّته واحترمته ولم تتوان عن تنفيذ توجيهاته التي تشكل خيراً للدولة المزدهرة ومنفعة للجماعة المذكورة. وعندما توقع (هذه الوثيقة الرسمية) بخاتم سامي فأنهم سيبدون الثقة".

ويلي ذلك rr576-s76 وثيقة أخرى بعنوان"نشان "بوظيفة" مير هزار اكتشا.

ورد فيها:

"هذا ما يدركه الحكماء. حيث أن الوفي خول(٢٨) مير هزار، الذي بكل صدق ومودة عاش حياته في خدمة القصر – ملجأ السلام. حيث ودّع هذا العالم سريع الزوال وجعل حياته ضحية لصاحب السمو. لذلك بملامسة جزء من عطف الخانات فأن وضع هذا العبد القديم (خاصتنا) وابنه محمد صديق ليوا آماله "منحناه" لمجموعة العرب. الذين يتحدثون باللغة العربية (أعراب عربى كوى) لتلك الولاية المذكورة. أناس هذه المجموعة المذكورة يعدّونه" مير هزارهم وشيخهم" حيث يحترمونه ويطيعونه ويلبون أوامره التي ستكون نفعاً للدولة المزدهرة وخيراً للمجموعة المذكورة ذلك المبلغ الذي استلمه أبوه من الخزينة الشخصية السامية (سر كوري خوسا) سنوياً من خبز ونقود (نقداً) فقد خصصناها له بمثابة راتب (ألوفا). كان على موظفي الديوان أن يدرجوا ذلك في السجل السامي (دفتري أولي) أما جباة الأتاوات فكان عليهم أن يدفعوا بدون حسم من الخزينة الشخصية السامية. وعندما ستزود هذه الشهادة بالخاتم السامي سيتم اعتمادها".

وهكذا فإنه في الربع الأول من القرن التاسع عشر كان العرب الناطقون باللغة العربية القاطنون على الأقل في منطقتي – بخارى واكتشا. قد شكلوا وحدات إدارية خاصة بزعامة مير هزار، وهم حرفياً بالآلاف. هذا اللقب كما يبدو من الوثيقة الثانية قد انتقل أحياناً بالوراثة. إن التأكيد على "العرب" الناطقين باللغة العربية يشير إلى أنه في ذلك

الوقت كان هنالك عرب لا يتحدثون العربية وكلمة "جماعة " قد استخدمت في ذلك الوقت عادة بمعنى وحدة قبلية ـ قبائل و أحياناً استخدمت بالمعنى المعروف حالياً ـ جماعات زراعية و قروية (اكتشا) هي قرية صغيرة في ريف مدينة مزار شريف الأفغانية، بالقرب من اندخوي و شوبورغان. حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت هذه المنطقة خاضعة لأمراء بخارى.

وعلى ما يبدو هي نفسها " قرية غاتشا " التي تُذكر في القصص العربية المدونة من قبل بوريكينا وتركمانستان وازمائيلوفا. وبهذا الشكل فإن العلاقة بين عرب آسية الوسطى وتركمانستان الأفغانية مؤكدة بالوثائق، ولم تتم الإشارة إلى وظائف مير هزار. لكن على ما يبدو لم يقم بجمع الأتاوات، حتى أن مير هزار نفسه قد حصل على راتب من الجباة. وكل مير هزار لم يحمل أي رتبة ويحتمل أنهم كانوا بمثابة شيوخ من العرب أنفسهم. وعبارة " عبيد قدماء " تعني فقط انهم كانوا بالوراثة في خدمة أمراء بخارى. وسأعود إلى منشأ هذه الوظيفة.

بالنسبة للقرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، لا توجد لدي بيانات حول العرب. وبالنسبة لنهاية القرن السادس عشر يوجد تنويه بصيغة نداء ((وثيقة عبد الله خان)) .

حيث يرد ذكر العرب في هذه الوثيقة باسم "عبد الله نامي" حول أحداث الأعوام ٨٨٧ هـ ـ١٧٨٢ / ٨٣٠ (٢٩) وفي الأحداث التي وقعت ما بين عامي ١٤٨٢ـ ١٤٨٣) .

و يعدّ النصف الأول من القرن السادس عشر أكثر غنى. حيث توجد لدينا عنه مجموعة وثائق "انشا" الذي حصل عليها ف . ف بارتولد في عام ١٩٠٢ ويحتفظ بها الآن في معهد الاستشراق(٣٠)، القسم الأساسي من هذه المجموعة تتكون من نماذج وثائق (كما هو الحال دائماً في مثل هذا النوع من الوثائق حيث لا يذكر فيها تاريخ أو ذكر لأسم الخان) تعود

لولاية سمر قند وجزئياً لمناطق أخرى في آسية الوسطى. فالمخطوط على الورق و الخط لا يمكن أن يكون في فترة أقرب من منتصف القرن السادس عشر وتدل على هذه الفترة سلسلة من العناصر في نص الوثائق وفي وثيقتي (١٨٦٦م,rr.836) عبد العزيز خان مع عبارة "أطال الله عمره" ـ توفي هذا الخان في عام ١٥٥٠ م. وفي صيغ المعاملة في بعض صيغ هذه المجموعة يذكر العرب في أربعة منها ـ مير هازاري العرب، سأورد مثل هذه الصيغة في الوثيقة الأولى ـ نيشنان" وظيفة (في حينها ليست رتبة) ميرا خور (r.250).

وقد ورد فيها ((يذكر الأخوة الأقوياء الجبابرة كالشمس. أمراء ووجهاء. دعائم الدولة والوزراء ذوو الشأن والإمكانية. وجباة الضرائب. والذين يشرفون على أعمال وأمور السلطان والقائمون بمهام الديوان يوزبيكيون (بالمئات) أيماقات. ومير هزاران أعراب (عرب) وقبائل (أحشام). وأرباب و كلانتران (شيوخ) وجماعة التجار وغيرهم من سكان مدينة وولاية سمرقند وعلي آباد[٣١] وغيرها من الأماكن التابعة سمرقند.. ..[٣٢]))

تكررت تلك الصيغة بتغيير بسيط في ثلاث وثائق تعود أيضاً لولاية سمرقند (rr256-266) وفي الوثيقة رقم (r269) حيث أن مصطلح "أحشام" غير موجود ويذكر فقط مير هزاران[٣٣] (أعراب). بعد ذلك أيضاً في ثلاث وثائق بصيغ مشابهة يذكر العرب بدون ذكر مير هزاران وهذه الوثائق متعلقة بولاية بالخسك (r.1946) وكيشك (=شهر سياب. r286) وبخارى (r.1946). وهكذا كان العرب في منتصف القرن السادس عشر في آسية الوسطى في ثلاث مناطق يقيمون فيها الآن ـ بخارى وسمرقند ووادي كاشكا داريا. العرب (العرب=البدو) وهم يذكرون وسط القبائل الرحّل بالقرب من أيماك ـ قبائل من أصل تركي أو منغولي. وهؤلاء الآخرون تتم قيادتهم من قبل اليوزبيك (مئات). وحينها

حيث أن العرب والقبائل الأخرى (أحشام) ـ يحتمل أنهم من أصل غير تركي[٣٤] ـ بل مير هزاران (بالآلاف) ولمعرفة ماذا يشكلون هؤلاء المير هزاران فإن الوثيقة الواردة أدناه الواقعة في (rr.124g-1246) من نفس المجموعة. ومن الوثيقة لا يلاحظ إلى أية ولاية تعود لكن يمكن أن نفترض كما في أغلبية الوثائق أنها تعود لسمرقند:

نشان مير هزاري أعراب (وثيقة مير هزار عرب). وقد ورد مبيناً وهذا ما يدركه الأخوة الجبابرة والمظفرون. الأبناء المشهورون الذين يعيشون في بحبوحة.الأمراء الذين يزينون المملكة. والوزراء مطلقي الصلاحية الذين يتمتعون بإمكانيات وجملة من المزايا الجيدة ونواب القصر ـ ملجأ السلام شبيهه بقبة السماء. وجباة الضرائب والمشرفين على أعمال ووظائف المملكة. ومدير وأعمال الديوان والخدم المقربون (خوسا) وليس عموماً ـ وليحسن الله أحوالهم ـ ولتكن كامل الإدارة التي تفكر بالعناية والاهتمام واللطف، تدعونا وتحثنا أن نتصرف طبقاً لفحوى الكلمات التي تشير إلى السعادة: ((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[٣٥])) وقد أسندت أعمال السلطنة ووظائف العبادة والدولة لأناس يتحلون بمزايا فاضلة ويتميزون بأصلهم الطيب وحبهم للخير الواضح من خلال الكلمات التي تجلب المسرة ((ورفع بعضكم فوق بعض درجات[٣٦])) وعيّنهم في وظائف مناسبة وفرزوا ورفعوا بين الأشباه والأمثال حيث أن إثبات هذه الفكرة.والشاهد لصالح هذا الاعتراض كان سامياً من الوجهاء والمقربين والأنسباء والأخوة المحسن كمال الدين مقصود بما يخص الخدمة والمثابرة والإحسان، فهو يتبع لأولئك (الذين تم الحديث عنهم) ((والسابقون السابقون أولئك المقربون[٣٧])) المشمولين برعايته وقد كلفناه بوظيفة مير هزار عرب ونقلنا سلطته والتصرف بكامل شؤونهم.

وبالتالي الاعتراف بالمذكور أنه يتمتع بكامل الصلاحية والاحترام كأمير (أمير الألف

هزار) وعلى ألا يتدخل أحد في ذلك. شيوخ القرية والفلاحون[٣٨] يعدّون مير هزار الـذي يكنون له كل الاحترام قائداً لهم كما يعدّون أنه من الضروري التوجه إليه في كافة الأمـور الضريبية – (مقرري) [٣٩] والرسوم (اخراجات) والفرائض الأخرى وغيرها من الواجبات التي ستفرض على هؤلاء الآلاف (هزار اجست) الذين ينفذون ما يحدده ويـأمر بـه ولا يخالفون قراراته وهم يعدّون أنه من الضروري احترامه وتقديره والاحتفال به وتبجيلـه، ويدفعون له كما في السابق (الضرائب) وحق الاهتمام وكل ذلك بلا أدنى اعتراض. وأينما كان الفلاحون في الولايات والتومينيات (الرعية) والذيـن يعملـون بنظـام المحاصصـة (الشريك) ويعملون تحت إدارة المذكور[٤٠] في قريته (ذات مساكن الرحـل) ويمارسـون بهدوء حرفة شرعية.

– إن كان مير هزار في القرن التاسع عشر لم يجمع الأتاوات فإنه في القـرن السـادس عشر كان يقوم بذلك كمهمة رئيسة: فهو يجمـع الضرائـب لمصلحـة الديـوان: (أي للحكومة) ورسم معين لمصلحته الخاصة وتحمل الوثيقة طابع منح الهبات أكـثر مـن التخصيص لوظيفة ما.

وبالمناسبة في زمن التيموريين، والشيبانيين، عُدّ التعيين في وظيفة ما بمثابة "شـويورغال" منحة وفائدة. ويحتمل أن يكون المصطلح الإقطاعي "اليغ" وهو جباية الضرائب بالتركية قد صادفنا مرات كثيرة في وثائق القرن السادس عشر وفي فترة أخرى متأخرة مع مصطلـح "ساليغ" والمعنى الحقيقي للمصطلح غير محدد[٤١] يمكن التفكير بأن فحـواه كـان واسـعاً واشتمل على الضرائب عموماً. وإلى أن نجد مواد أخرى ما علينا إلا أن نترك المسألة قيد الدراسة[٤٢] مصطلح "حق الاهتمام" وهو حرفياً، الآجر لقاء الرعاية، أي أجر الإدارة كنـت قد صادفته للمرة الأولى، لكن آسية الوسطى في القرون الأخيرة عرفت سلسلة كاملة مـن

مثل هذه الرسوم التي كانت تدفع لمصلحة المسؤولين على مختلف تسمياتهم (مـــيروبون، محصلون وما شابه ذلك) وفي دولة المغول في (إيران) حصل قادة الوحـــدات العســكرية على رسم خاص من جنودهم.

ـ ويتضمن الجزء الختامي من الوثيقة معنىً خاصاً: من المفروض على الفلاحين ومـــن يعمل بنظام المحاصصة أينما وجدوا العودة إلى أماكنهم (يورت ـ مساكن الرحل فـــي آسية الوسطى) ومحطاتهم ولم يكن متوجباً على أحد إيواءهم والاحتفاظ بهم، علـــى مـــا يبدو الحديث يدور هنا حول شكل معين من أشكال تثبيت الفلاحين بالأرض وحول عودة الهاربين. وهنالك صيغة أخرى مماثلة ولكن واضحة أكثر في وثيقة أخرى مـــن نفـــس المجموعة (r.26g) حول تعيين الحكيم على "تشاغاتيين":

ويرد في الوثيقة لم يكن أي من السادة والشيوخ والأمراء وكافة خدام القصرـ ملجأ السلام يقوم بأيواء (حمايات ناكوناد) تشاغاتايف. لكنهم يقدمون الخدمات للمذكور (حكيم) نجد مثل هذه الصيغ واردة في الوثائق زمن الحكم المغولي في إيران[٤٣] وفي الصيغة العامة حـــول تثبيت الفلاحين في بطاقة معروفة ((غازان خان)) وحددت فترة ثلاثين يوماً للبحث عـــن الهاربين. من المحتمل أن البطاقة تتضمن نظاماً مقرراً[٤٤] المسألة المتعلقة بوجوب تثبيـــت الفلاحين بالأرض أو بالمالكين في آسية الوسطى. وحول أشكال مثل هذا التثبيت بحاجـــة لبحثها في دراسة خاصة، ف.ف. بارتولد نفى وجود ذلك في كافة البلدان الإسلامية[٤٥].

كما ورد أعلاه فإن الوثائق تضع العرب بين القبائل الرحّل ولا تطلق عليهم اسم العرب بل البدو. إلا أن ذكر الفلاحين والمحاصصين (شريك) [٤٦] يتم وكأنه قد بـــدأ استخـــدام هـــذا المصطلح الأخير تجاه اقتصاد تربية الأغنام الرحّالة مازال غير معروف ويبدو أنه قليـــل الاحتمال.

ومن المهم أيضاً أن نفس تلك المصطلحات(٤٧) "مير هزار" الألفي، وهزار الألف، كوحدات إدارية وليست عسكرية. وفي المراجع لا يوجد على حد معرفتي ذكر لها. وفي الوحـــدات الكبيرة وجد مصطلح (عشرة آلاف) في خانية بخارى قبل القزن التاسع عشر. وقـد أورد ف.ف.بارتولد، افتراضاً بأنهم جلبوا في زمن الخان كيبيـك (١٣١٨ــ ١٣٢٦) مصطلـح هزار، في آسية الوسطى نصادفه في القرن السادس عشر(٤٨).

حيث أن منطقة ماتشا الجبلية عدّت في نهاية القرن السادس عشر (هزار) (٤٩) وما زالـــت هذه التسمية قائمة في أعالي نهر زرافشان حتى الغزو الروسي للمنطقة.

مصطلح مير هزار كما يبدو من الوثائق التي أوردناها وحتى نهاية القرن السادس عشـــر، كان مرتبطاً بالعرب فقط وبعض القبائل الرحل، ولكن في دار فار، وكارتيغين، بقيت هــذه التسمية بلفظ محلي (ميرزوري) حتى قيام الثورة(٥٠). وكانت هذه اختيارية من إقرار البيك أو الشاه وتطلق على المسؤولين عن جمع الأتاوات إلى جانب الأعمال الأخرى والرســـوم وبقيت ذات طابع قديم. وفي مكان واحد هو وصف(٥١) سكان مدينة بخارى الذين قســـموا في منتصف القرن الثامن عشر لأهداف مالية حكومية، إلى هزارا (آلاف)، ومن المحتمـل أن هذا التقسيم قد ظهر في البداية زمن إعادة التسجيل الذي قام به المغول(٥٢).

وكان هذا التقسيم قائماً بشكل غير واضح في زمن المغول وفـــي أفغانســـتان المعـــاصرة (كابول)، وفي أذربيجان، وكذلك في جورجيا.

وبذلك استنفذت لديّ البيانات حول العرب في آسية الوسطى ــ الوثيقة التاليـــة والأخـيرة تعود إلى خراسان وهي موجودة في مجموعة الوثائق الرسمية التي أعدها عبد الله محمـــد المروزي أثناء خدمته بمثابة سكرتير لدى السلطان حسين بايكره الـــذي حكـــم (هــيرات) والقسم الأكبر من خراسان، اعتباراً من عام ١٤٦٨ ولغاية ١٥٠٦ م. وقد توفي عبـــد الله

في عام ١٥١٦م[٥٣]، ومجموعة قوائم المخطوطات التي تذكر فيها كثيراً جداً تسمية ترتستولي ــ مرواريد، مع العلم أن هذه التسمية غير موجودة فيه، وتوجد في معهد الاستشراق عدة مخطوطات من هذه المجموعة التي تتميز بعضها عن بعض من حيث محتواها.

لقد قمت باستخدام مخطوط ص ٣٣٣ (A,rr-466-48a). عدا ذلك ورد الجزء الهام من وثائق المجموعة المذكورة أعلاه (خط قياس B,A210,r.97g-986 أدناه) ويرد فيها ما يلي:

"نشان حكيم العرب سعيدي باسم حجي أفضل الدين محمد.. وفي هذه الوقت فلان وفلان الذين ينتمون إلى زعماء ورؤساء قبائل العرب بنو سعيد وعدة قبائل وقبل فترة مضت نتيجة عدة أحداث مرت خرجوا من ممالك خراسان مقرهم الأصلي وأقاموا في العراق. حيث أصبحوا أسرى للظلم والتعسف. فراحوا يبحثون عن ملجأ عند القصر ــ ملجأ السلام[٥٤] فاستحقوا شرف تقبيل البساط، وكانوا على أمل بأن يجدوا العطف اللامحدود والشفقة، وطلبوا أن يكون جل الأمور والإدارة العامة والخاصة مفوضة لأحد أركان الدولة كي يمكنهم القيام بالصلاة بهدوء للدولة القوية الراسخة وبغية تحسين أحوالهم والثقة الموجودة لدينا بوجهة النظر الجيدة التي تزين المملكة بانية الأسس العظيمة لسلطنة الخليفة الطيب والمخلص مؤتمن الملك حجي أفضل الدين محمد وعهدنا بالاهتمام الجيد بهذا المشهور ــ ونتمنى له حسن النهاية ــ والتوفيق في عمله لإدارة (دار وغاغي) وتحصيل رسوم وضرائب العرب المذكورين. الذين وصلوا والذين سيأتون من الآن فصاعداً، مع تعيين الموظفين (مباشرين) محصلي (أميليه) عير قرار الأحكام (تزوك باستان) [٥٥] نظراً إلى أن ذلك يمكن توقعه من شخصيته الطيبة. حيث أبدى اهتماماً خالصاً ورأفة كما

تتطلب العادة الطيبة و الطبيعة التي تستحق الثناء، لهذا الباني لدعائم الدولة والذي لم يسمح بأن يقوم شخص ما بإثارة القلق وتدمير ما قاموا ببنائه. وقام بتعيين حكام عليهم ولكنه لا (يسمح بأن يقوم بينهم أية خلافات)، وعين عليهم سنوياً محصلاً يقوم بجباية الواجب في حينه وتقديمه للديوان وعليهم أن يخضعوا لأوامره ونواهيه التي تعدّ أوامرنا ونواهينا دون الاستهانة بأدنى أوامر الطاعة وفي كافة الأحوال، اعتبار الشكوى والامتنان له فعلاً مؤثراً[٥٦]". وهكذا حتى نهاية القرن الخامس عشر استطاعت مجموعات كبيرة من العرب تنفيذ الترحال من خراسان إلى العراق[٥٧] وبالعكس. إلى جانب إقرار هذه الحقيقة تفسر لنا هذه الوثيقة كيف كان العرب ــ المرتحلون بحاجة إلى نصير من الإقطاعيين أو الموظفين الكبار[٥٨]. إن مثل هذا النصير بالطبع لم يقتصر على جباية الضرائب إلى الخزينة بل واراد.. أن يجمع شيئاً لمصلحته الشخصية.

وهذا على ما يبدو أجر الرعاية أو الاهتمام الذي ذكر في الوظيفة السابقة. وفي هذه الوثيقة يذكر مصطلح "اهتمام"ــ العناية. وبدا أن هؤلاء العرب كانوا تابعيين لهذا الإقطاعي ومن المحتمل أن مير حيدر، كان ذلك النصير والذي خصص له ولخلفه لاحقاً رسم خاص في كتابات م.س. أندرييف. وفي الختام يتوجب التوقف عند مسألة وهي متى جاء أولئك العرب إلى آسية الوسطى، أولئك الذين تتحدث عنهم الوثائق والموجودون في المنطقة حتى يومنا هذا. من غير الممكن إعطاء جواب نهائي على هذا السؤال الآن وسنتقيد بشكل أو بأخر بالافتراضات المدعمة بالحجج والبراهين. في زمن فتح العرب لآسية الوسطى في القرن السابع ــ القرن الثامن، في المدن الكبيرة لبلاد ما وراء النهر ــ في بخارى وسمرقند، ويحتمل أيضاً في مدن أخرى استوطن العرب على شكل مجموعات كبيرة في حاميات. حيث أعطوا في بخارى نصف منازل وأراضي السكان[٥٩] ويحتمل أنه منذ تلك

الفترة فترة الفتح الإسلامي حملت بعض الأماكن والأحياء والبوابات والمقابر أسماء قبائل عربية في بخارى، وسمرقند. وعلى ما يبدو لا يوجد ما يشير إلى أن العرب في هذه الفترة قد استوطنوا خارج هذه المراكز الضخمة. ومن الصعب تصور إمكانية ذلك في بلد تعرض للفتح ومهدد وباستمرار بخطر الانتفاضة، ولاحقاً بعدما انتهى الفتح وبدأ اندماج المنتصرين مع المغلوبين، كان العرب المدنيون قد انتشروا بشكل أوسع وطبقاً لما جاء به عالم الجغرافيا في القرن التاسع اليعقوبي فقد تواجد العرب[٦٠] في كافة مدن خراسان (حيث يشمل بها بلاد ما وراء النهر). لا توجد لدينا معلومات حول أن العرب شكلوا جموعاً متماسكة في مكان خارج المدن الكبيرة. يعدّ ف.ف.بارتولد[٦١] بأن قرية فيدرا إلى الشمال من سمرقند هي مركز العرب في القرن العاشر وأن فيدرا وغيرها من قرى هذه المناطق تتبع لمجموعة (قوم) من قبيلة بكر بن وائل المشهورة. حيث كانت تتبع لهم السلطة في سمرقند، وكانت لديهم بيوت للضيافة ومزايا جيدة.

"ويضيف ابن حوقل إلى ذلك قائلاً:" وجدت قسماً قليلاً منهم مشيراً إلى الكثير من هذا الخير يمكن بسرعة التوصل إلى نتيجة ختامية مفادها أن فيدرا وغيرها من القرى الأخرى كانت مسكونة من قبل العرب[٦٢].

ولاحقاً: اندمج العرب بسرعة مع السكان المحليين في المدن الكبيرة، حيث ذكر الكاتب المشهور[٦٣] جاهيرز، وذلك في القرن التاسع بأنه أصبح من المستحيل تمييز العرب القاطنين في فرغانة أو غيرها من مناطق خراسان (بالمعنى الواسع) عن السكان الأصليين، ومن الممكن أن العرب المعاصرين في مدن بخارى وسمرقند وخوجند، ويحتمل أيضاً في مدينة كاتا_ كورغان، يكادون لا يختلفون عن جيرانهم الطاجيك، وأنهم من أولئك السكان الذين استوطنوا في القرون الأولى للإسلام. وكان الحال مغايراً على الضفة

اليسرى من آمو داريا في خراسان. ففي الفترات المبكرة جداً من فتوحات العرب لمناطق (مرو وبلخ) التي جعلوها قواعد أساسية للفتوحات اللاحقة، حيث قدم العرب بأعداد كبيرة منذ البداية واستقروا على شكل مجموعات قبلية كبيرة، وإذا كان العرب الحضر الذين أقاموا في المدن والقرى المجاورة (يحتمل على الأغلب أنهم كانوا من المالكين للأرض وليسوا ممن يعمل بنظام الحصة) قد ذابوا في كتلة السكان الأصليين، فإن العرب الرحّل كما هو عليه الحال في أي مكان، قد حافظوا بشكل أكبر على مزاياهم(٦٤)، ومن الأحاديث حول هلاك آخر ممثل لسلاله السامانيين، يتضح بأن مجموعة كبيرة من العرب الرحّل التي كانت تخضع للسلطان محمود الغزنوي ويقودها موظف معين من قبله وهو (بوندار) كانت تقيم في السهول الواقعة بين (مرو) وتشارجوي.

يذكر أن العرب أقاموا في القرن الثاني عشر حول مدينة شهرستان في منطقة عشق آباد المعاصرة(٦٥)، ويطلق المقدسي(٦٦)، كما كتب في القرن العاشر عن منطقة مدينة حلم (المسماة الآن تشكرغان، في الجزء الشرقي من تركستان الأفغانية)اسم بلد قبيلة آزاد في قرية خاست، في مكان ما من هذه المنطقة عاش العرب عند معبر أمو-داريا في أعالي تشارجوي(٦٧)، ومن الممتع ذكره ما جاء على لسان (بارتولد) (٦٨) في حديثه عن منطقة غوزغانان في القرن العاشر حيث يذكر بلدة آزيف(٦٩)، الصغيرة في المنطقة الخاضعة لسيطرة حاكم غوزغانان حيث يؤكد وجود العرب في سهول هذه المدينة وعددهم حوالي عشرين ألف رجل ولديهم الكثير من الخراف والجمال يعين أميرهم من قبل حاكم غوزغانان، وهم يدفعون له الصدقات (أي بكلمات أخرى الزكاة ــ ضريبة المواشي) وهؤلاء العرب هم الأغنى من بين كافة العرب المنتشرين في أصقاع خراسان.خوش، "هي قرية كبيرة جميلة ومأهولة بالسكان وتقع في وسط الصحراء" كما أنها تتبع لحاكم

غوزغانان، حيث يتوافد هؤلاء العرب بإعداد كبيرة صيفاً إلى هذه البلدة وامتــدت ملكيــة غوزغانان التي ضمت (اندخوى، ميمينه، شوبورغان) ما بين شوبوزغان وبلخ، إلى حيـث ما يسمى الآن أكتشا ويمكننا الاستنتاج بأن المجموعة الكبيرة من العرب تعدّ خلفاً لأولئــك الذين يتحدثون اللغة العربية في منطقة أكتشا التي تطرقت إليها الوثيقة نجــد أن القبــائل العربية التي استقرت في سهول تركمانية قد فقدت منذ زمن بعيد لغتها وأصبحــت بمثابــة قبائل خاصة انصهرت مع الشعب التركماني، ويحتمل أن يكون عرب تركستان الأفغانيــة، قد حافظوا على لغتهم نتيجة انضمام مجموعة ما كانت قد قدمت في وقت لاحق. لقد رأينــا أن مثل هذه الهجرات كانت ممكنة حتى نهاية القرن الخــامس عشــر، وتؤكــد الوثــائق والقصص وجود علاقة بين قسم كبير أن لم يكن كافة عرب آسية الوسطى المعاصرين مع تركستان الأفغانية. هل يوجد هنالك عرب الآن في هذه المنطقة هذا ما لــم أتمكــن مــن تحديده وحسب المصادر الإنكليزية الرسمية[٧٠] يوجد في تركستان الأفغانية عرب يتحدثون باللغة الطاجيكية، ولكن أين بالتحديد ــ هذا ما لم يشر إليه.

تواجد العرب وبكثرة في المنطقة الجنوبية في القسم الأوسط من أفغانســتان، وكمــا هــو معروف دخل العرب في تشكيلة جيش محمود الغزنوي كوحدة خاصة كان قد تم اختيارها، ولكن بعد فترة طويلة من وفاة السلطان محمود، ورد ذكرهم عند وصف الأحــداث فــي منطقة غزنة حتى بداية القرن السادس عشر في زمن بابور[٧١]، كــان العــرب الرحّــل موجودين في منطقة كابول، ومن كلمات بابور يمكن الاستنتاج بأنهم كانوا يتحدثون باللغــة العربية فهل هم موجودون الآن ــ هنالك؟ــ هذا غير معروف. ومن المحتمل أنــه مــن خلالهم أدخلت إلى لغة عرب آسية الوسطى عناصر لغوية أفغانية. ومن المعلوم أن الأفغان لم يكونوا البته في تركستان الأفغانية حتى القرن التاسع عشر، أما الآن فــهم موجــودون

بتعداد ضئيل جداً.

ومن غير المعلوم أيضاً متى حل عرب آسية الوسطى على الضفة اليمنى وفي الأماكن التي يعيشون فيها الآن. كتابات القصص والأساطير تشير إلى أن تنقلاتهم كانت صعبة ولم تحصل مباشرة. قسم من عرب سمرقند. على سبيل المثال. قد مرّ عبر كارشي والقسم الآخر عبر بخارى. ويشير د.ن. لوغوفيت[٧٢] إلى أن العرب على ما يبدو كانوا قد استوطنوا على الطريق ما بين بلخ وسمرقند ـ في بيكيابت كاباديا نسك. وشهر سياب، غيسارا، شيراباد وتشير اكتشين. يحتمل أن لهذه الملاحظة أساسات معينة. إلا أنه في المخطوطات الثلاثة المنشورة ذكرت أسطورة شائعة حول نزوح العرب من قبل تيمور. إن مثل هذا النزوح وارد بحد ذاته. نحن نعرف عن عمليات الترحيل التي تمت في زمن تيمور وخاصة بين الحرفيين، ولكن أحياناً من الرحل وعلى التو بعد وفاته بدأ هؤلاء المرحلون العودة إلى أماكنهم السابقة. ومن الغريب مع ذلك أن مؤرخي تيمور الذين كانوا يسجلون كل خطوة يخطونها لم يذكروا أي شيء عن ترحيل العرب. عدا ذلك من الضروري الإشارة إلى أن أساطير آسية الوسطى تربط كافة الأحداث الكبيرة والمنشآت بتيمور أو بعبد الله خان، لذلك نرى أن الأسطورة تورد فقط، أن هذا الحدث قد حصل منذ زمن بعيد.

ومن الغريب جداً ما ذكر في أساطير مير حيدر ـ صهر تيمور ـ ومطابقة هذه الشخصية غير المشهورة على الإطلاق مع أمير بخارى حيدر، نظراً إلى أن هذا الأمير عاش خلال فترة ليست قديمة ومازالت الذاكرة حوله حية. وما زلت أذكر حدثاً واحداً ارتبطت به عملية تهجير جماعي من الضفة اليسرى إلى اليمنى من أمو ـ داريا كانت قد حصلت بعد ١٠٠ عام من تيمور في عام ١٥١٣م وكان السلاطين الأوزبك مضطرين لتنظيف المناطق

المغتصبة من قبله في شمال خراسان وبلخ وعند ذلك حسب ما ذكـر الكـاتب المعـاصر مؤلف زبدة الآثار[٧٣] عبد الله عندما كان سلطاناً وليس خاناً قام بتهجير سكان مـرو إلـى بخارى، أما جانيبيك ـ سلطان فقد هجّر إلى إقطاعه عـبر أمـوـ داريـا سـكان بلـخ وشوبورغان واندخوي، وهي نفس المنطقة التي عاش فيها عرب شمال أفغانستان. إقطـاع جانبيك في تلك الفترة كان وادي زيرافشان حتى كيرمين ومن المحتمل جداً أن قسماً مـن عرب هذه المنطقة قد وصل إلى تلك المنطقة بنتيجة هذه الأحداث، ومن الممكن أن ترتبـط تلك الوثيقة العائدة لمنتصف القرن السادس عشر مع ما ذكرته أعلاه[٧٤].

ربّما كان من الممكن حل المسائل التي طرحتها لو كانت قصص العرب أنفسهم قد كتبـت بدقة أكثر وبشكل تام. وعندها كان يتم التوصل إلى توضيح من هو مير حيدر، ولهذا كـان لا بد من توضيح لمن دفعت الضريبة العربية الخاصة[٧٥] وما هي المزارات الموجودة في منطقة كارشا (وخاصة في قرية كاسبا).

الهوامش

(١) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن الأثير– **الكامل في التاريخ** بيروت دار صادر ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م،٣/٣٣.

(٢) سيف بن عمر الضبي الأسيدي – كتاب **الردة والفتوح**، وكتاب **الجمل ومسير عائشة وعلي** – تحقيق قاسم السامرائي: ط٢– الرياض – دار أمينة – ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ص ١٧–١٨.

(٣) حسن أحمد محمود – **الإسلام والحضارة العربية في آسية الوسطى بين الفتحين** العربي التركي – القاهرة – دار الفكر العربي ١٩٦٨ ص ١١٦.

(٤) محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) **تاريخ الرسل والملوك**، القاهرة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م. ٤/٢٦٢-٢٦٣.

(٥) حسن أحمد محمود – **الإسلام والحضارة العربية في آسية الوسطى بين الفتحين** العربي التركي – القاهرة – دار الفكر العربي ١٩٦٨ ص ١٢٤-١٢٥.

(٦) ابن الأثير **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م – ٥/١٥.

(٧) فزان بن ابراهيم الشايع (**حركة هجرة القبائل العربية واستقرارها في المشرق من الفتح الإسلامي وحتى نهاية الدولة الأموية**، رسالة ماجستير بإشراف عبد العزيز بن ابراهيم العمري، الرياض، جامعة الإمام محمد سعود، عام ١٤١٦هـ/ ص ٤٢٧٠، وص ٤٧٨.

(٨) مهام دارسة تركستان، **العلم والتعليم**، ١٩٢٢، رقم ٢ ص ١٠ ترقيم صفحات خاص.

(٩) Meyendrof, Voyage d'orenburg- Boukhra بباريس ١٩٢٦، الصفحات ١٩١ و ١٩٧.

(١٠) خانيكوف **وصف حانيه بخارى**، سان بطرسبورغ، ١٨٤٣، ص ٥٦-٥٨.

(١١) رحلة في آسية الوسطى، سان بطرسبورغ ١٨٦٥، ص ١٨٣، ترجمة غير دقيقة بالمقارنة مع Avambenry جولات في آسية الوسطى، لندن ١٨٦٤، ص ٣٧٠م.

(١٢) مجموعة "روكسي تركستان"، تحقيق ٢، ١٨٧٢م، ص ١١٣-١١٥.

(١٣) **معلومات جغرافية وإحصائية حول منطقة زرافشان**، سان بطرسبورغ ١٨٧٤، ص ١٤٣-١٤٩، تعداد عرب آسية الوسطى محدد بشكل مختلف من قبل الباحثين.

(١٤) تماماً مثل كريبنيكن.

(١٥) **أجبار تركستان**، الجمعية الجغرافية الروسية، الجزء ٢، ١٩٢٤، ١٧، ص ١٢٦-١٣٧.

(١٦) **استذكارات مجموعة مستشرقين**، المجلد ٥، ص ٥٢٧-٥٤٩.

(١٧) قارن: ي. آ. فوزنيسينسكايا وآ. ب. بيوتوروفسكي، **مواد للفهرسة والأنثربولوجيا وأثنوغرافيا كازاخستان وجمهوريات آسية الوسطى**، ص ٢٣٤، إلى ما ذكر هنالك ٢٤ اسماً وبعض ما أوردته يمكن إضافة آ. ي. سيمينوف، تحقيقات أثنوغرافية لجبال زيرافشان. كاراتبعين ودارو واز، موسكو، ١٩٠٣م، ص ١٨، ونفسه ورد في "**مجلة عالم الإسلام**" ١٩١٢م، ص ٣٠١. آ. خورشخين، في مجموعة مقالات تتعلق بـإقليم تركستان b6m4، ص ٢٣٦-٢٤٧ و لإ. ف. نااليفكين، التاريخ الموجز لخانية كاكندة.

كازان ١٨٨٥م، ص ١٠ ف. ف. بارتولد، **العالم الإسـلامي** nrp، ١٩٢٢، ص ٣٠، وبنفس المرجع، **تاريخ الحياة الثقافية لتركستان لينينغراد**، ١٩٢٧م، ص ٢٣-٢٤.

(١٨) حسب كلمات آ. غايفكسي (وهو عالم **اجتماع الجغرافية** روسي شهير، المجلد ٥٥، النبذة ٢ وص ٢٣)، توجد في بيكية كورغان، تيومن في الجـزء الأسـفل مـن وادي فاخش قريتان، سكانها شبه رحّل من العرب، في لغتهم الكثير من الكلمات العربية التي تجعل الحديث معهما صعباً باللغة الأزبكية، يحتمل أن هؤلاء العرب كـانوا يتحدثـون فيما بينهم باللغة العربية (الحديث يدور عن عام ١٩٢٠)، قارن أيضاً د. ن. لوغرفيت، خانية بخارى الواقعة تحت الحماية الروسية الجزء ١، ص ١٧٥.

(١٩) راجع مواد **حول تاريخ التركمان وتركمانيا**، المجلد ٢، إصـدار أكاديميـة العلـوم ١٩٣٨، دليل أسماء القبائل.

(٢٠) Histoire de Asie Centrale par Mir ABDOUL KARIM Boukhary. Pubie, Traduit et annots par Scheter. Paris 1876 (texe- person).
راجع: مواد حول **تاريخ التركمان وتركمانية**، المجلد ٢، ص ٢٠٢.

(٢١) تنويهات معهد الاستشراق، المجلد ٢، ص ٧٨.

(٢٢) **أخبار آسية الوسطى**، قسم الجمعية الجغرافية الروسـية الحكوميـة: المجلـد ١٨، ١٩٢٨، ص ١٦-١٧، و ٢٢-٢٣.

(٢٣) وردت لدى فيكاتكين كاميشي خطأ.

(٢٤) قائمة **بالمناطق المأهولة في جمهورية أوزبكستان السوفيتية**، ١٩٢٨، الجـزء ١٠،

منطقة كاشا، داريا، سمرقند، ١٩٢٩.

(٢٥) مجموعة فياتكين رقم ٥٥، قارن: **المكتبة العمومية الحكومية لجمهورية أوزبكستان السوفيتية**، المجلد ١، ص ٦٤، رقم ٢٣.

(٢٦) حول فحوى المجموعات المتماثلة كمصادر تاريخية سأتطرق للحديث عنها في بحث آخر هذا العدد الضئيل جداً من الوثائق المنشورة حتى الآن إضافة إلى اللغة الصعبة والمغالية في التزويق يجعل ترجمتها وتفسير بعض مصطلحاتها صعباً. وتتزايد هذه المصاعب أيضاً نتيجة أن سلسلة من قضايا تاريخ آسية خلال القرون الأخيرة لم تدرس أبداً. عند نقل المصطلحات والتسميات وبعض الكلمات المتعلقة بآسية الوسطى، اتبع اللفظ الوارد في اللغة الطاجيكية المعاصرة ولغة المدن الأوزركية (آـ تحول إلى: أو).

(٢٧) موبورز اتبانوخ، هو تسمية المناصب البخارية من كاراكول، بيغي حتى اشيك –آ– باشي، قارن آ. آ سيميونون، **نماذج من الوثائق الرسمية الطاجيكية طشقند**، ١٩٢٩، ص ٢٥. الاسم وارد غير واضح يحتمل أن يكون: قال.

(٢٨) مواد **تاريخ الكاراكالباكيين**، ١٩٣٤، ص ٣٤-٣٥.

(٢٩) مخطوط **معهد الاستشراق**، شيفرة ٨٨، 250a-2506، في مكان آخر عبد الله، نعمة، 448g، يذكر العرب في ولاية بالخسك.

(٣٠) شيفرة A. 448A راجع 3BO، ١٥، ص ٢١٩.

(٣١) إلى الشمال من سمرقند، راجع ف. ف. بارتولد، **تاريخ إرواء تركستان**، ص ١١٥.

(٣٢) كما هو معلوم كانت آسية الوسطى في عهد الشيبانيين مجزأة إلى إقطاعات مستقلة

ما بين أفراد سلالة، الخان، قام الخان بإدارة منطقة العاصمة فقط، في الفترة الأولى كانت سمرقند وعلى ما يبدو يقصد هنا المنطقة التي كان يديرها الخان شخصياً.

(٣٣) في هذه الوثائق تذكر عموماً فقط القوميات، لذلك فإن عدم ذكر مير هزار أن يجد ذاته لا يشير إلى أنهم غير موجودين في هذه الولايات.

(٣٤) قارن ما ورد لدى بابور (GMS,1898)، ترك ومولين وإيماق واحشامدين وهزاره دير مختلف أيل وأولوس.

(٣٥) **القرآن الكريم، سورة النساء**، الآية (٥٧).

(٣٦) **القرآن الكريم، سورة الأنعام**، الآية (١٦٥).

(٣٧) **القرآن الكريم، سورة الواقعة**، الآية (١٠).

(٣٨) كلمة "رعية" تطلق على الفلاحين وأحياناً كما في نهاية الوثيقة الفلاحون، المالكون وذلك خلافاً لمن يعمل بنظام المحاصصة.

(٣٩) حسب آ. آ سيمونوف (مصطلح مقرري يعني مجموعة الضرائب ذات الطابع المعين والتي تطلق عليها بمفهومنا "المباشرة"، وأتصور أن (مقرري) هو ضريبة تدفع على شكل مبلغ معين يقرره الديوان أما "مول" أو المال فيدفع على شكل حصة من المحصول. (قارن تعبير مماثل في وثائق زمن الحكم المنغولي في إيران (دستور الكاتب "المحفوظ في معهد الاستشراق، ص ٢٥٦) والمبلغ كذا برسبيل مرسوم بر مواضع مرجو الحصول بنام إطلاق كنند،.

(٤٠) حرفياً: العناية ١٠ الاهتمام).

(٤١) الصيغة التي نصادفها غالباً /الغات/ والموازي لها /سالغات/ يمكن أن تطون كلمة عربية بالجمع من تلك الكلمات التركية راجع على سبيل المثال /الغات وعملات ومراعيات في الوثيقة التي نشرها آ. آ.سيمونوف، **المجموعة المقتبسة**، ص ١١ ترجمة كامل العبارة غير دقيق لدى سيمونوف، فهي تعني: الضرائب والرسوم لقاء المراعي التي كانت تابعة منذ القدم لشيخ الإسلام سابقاً، وكانت يجب أن تدفع له وفق نظام محدد دون اعتراض.

(٤٢) قارن: 3BO,XV، ص ٢٦٩، مصطلح "سالغ" في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان يعني أتاوة القصر. راجع آل ل كون تحقيقات بيكوية شهر سياب، الجمعية الجغرافية الروسية حول موضوع أثنوغرافية، ص ٦٠، ١٨٨٠، ص ٢٣٠.

(٤٣) **دستور الكاتب**، "**مخطوط 1836 1** (نسخة ف. غ. تيرينغاوزن، ص ٢٧٨ و ٢٧٩ مصطلح حمايت"، قارن أيضاً: ف. ف تارتولد، نقش على جدار جامع أنيس مانوتشه، ص ٢٧ و ٣١.

(٤٤) DoHSSON, Histoire des Mongols، ٤، ص ٥٤٢، ا ب بترونيفيكسي، حمد الله قزويني كمرجع بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لشرق ما وراء القوقاز، -أكاديمية العلوم السوفيتية- قسم العلوم الاجتماعية، ١٩٣٧، ص ٨٨٨.

(٤٥) الثقافة الإسلامية، ص ٤٨.

(٤٦) حول هذا المصطلح راجع: ن. آ. كيسلاكوف، **آثار الشيوعية البدائية الطاجيكية فاخيو بولو**، ١٩٣٦، ص ٢٩-٣٣.

(٤٧) أولوغ بيك وفترته ٩ **تاريخ تركستان**، ص ٣٩.

(٤٨) من أرشيف شيوخ جوبيري (1938 W 456) تاتكينت في مانكال، ص ٤٦٠ (نور) لهذا المكان لفت انتباهي ب. ب. إيفانوف.

(٤٩) عدة وثائق من القرن السادس عشر –السابع عشر من ماتشا، أقوم بإعدادها للنشر.

(٥٠) قارن على سبيل المثال/ غاير. الدليل إلى تركستان، طشقند ١٩٠١٠-١٠٨ ن. آز كلاسكوف، المجموعة المقتبسة، ص ٥٤ و ٨١.

(٥١) إصدار بومباي، ١٨٥٢، ص ٤٩.

(٥٢) سرد تاريخ لافرينتفيكا عام ١٢٥٧، (اقتبس من/ ب. غربكوف، القطيع "القوم الرجل"، ص ١٦٧).

(٥٣) Ch, Rieu، كاتالوغ المخطوطات الفارسية، جزء ثالث، ن. ص ١٠٩٤.

(٥٤) قطع في الوثيقة.

(٥٥) أي بكلمات أخرى سلطان حسين.

(٥٦) الترجمة افتراضية.

(٥٧) معنى هذه الجملة غير واضح، قارن في وثيقة عام ٨٩٣، من فارس: شكر وشكايت عظيم مؤثر دانند (فارس نامه ناصرى، مجموعة حجي ميرزا حسين طيبي، طهران ١٣١٣، ص ٨١-٨٤). – على ما يبدو عليهم أن ينتبهوا الصيغ الختامية العادية،: مثل: على الجميع أن يبدو الثقة بهذا، مكتوبة بأمر سامي في عام ما. – يقصد بالطبع العراق، عجمي، أي بكلمات أخرى إيران الغربية.

(٥٨) خواجه أفضل الدين محمد كرماني كان أحد وزراء السلطان حسين، من عام ١٤٧٣ لغاية ١٤٨٧، ومرة أخرى في عام ١٤٩٨، واستناداً إلى اللقب يمكن أن يكون ذلك في تشكيلة وزارته الثانية، راجع حوله: ف. ف. بارتولد "مير علي شبير (ص ١٣٦،

١٤٣، ١٥٢، ١٥٤).

(٥٩) قارن ف. ف. بارتولد: **تاريخ الحياة الثقافية لتركستان**، ص ٢٣.

(٦٠) BGA, VII, 294, 5-7.

(٦١) **تركستان في عهد الغزو المغولي**، الجزء ٢، ص ٩٧، **تاريخ ري تركستان**، ص١١١-١١٢.

(٦٢) BGA، ١، ٣٢٢، ٣٢٣، ١٠ و ١٠، ٣٢٣، ٢ و٣٧٣، ١١-١٤، كلمات ابن حوقل على ما يبدو تحص مؤسسة خيرية أسستها هذه القبيلة.

(٦٣) تاريخ ري تركستان، ص١٢٦.

(٦٤) Tria Opuscula ed, van Vioten، ص ٤٠.

(٦٥) ف. ف. بارتولد: تركستان الجزء الثاني، ص ٢٨٤، **مواد حول تاريخ التركمان وتركمانية**، المجلد ١، ص ٢٢٦ (العتبي) ٣٦٠٠٠ (ابن الأثير وحسب ما أورده أبو الحسن بيهقي (تاريخ بيهق، ص ٧٠)، كان قد قتل "في موقف كورموش، عرب، وهذا هو خالد بن نهيب من بدو السيرة من قبيلة "عجل".

(٦٦) جوفيني GMSXVI, II, 46, 13، حيث على ما يبدو يتوجب قراءتها/ مترلكاه عرب.

(٦٧) 4, BGD, 111, 301, 1.

(٦٨) Ibid, 111, 292, 9.

(٦٩) إصدار ف. ف. بارتولد: المؤلفات ٢١٦، قارن المقدمة، ص ٥.

(٧٠) القراءة مشكوك بها.

(٧١) The Imperial Gazetteer of India, V, p. 68.

(٧٢) GMS, 1, Fasc, 131 a.

(٧٣) **خانية بخارى**، الجزء الأول، ص ١٧٥.

(٧٤) 3BO,XV، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٧٥) ف. ف. وليامينوف (زيرنوف). **عملات بخارى وخيفين**، القسم الشرقي الثالث التابع للجمعية الروسية للآثار، ٤، ص ٣٥٦ و ٣٥٤ وما بعدها.

الهوية والانتماء

في بلاد الشامْ في العهد العثماني

الدكتور عبد الكريم رافق

جامعة دمشق

من المتداول في أدبياتنا القومية أن الشعور بالوعي القومي قد ظهر في القرن التاسع عشر، بفعل المؤثرات الأوروبية، ولاسيما شعارات الثورة الفرنسية وما تلاها من أفكار التحرر، في ظلّ الحكومات البرجوازية ومحاولاتها في السيطرة كقوى رأسمالية، وردود الفعل القومية والاشتراكية على ذلك. وفي حين أن هذه المؤثرات لم تكن بقليلة، إلا أن هذا الوعي القومي العربي لم يظهر من العدم بل إنه تنامى بفعل ذلك، كما أن الكتّاب الذين أسهموا في إثارة هذا الوعي، وشكّلوا دعامة عصر النهضة، لم يكونوا سوى قلّة إذا ما قورنوا بالكثرة من المثقفين العرب الذين يوصفون بالتقليديين، وهم العلماء المسلمون. فكيف نظر هؤلاء العلماء إلى هويتهم وانتمائهم في الدولة العثمانية؟ هل سايروا الدولة ووافقوها في ما أصدرته من قوانين، حتى وإن لم تتفق مع الشريعة الإسلامية؟ وهل امتنعوا عن إسداء النصح للحكّام والمطالبة بحقوقهم كممثلي أمة نشرت العدل بين الناس وأعطت الداخلين في الإسلام الحقوق نفسها التي تمتع بها أفرادها رغم سبقهم في الدين والتضحيات التي قدّموها في تثبيت دعائم الأمة؟ وما هي المواقف التي اتخذوها إزاء الظلم الذي مارسه السيئون من الولاة والكثرة من

رجال الإقطاع -وجلّهم من الأغراب- بحق الفلاحين والمدنيين على حد سواء؟ إن الوعي القومي الذي تنامى في القرن التاسع عشر ما هو إلاّ استمرار لوعي عربي أصيل والتزام بين مختلف فئات الشعب التي يجمعها على تعدد مذاهبها وأصولها، ثقافة مشتركة وتراث واحد عبر التاريخ. وكان العلماء المسلمون، إبّان الحكم العثماني، في طليعة من تمسك بهذه الهوية وهذا الانتماء العربيين.

فمن الملاحظ في العصور المعروفة في أدبياتنا أيضاً بعصور الانحطاط، حين فقد العرب زمام المبادرة في الحكم إثر سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وسيطرة المماليك المستوردين من سهوب القفقاس، في مصر والشام، واعتناقهم الإسلام، وإيقافهم المدّ المغولي، وإنهائهم بقايا الوجود الإفرنجي وصدّ غزواته الأخيرة، من الملاحظ أن هؤلاء قد انصهروا بالتدريج في الأجيال اللاحقة مع سكان البلاد، وحموها من الغزوات الخارجية، كما فعل العثمانيون الذين أعقبوهم، وتبنوا ثقافة البلاد التي عاشوا فيها ونشّطوها وشجّعوا أصحابها، وأضافوا إلى مآثرها العمرانية، ولاسيما ذات الصفة الدينية منها. وقد دفنوا في الأرض العربية التي ألجأتهم إليها ومنحهم شعبها الرئاسة. ويختلف العثمانيون عن المماليك في أنهم نقلوا عاصمة حكمهم إلى خارج الوطن العربي، ولم يزر سلاطينهم البلاد العربية بعد فتحها، باستثناء زيارة السلطان عبد العزيز مصر في عام ١٨٦٣م، كما لم يقم أحد منهم بالحج[١]، ربما بسبب مشاغلهم في الجبهة الأوروبية بالدرجة الأولى، وكانت هذه الجبهة شاغلهم الرئيس منذ نشأتهم كغزاة برّ وبحر ضدّ الإمبراطورية البيزنطية أولاً ثم الإمبراطورية الجرمانية المقدسة المرتكزة على فيينا في عهد أسرتها الحاكمة من آل هابسبورغ.

وبالرغم من تبني العثمانيين الحروف العربية في كتابتهم، إلى أن استبدل بها مصطفى كمال في عام ١٩٢٨ الحروف اللاتينية، ودفاعهم عن الأقطار العربية التي فتحوها ضد الإمبراطوريات الأوروبية إلى أن انهارت قوتهم في الحرب العالمية الأولى، وكذلك بنائهم العديد من الأبنية الدينية من جوامع وتكايا ومدارس في الأقطار العربية،

فقد استمر الإخباريون وكتّاب التراجم وغيرهم من العرب يشيرون إليهم بـــالأروام أو الروم(٢)، وهي اللفظة التي أشار بها العرب المسلمون من قبل إلى الروم البـــيزنطيين، وذلك لأن العثمانيين سكنوا المنطقة نفسها التي سكنها البيزنطيون من قبلــهم، وكـــانوا بعيدين عن العرب، لا يرى هؤلاء منهم سوى الإنكشارية في القلاع ورجال الإقطـــاع الأغراب في الأرياف، وكذلك الولاة وكبار القضاة الأحناف وجلّهم من الأروام. وترد إلى بلاد الشام، بين الفينة والأخرى، الجيوش العثمانية إما لصدّ عدوان على الحـــدود، أو القضاء على المتمردين في الداخل.

وإذا كانت المصادر العربية المعاصرة في بلاد الشام قـــد أشـــارت إلـــى العثمـــانيين بالأروام، وإلى السلطان العثماني بسلطان الروم، وإلى الحجّ العثماني بالحج الرومـــي، فإن العثمانيين قد أشاروا إلى سكان البلاد العربية بأولاد العرب. كما أن اللغة المعتمدة في المحاكم الشرعية في بلاد الشام، كما في غيرها من الأقطار العربية، كانت اللغـــة العربية، في حين أن لغة هذه المحاكم في الأناضول والبلقان كانت التركية. وإذا مـــا وردت الأوامر إلى المحاكم في البلاد العربية باللغة العثمانية عُـــهِدَ بترجمتـــها إلـــى الترجمان في المحكمة الشرعية. وقلّما انتشرت اللغة التركية بشكل كبير حتـــى بيـــن العلماء العرب. وإذا ما عرفها أحدهم سارع كتّاب التراجم إلى ذكر ذلك كأنه الاستثناء وليس الأمر الشائع. وهكذا بقيت العربية لغة القرآن الكريم، قدسيتها، واستمرت عاملاً هاماً في ثبات الهوية العربية واستمرارها.

وبالرغم من انضواء معظم الأقطار العربية تحت الحكم العثماني لما يقرب من أربعـــة قرون، وتقسيم هذه الأقطار إدارياً إلى ولايات عرفت بأسماء المدن التي جُعلت مراكز لها، فإن الكتابات العربية المعاصرة استمرت تشير إلى "بلاد الشام" كإشارتها إلى "بلاد مصر" وكذلك "العراق". كما أن هذه الكتابات استخدمت تعبير "بلاد العرب" تمييزاً لـــها عن "بلاد الروم". واستخدمت كتب التراجم الشامية كلمـــة "القســـطنطينية" (عاصمـــة بيزنطة السابقة) التي استعملها العثمانيون في الواقع على نقودهم، إلى جـــانب تعبـــير

"اسلامبول"، أي مدينة الإسلام، التي حورت فيما بعد إلى "استنبول" المؤلفة من (ستان) وتعني بلاد، كما في قولنا "عربستان"ـ أي بلاد العرب، فيما تعني (بول)، وهي من اليونانية "بوليس" أي المدينة، فتصبح الكلمة بشقيها (مدينة البلاد). وقليلاً ما أشارت الكتابات العربية في بلاد الشام إلى استنبول بأنها دار الخلافة. وحين يرد هذا التعبير فذلك لمناسبة توجه أحد العلماء إليها. كما أن الكتابات لم تشر إلى الحاكم العثماني بالخليفة بل أشارت إليه باستمرار بأنه السلطان أو ملك الروم، إلى أن أعلن السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) نفسه خليفة وتبنّى الجامعة الإسلامية لمقاومة القوميين من الأتراك والعرب، وكذلك تهديد الدول الأوروبية التي كانت تحتل آنذاك الكثير من البلدان الإسلامية العربية. ويذكر سابقاً أن السلطان العثماني قد استخدم في معاهدة كجك قاينارجه، الخاسرة مع روسية، إثر حرب ضروس بينهما دامت من عام (١٧٦٨ إلى ١٧٧٤)، وتخلت الدولة العثمانية بموجبها عن شبه جزيرة القرم التي ضمتها روسية فيما بعد إليها، استخدم لقب الخليفة ليؤكد سلطته الدينية. وكان خطيب الجمعة في حلب، في مطلع الحكم العثماني، قد أطلق على السلطان سليم الأول إثر فتحه إيّاها في صيف عام ١٥١٦، لقب حامي الحرمين الشريفين.

ويتبدّى الشعور بالهوية والانتماء بين العلماء العرب، منذ مطلع الحكم العثماني، بأدب النصيحة الذي شاع بين العثمانيين أنفسهم، حين عمد رجالات الحكم والعلماء من بينهم إلى تقديم النصائح إلى السلطان في أعقاب الهزائم والأزمات أو لتحاشي وقوعها. ولم يضنّ علماء بلاد الشام بتقديم النصيحة إلى السلطان سليم الأول نفسه، الذي هزم المماليك واستولى على بلاد الشام، ومصر (١٥١٦-١٥١٧)، وعرفت عنه الشدّة والقسوة وحين يكتب الباحثون المحدثون عن أدب النصيحة هذا فإنهم يقصرون ذلك على رجال الدولة العثمانية، غير عالمين أن علماء العرب قد توجهوا بالنصيحة إلى السلطان منذ مطلع الحكم العثماني، يحضّونه على إقامة العدل ورفع الظلم، وكان في طليعة هؤلاء الناصحين الشيخ علي بن علوان الحموي (المتوفى عام ٩٣٦هـ/

١٥٣٠م)، الشافعي، الصوفي الشاذلي، والواعظ بمدينة حماة، "ممن أجمع الناس على جلالته وتقدمه وجمعه بين العلم والعمل، وانتفع به الناس وبتآليفه في الفقه والأصول والتصوف(٣)".

وجّه ابن علوان نصيحته إلى السلطان سليم الأول العثماني إثر فتحه الشام، في الفترة بين بدء هذا الفتح في صيف عام ١٥١٦، ووفاة السلطان سليم في عام ١٥٢٠، أي حين كان السلطان سليم في أوج سلطته وانتصاراته في أعقاب هزيمته المماليك وسيطرته على بلاد الشام ومصر وانتصاره قبل ذلك على الصفويين في موقعة جالديران في صيف عام ١٥١٤. وتحمل هذه الرسالة المخطوطة عنوانين: "نصيحة الشيخ علوان إلى السلطان سليم بن عثمان" وهذه رسالة مشتملة على نصائح شريفة ومواعظ ظريفة(٤). وقد نصح ابن علوان السلطان سليماً باتباع الكتاب والسنة: قولاً وفعلاً، وشريعةً وطريقةً وحقيقةً، وإزالة المنكرات والفواحش، وإقامة حدود الله والنهي عن الخمر والميسر، وعدم التعرض للمسلمين وأخذ داوبّهم قهراً وظلماً. وخاطب السلطان يقول: "قلت انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فما نصرت الظالم ولا حجزته عن ظلمه، ولا نصرت المظلوم ولا أخذت بيده، ولا تظن أيها الملك المظفّر أن أمرك وأمر غيرك من الجيش وغيره مغيّب عن الله تعالى أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الملائكة والأولياء(٥)".

وأشار ابن علوان إلى مظلمة قاسى منها الناس، ولاسيما الفقراء منهم، بقوله: "ومن المنكرات التي يتعين إنكارها وتغييرها ما جرت به العادة إذ قدم مبشر بظفر ونصر، وأخذ بلدة وقتل عدو وغنيمة ماله، ونحو ذلك يأمر نايب البلد شيخ المحلة المسمى بالكيخيا أن يجمع من محلته مالاً ينطلق ويزيد في القطيعة ويعم بها الفقراء والمساكين ويسحبون أهل الإسلام إلى السجن بالضرب والإهانة وربما يتعذر ببعض أصحاب النايب فإن لم يدعُ المظلوم بلسانه خوفاً من نايب السلطان وغيرهما دعا كل منهم بسرّه وقلبه الذي هو محل نظر ربه عزّ وجلّ القايل إن الله لا يخفى عليه شيء،

وقال تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ومن المعلوم الواضح للخاص والعام أن دعوة المظلوم ترفع فوق الغمام فيقول الله تعالى لصاحبها وعزتي وجلالي لأستجيبن لك ولو بعد حين[٦]".

وتتبدى أهمية نصائح الشيخ علوان ليس فقط في وصفها المساوئ الاجتماعية والسياسية التي حلّت بالمجتمع العربي الشامي آنذاك، وإنما بدلالتها على فرض العلماء العرب نفوذهم، ودفاعهم عن المظلومين، منذ السنوات الأولى للحكم العثماني، حين كانت الدولة في ذروة نفوذها، وسلاطينها في أوج قوتهم.

وانتصر علماء العرب في بلاد الشام لتطبيق الشريعة الإسلامية، والتقاليد الإسلامية المتعارف عليها، حين تعارضت هذه مع القوانين السائدة التي طبقتها الدولة. واشتدت نقمتهم بخاصة ضد رسوم الزواج التي طبقها العثمانيون وأدخلوها في قوانينهم، تحت اسم "رسم عروس"، واختلفت نسبتها بين زواج العذراء أو الثيب، والهدف منها إيجاد موارد للمحكمة الشرعية والموظفين فيها. ويرأس هؤلاء في مركز الولاية قاضي القضاة وكان باستمرار غالباً من الأروام (الأتراك العثمانيين) وليس من أبناء البلد. ولم تكن هناك رسوم ثابتة للزواج تدفع للمحكمة وفق معايير معينة قبل ذلك، بل تقاضى العالم العاقد للزواج مبلغاً يتفق وأوضاع المتعاقدين، والهدف من ذلك تيسير الزواج وليس تعسيره. ويقول الإخباري المعاصر شمس الدين محمد بن طولون في أخبار شهر شعبان من عام ٩٢٢هـ/ آب - أيلول ١٥١٦م، "ثم جاء قاضي حنفي من قبل ملك الروم، وهو علي بن زين العابدين الغزي، ثم حصر الشهود في ثمانية في جميع البلاد وألزمهم أن لا يشهدوا إلا ببابه بدرهم معين، وهو على الورقة غير ورقة العقد، خمسة وعشرون درهماً، منها عشرون له، ودرهم للنائب الذي يحمل الورقة، وأربعة للشهود، ثم زادوا ذلك درهماً للمحضر، وعلى ورقة العقد إن كانت بكراً مائة وإن كانت ثيباً خمسة وسبعون، وما زاد على الخمسة والعشرين يكون للصوباشي (مدير الشرطة)[٧]. ويذكر ابن طولون في مكان آخر أن القاضي الرومي زين العابدين حصر

الشهود بهؤلاء الثمانية" ومنع غيرهم من شهود البلد من الشهادة وعقود الأنكحة، وتضررت شهود البلد بذلك تضرراً زائداً، وهم ماشون على اليسى (القانون العثماني)، وهو على كل مستند خمسة وعشرون درهماً، ودرهم للمحضر(٨).

ومما يدل على الاستقلالية في الرأي بين علماء الشام، وانتقاداتهم السلطة الحاكمة لا الرضوخ لها، احتجاج عدد منهم على فرض رسوم الزواج هذه، وكان أشدهم احتجاجاً الشيخ علي بن محمد المقدسي (المتوفى عام ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م)، وهو قدسي الأصل، دمشقي الموطن، ومفتٍ للشافعية. ويصف نجم الدين الغزّي ردّ فعل هذا العالم بأنه: تمنى الموت لفتنة حصلت في الدين لما دخلت هذه الدولة العثمانية وضربت المكوس علي الأحكام الشرعية حتى على فروج النساء، وكان يقول أي فتنة أعظم من ذلك، قال: وأخبرني أنه تنخع الدم وإنه من كبده لما لحقه من القهر والغيرة على دين الإسلام وتغيير الأحكام(٩).

وباستمرار الرسوم استمر العلماء يعارضونها، ومن هؤلاء الشيخ يونس بن العيثاوي (المتوفى عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨-١٥٧٩م)، والذي وصف بأنه "خطيب المسلمين في دمشق، وكان يتعاطى صناعة الشهادة فيها". ويذكر نجم الدين الغزّي أنه "لما كانت الدولة التركية، وكان قضاة دمشق لا يكونون إلا من الروم، وكان كثير منهم ينهى عن كتابة عقود الأنكحة في غير المحاكم"، قال الشيخ يونس لقاضي القضاة الرومي: "يا مولانا فما هذا التحريج على الناس أن لا يكتب نكاح إلا في المحاكم، قال يا شيخ ينقص من محصولنا، قال يا مولانا ما نقص من ذلك خير مما زاد(١٠)".

وفاقت معارضة علماء الأزهر في مصر رسوم الزواج معارضة أسميائهم في الشام. ويذكر إخباري مصر المعاصر محمد بن إياس أن علماء الأزهر الذين نعتوا هذه الرسوم المعروفة بـ "اليسى العثماني" بأنها "أليسى الكفر" قد أعلنوا الإضراب

احتجاجاً، ونتج عن ذلك كما يقول ابن إياس، أن امتنع الزواج والطلاق في الأيام وبطلت سنة النكاح والأمر لله في ذلك[١١].

ولم تكن رسوم الزواج بحدّ ذاتها غير محتملة عند جميع السكان، لأن نسبتها لم تتجاوز ٣% من وسطي مهر الزواج الشائع آنذاك[١٢]، ولكن العلماء، كما الشعب، اعتبروها بدعة فرضها الحكّام لزيادة الدخل، وهو ما يتعارض مع ما درج عليه العرب المسلمون في السابق من تيسير الزواج وتسهيل نفقاته. كما أن العلماء، باحتجاجهم هذا، كانوا يؤكدون مصلحتهم وكذلك تراثهم الإسلامي أمام قسوة القوانين التي فرضتها الدولة عليهم.

وثمة مواجهة أخرى حدثت بين الشريعة والقانون تتعلق بالفائدة على الديون التي حرّمتها الشريعة في حين اعتمدتها الدولة وطبقتها في المحاكم الشرعية في الأناضول وروميلية بقوة القانون. وربما كان للدولة مسوّغاتها الاقتصادية من وراء ذلك، كما أن الفائدة كانت متجذّرة في المنطقة التي احتلها العثمانيون في الأناضول وروميلية منذ أيام الحكم البيزنطي، كما هي شائعة في أواسط آسية من حيث أتى العثمانيون، وعندما جاءت الأوامر السلطانية العثمانية إلى المحاكم الشرعية في بلاد الشام باعتماد الفائدة طبقتها هذه المحاكم كما وردت في السجلات الشرعية، واعتمدها القاضي، ولكنه ذكر أنه فعل ذلك امتثالاً للأمر السلطاني، وبذلك نفى عن نفسه المسؤولية المباشرة لها. ويوضح ذلك المثال التالي من محكمة حلب الشرعية بتاريخ ٢ محرم ٩٩٤هـ/ ٢٤ كانون الأول ١٥٨٥م:

"أقرّ في مجلس الشرع الشريف جمعة بن محمد الشهير بابن باشي من قرية "بالا تابعة جبل سمعان بأن في ذمته أصالة عن نفسه وكفالة عن ذمة ابن خاله محمد بن شعيب من القرية المذكورة، لحامل هذا الكتاب سيدي عمر بن العوفي مبلغاً قدره مائة وستة وعشرون ديناراً من ثمن حنطة وشعير ودين شرعي بعد كل حساب جرى بينهما

شرعاً، فالدين من ذلك هو على حكم العشرة بأحد عشر ونصف بموجب الأمر الشريف السلطاني، وهذا المبلغ مؤجل إلى ثمانية أشهر من يوم تاريخه، وإنه رهن عنده بمقابلة ذلك جميع حصته التي قدرها نصف فدّان فلاحة متفرقة بأراضي القرية المذكورة المستغنية عن التحديد للعلم بها شرعاً رهناً مستوفياً شرايطه الواجبة شرعاً إقراراً مصدّقاً من المقر له المذكور تصديقاً وجاهاً وشفاهاً وحكم بموجبه مسؤولاً فيه تحريراً في اليوم الثاني من شهر محرّم الحرام سنة ٩٤٤".

شهود الحال: السيد مصطفى بن الزنابيلي، السيد منصور بن السيد ناصر الدين، الشيخ عبد الرحمن البكفالوني، جوسق منصور بن شاة قولي ويوسف جلبي كاتب الخدمة وغيرهم[١٣].

وننشر في ما يلي صورة لهذه الوثيقة:

لم يذكر سجّل المحكمة مقدار الفائدة صراحة في هذه القضية، ولكنها بلغت خمسة عشر بالمائة. وقد حاول القاضي أن يحمل مسؤوليتها إلى السلطان العثماني الذي أصدر أمره بتطبيقها، وبذلك نفى القاضي عنه شخصياً وعن محكمته العربية أية مسؤولية عن خرق الشريعة. ونستشّف من ذلك حرصاً عربياً على التراث العربي الإسلامي الذيّ رفض الفائدة في التعامل المالي وشجّع القرض الذي كان وما زال يوصف بالقرض الحسن، لأنه لا فائدة عليه، ولا مدة زمنية لتأديته، ولا رهن

لضمانته، وإنما قُصد منه عمل الخير والمساعدة في حلّ أزمة ماليــة لشـخص فــي ضيق(١٤).

وبالرغم من التماثل الديني بين علماء دمشق والدولة العثمانية فقد التزم هؤلاء بهويتهم وفهمهم لمبادئ الشريعة، وهم المؤتمنون على تطبيقها ورعايتـــها عــبر العصــور، وجابهوا الدولة وقوانينها حين أخلّت هذه القوانين بمبادئ الشريعة القائمة على العــدل. ويتجلّى ذلك في تصدّي علماء الشام للقوانين الإقطاعية التي ألحقت الظلم بـــالفلاحين لحساب رجال الإقطاع العثمانيين من السباهية الفرسان الذين روّعوا الأرياف وأساؤوا إلى أهلها. وقد عهدت الدولة بالأراضي الزراعية العائدة إليها، وتعــرف بــالأراضي الأميرية (تختصر إلى ميرية)، إلى هؤلاء السباهية من الجنود الفرسان كإقطاعيات لهم يعيشون من وارداتها، ويجندون أنفسهم وآخرين لخدمة الدولة بحسب واردات الإقطاع الذي قد يكون تيماراً، أي أن وارده السنوي لا يتجاوز عشرين ألف أقجة (وحدة فضية عثمانية)، أو زعامة، وهو ما تجاوز ذلك. وعمد هؤلاء العسكريون الإقطاعيون إلــى إرهاق الفلاحين بمطالبهم، وفرض الضرائب الجماعية عليــهم، وإســاءة معاملتــهم، وتقييدهم بالقيود، وزجهم في سجونهم، كما وصفت ذلك مئات القضايا والشكاوى فــي سجلات المحاكم الشرعية في بلاد الشام.

وقد وصف الأستاذ خليل إينــالجك فــي كتابــه المشــهور بالإنكليزيــة وعنوانــه: "الإمبراطورية العثمانية" العصر الكلاسيكي، ١٣٠٠-١٦٠٠(١٥)"، مظـــالم الســباهية هؤلاء وترويعهم الفلاحين في أرياف الدولة العثمانية ككل. وقد عانى الفلاحون، كمـــا يقول أينالجك، من بطش السباهية، وفرضهم الضرائب والأتـــاوات الزائــدة وغــير الشرعية عليهم، ما اضطر الفلاحين إلى الهرب والالتجاء في الغالب إلــى ضواحــي المدن. وكان بإمكان السباهي، بموجب القانون الإقطاعي، أن يعيد الفلاح الهارب إلــى قريته، عن طريق القضاء، حتى ولو بلغ غيابه خمسة عشر عاماً، وذلك إذا لم يتوفــر

للسباهي فلاح آخر يحلّ محلّ الهارب، ويسهم في دفع الضرائب الجماعية، كما أنه كان على زملاء الفلاح الهارب أن يدفعوا ضرائبه للسباهي.

كان ردّ الفلاحين على المظالم التي لحقت بهم إما التحوّل إلى قطع الطرق ومهاجمة رجال الدولة، أو هجرة قراهم، كما فعلت غالبيتهم، واللجوء إلى المدن حيث شكّلوا طبقة فقيرة مقتلعة الجذور وجاهزة لتأييد كل منشق عن السلطة. وقد حدث مثل ذلك حين أيّدت هذه الجموع يحيى الكركي، الذي اتّهم بالزندقة. وكان يحيى هذا من كرك الشوبك في منطقة البلقاء، وقد سافر إلى مصر في طلب العلم، وله مراسلات مع علماء الشام، ثم قدم إلى دمشق وسكن محلّة القبيبات (جنوبي الميدان)[١٦]، واجتمع بعوام هوام لا يفرقون بين الصحيح والمعتل ولا يميزون بين المنتظم والمختل، وشرع يكتب أوراقاً مشتملة على عبارات فاسدة التركيب، واتهمه العلماء بالزندقة، وأعدم في عام ١٠١٨هـ/١٦١٠م[١٧]. وكان معظم أتباعه من المظلومين والهامشيين الذين كانوا على استعداد لتأييد من يقودهم أملاً بتحسن أحوالهم.

وإزاء المظالم التي ألحقها رجال الإقطاع من السباهية بالفلاحين، بموجب القوانين الإقطاعية، نهض كبار العلماء المسلمين في دمشق وغيرها يدافعون عن الفلاحين ويصدرون الفتاوى المؤيدة هجرتهم أوطانهم اتقاء للظلم. وقد واسوهم بأن لهم قدوة برسول الله الذي هاجر من مكة إلى المدينة ليقي نفسه وأتباعه من ظلم الأعداء. وبلغ الأمر بالعلماء أن حثّوا الفلاحين على قتل ظالميهم دون أن يخشوا عقاباً في الدنيا أو الآخرة.

وقد أباح المفتي الدمشقي تقي الدين الحصني للمضطهدين من الفلاحين هجرة أوطانهم رغم الداعي للإقامة من حب الوطن، كما قال: وأضاف: "وما يخرج الإنسان من بلدته التي هي أصل وطنه إلا لأمر عظيم...كي ينجو من العذاب إذ محبة الوطن مستولية على الطباع". ووصف العلماء ما يقوم به السباهية من الظلم بأنه يدل على الاستهزاء

بالشريعة المطهرة المحمدية، وأكدوا أن الأوامر السلطانية إنما تنفذ إذا وافقت الشرع الشريف وإلا فلا.

كما أنهم شجبوا ما قام به بعض القضاة الواقعين تحت نفوذ السباهية من الحكم بإعادة الفلاحين الهاربين من الظلم إلى قراهم، وبيّنوا أن أمر القاضي لا ينفذ إلا إذا وافق الشرع، وكرروا أن الأوامر السلطانية المخالفة للشريعة المحمدية غير نافذة شرعاً وحكم القاضي بموجبها غير نافذ، وقال العلماء عن دفاتر الإقطاع "لا اعتبار للدفاتر الديوانية المخالفة لمقتضى الشرع الشريف. وقد جمعت آراء وفتاوى العلماء هؤلاء نصرة الفلاحين ضد ظالميهم في مؤلف خاص لصاحبه يس (ياسين) الفرضي بن مصطفى الحنفي، وعنوانه "كتاب نصرة الفلاحين عن الأوطان على الظلمة وأهل العدوان[١٨]".

كما ألف الشيخ عبد الغني النابلسي (١٠٥٠-١١٤٣هـ/ ١٦٤١-١٧٣١م)، مفتي الحنفية في دمشق، وكبير متصوفيها، وصاحب الثلاثمائة مؤلّف ونيف، رسالة يدعم فيها الفلاحين ضد ظالميهم من رجال الإقطاع، ويؤيدهم في هجرتهم ضماناً لسلامتهم، وعنوانها: "تخيير العباد في سكنى البلاد". يقول النابلسي في رسالته -الفتوى هذه: "فأمّا إجبار الإنسان على السكنى في مكان مخصوص، وإلزامه بذلك بطريق الإقهار له، والتغلب عليه، فهو ظلم وتعدٍّ، يجب كفّه عن الرجل المسلم، ومنع الظالم به وردعه وزجره، وجوباً متأكداً على المسلمين، خصوصاً الحكّام. ومن له قدرة على ذلك، بالقدر الممكن، من نصيحة، أو تعنيف بالكلام، إلى غير ذلك من قبيل إزالة المنكر، والنهي عنه، الواجب على العام والخاص. وينقل النابلسي عن فقيه الحنفية في البلاد القدسية، الشيخ خير الدين الرملي، في فتاواه الخيرية (الفتاوى الخيرية لنفع البرية) قوله: "سئل في جماعة خلوا من بلدهم مما عليهم في الكلف والأذى والظلم والبلاء، واستوطنوا بلداً غيره، ومكثوا فيه مدة سنين، والآن اتبعهم رجل ولاه السلطان قساماً على بلدهم الأصلي، ليأخذ مما يتحصل من قسم سنين، أرضه نظير عطائه في

الديوان، يسمى سباهياً، يريد جبرهم على العودة إلى ذلك الوطن، إلاّ أن يدفعوا له دراهماً يسميها "كسر الفدان" (أي تعويضاً)، فهل يجبرون على ذلك؟ والحال أنهم تأهلوا في الوطن الثاني، ورزقوا به أولاداً، وتوسعوا به، بحيث أن بعضهم لا يعرف حرفة الفلاحة رأساً، بل منهم الحلاج والمكاري والتاجر وغيره. أو لا يجبرون؟ أيكون تكليفهم بأحد هذين الأمرين ظلماً وشيناً في الدين، وشناعة لا يجوز فعلها؟ فكيف يكون الحال؟.

أجاب: "تكليفهم بذلك ظلم وشين في الدين، وشناعة لا يجوز فعلها بين أظهر المسلمين، فإن المؤمن أمير نفسه، فله الإقامة في أي بلد شاء".

ويؤكد النابلسي أن: خروج أهل القرى من قراهم وتركهم مساكنهم وأملاكهم بسبب الجور والظلم الزائد عليهم، وعدم تحميلهم ذلك لضعف قدرتهم عليه، بحيث لا يمكنهم عبادة الله تعالى، بتحريم الحرام وتحليل الحلال، من فسق الظلمة وعدوانهم عليهم وطلبهم منهم ما لا يرضى به الله تعالى، فإن الذي تفعله أهل القرى من الخروج عن قراهم أمر يثابون عليه..."[١٩].

لقد وضعت هذه المظالم ولاء العلماء في الشام على المحك فآثروا الانتصار للمظلومين من أبناء وطنهم على الظالمين من رجال الإقطاع، ومعظمهم من الأغراب، وأيدوا هجرة الفلاحين قراهم التي وصفوها بأنها أوطانهم. وطغت في كتابات العلماء وفتاواهم مدلولات الوطن وتمسك الإنسان بوطنه، وعدم رغبته في هجرته إلاّ لسبب عظيم. وأجمعوا على أن الداعي للإقامة هو حب الوطن.

وإذا كان حب الوطن قد طغى في كتابات العلماء فإن أحدهم، نجم الدين الغزي، قد آلمه ما أصبحت عليه الأمة من تأخر آنذاك، ويعد بذلك في طليعة المفكرين العرب في بلاد الشام في العصر الحديث الذين تنبهوا إلى وضع الأمة السيئ في وقت مبكر. كان الشيخ محمد نجم الدين أبو المكارم الغزي (٩٧٧-١٠٦١هـ/ ١٥٧٠-١٦٥١م)، الذي

نزح جدّه الأكبر من غزة إلى دمشق، مفتياً للشافعية في دمشق وصاحب كتاب التراجم "الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، وذيله لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر"(٢٠). وقد هاله ما أصاب الأمة في عهده من تأخر، والمرجح أنه كان يقصد أمته العربية الإسلامية آنذاك لأن الدولة العثمانية كانت ما تزال ترزح في فترة الأوج. ولبيان الحكم من هذا التأخر وضع الغزي مؤلفاً من سبعة مجلدات أسماه "حسن التنبه لما ورد في التشبه"(٢١).

كانت بلاد الشام في الفترة التي كتب فيها الغزي كتابه هذا، في النصف الأول من القرن السابع عشر، يعصف بها تمرّد الجند العثماني، من الإنكشارية ورجال الإقطاع، في مراكز المدن كما في الأرياف، يروعون الأهلين بمتطلباتهم المالية وجورهم. ومما أدى إلى هذا الوضع ما أصاب العملة الفضية العثمانية، وهي الأقجة، من انهيار في قيمتها في أعقاب تدفق الفضة من العالم الجديد -أمريكة- عبر إسبانية، في عهد ملكها فيليب الثاني، ومنها إلى الدولة العثمانية وولاياتها العربية. فعمد الجند العثماني، وبخاصة منهم أصحاب المرتبات، إلى فرض ضرائب إضافية على الأهلين للتعويض عن تدني القيمة الشرائية لمرتباتهم. وحين حاولت الدولة منعهم من ذلك ثاروا عليها. وحدثت ثورات العساكر هذه أولاً في اليمن، بدءاً من ستينيات القرن السادس عشر، وقد استغلها الأئمة الزيديون فيها وأعلنوا استقلالهم عن الدولة العثمانية في عام ١٦٣٥. وكانت ثورات العساكر في مصر، في الفترة بين عامي (١٥٨٩-١٦٠٩م)، أكثر عنفاً لأن المماليك المتربصين بالعثمانيين، استغلوا تلك الضائقة الاقتصادية، فثاروا على الدولة وأعلنوا سلطاناً من بينهم إلى أن قضت الدولة عليهم.

وفي العراق أدت ثورة قائد الشرطة بكر الصوباشي إلى تدخل الصفويين واحتلالهم بغداد في الفترة بين (١٦٢٣-١٦٣٩م)، إلى أن استرجع السلطان العثماني مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠)، سلطته عليها. وفي بلاد الشام نفسها عاث العساكر الأغراب في

الأرياف يثقلون الفلاحين بالضرائب غير القانونية للتعويض عن انهيار قيمة مرتباتهم وعمدت الدولة إلى البطش بهم إفرادياً(٢٢).

وعاصرت الدولة ثورات العساكر في بلاد الشام، منذ أواخر القرن السادس عشر وحتى حوالي منتصف القرن السابع عشر، ثورات الأمراء المحليين، مثل علي باشا جانبلاط في حلب الذي استقل بحكمها عملياً في العقد الأول من القرن السابع عشر، وثورة فخر الدين المعني الثاني أمير جبل الشوف الذي ثار على الدولة العثمانية وهزم والي دمشق العثماني ووسع حكمه من الشوف ليشمل البقاع والساحل حتى طرابلس، وكذلك شمالي فلسطين، إلى أن قضى عليه السلطان مراد الرابع في عام ١٦٣٥(٢٣).

وفي داخل المدن حدثت اضطرابات اجتماعية كتلك التي بدأت في القبيبات وحي الميدان في الضاحية الجنوبية لدمشق، واستغلها يحيى الكركي، لتحدي السلطات الدينية والمدنية مستفيداً من دعم الفقراء والأغراب اللاجئين إلى دمشق، فاتهم بالزندقة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقتل في عام ١٦١٠. وقد أدت الأزمة الاقتصادية آنذاك، وانهيار قيمة العملة، وجشع التجار والحكام، إلى ارتفاع الأسعار. ويضيف إخباري دمشق المعاصر شرف الدين بن موسى الأنصاري في مؤلفه "نزهة المخاطر وبهجة الناظر"(٢٤)، غلاء الحبوب وازدحام الناس على الأفران(٢٥).

هال مفتي دمشق نجم الدين الغزي ما شهده بنفسه من اضطراب اجتماعي واقتصادي وسياسي أصاب أمته العربية الإسلامية من حوله، في وقت كانت الدولة العثمانية تستعيد فيه المبادرة للقضاء على الثائرين في عهد السلطان مراد الرابع، فتساءل عن أسباب تأخر "هذه الأمة"، وخرج بنتائج أخلاقية قوامها العودة إلى ماضي الأمة والتشبه بالمحسنين من أبنائها. وما لا شك فيه أن هذا العالم -المفكر كان يعكس أفكار العديد من العلماء وقطاعات الشعب الذين عبّر باسمهم عن التأخر الذي كانت تعاني منه الأمة وعن الدواء الأخلاقي الذي ليس بإمكانهم وصف غيره.

يقول الغزي إنه جعل كتابه هذا في قسمين، بين فاتحة وخاتمة، القسم الأول خصّه بمن ورد الأمر بالتشبّه بهم والاقتداء بهداهم وهديتهم، والقسم الثاني فيمن ورد النهي عن التشبّه بهم واتباع طرقهم. ويعبّر الغزي في المقدمة عن قصده بالتشبّه والغاية التي يهدف إليها من كتابه، فيقول: "إن التشبه عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبه به وعلى هيئته وحلّته، ونعته وصفته"[٢٦].

وفي باب خاص، في مطلع الكتاب، يلخص الغزي سبب تأليف كتابه والهدف الذي يرمي إليه منه بقوله: "باب بيان الحكم الظاهرة في تأخير هذه الأمة التي منها فضل تشبّههم بالصالحين من الأمم الماضية. وتجنبهم عن قبايح الطالحين منهم ذوي التيجان". ويقول أيضاً: "اعلم أن تأخر هذه الأمة عن سائر الأمم إنما لحكم كثيرة يظهر منها أن تأخيرهم عين تقديمهم وتفضيلهم وأن الله تعالى لم يرد بتأخيرهم في الزمان إلا تزكيتهم وتكريمهم[٢٧]". ويقول في مكان آخر: "ومن الحكم واللطايف في تأخير هذه الأمة أيضاً أن الله تعالى سترهم ولم يفضحهم على أمة بعدهم كما فضح عليهم من تقدمهم من الأمم وكشف لهم أحوالهم[٢٨]". وفي انكفاء وقبول بالأمر الواقع، يقول الغزي: "فأراد الله أن يجعل الراحة لهذه الأمة من الدنيا وأكدارها بقصر آجالها وأعمارها"، ولكنه يستدرك وكأنه واثق من تجاوز المحنة، فيتابع قائلاً: "ثم إنه تعالى ضاعف لهم الأعمال والأجور واختصهم بخصائص تلحقهم في الزمن اليسير بمن سلف من أهل الجدّ والتشمير[٢٩]". ويلخص الغزي قصده من هذا الباب بقوله: "وهو مقصودنا من ذكر هذا الباب في هذا الكتاب إن هذه الأمة حيث تأخرت أمامهم، وانكشفت لهم علوم الأمم المتقدمة وأخبارهم وسنن الأنبياء السالفة وأحوالهم، واستبان لهم الفرق بين أحوال المؤمنين والمقربين وأحوال الكافرين والمبعدين، (وما أعلى الله تعالى للطايفة الأولى من الجزاء الحسن، وما أعدّه للطايفة الأخرى من الجزاء السوء والعقاب الوبيل، لا جرم انبعثت قلوبهم، وتحركت أرواحهم، وانشرحت صدورهم،

واطمأنت نفوسهم للتشبه بأولئك، وانقبضت وقعدت وضاقت وأنفت من التشبه بهؤلاء"[٣٠].

وفي مجال حثّه على التشبه بالصالحين من الأمم الماضية، يقول الغزي: "فإذا عملنا معشر الأمة المحمدية بأعمال الأولين فقد تضاعفت أجور الأولين بسبب عملنا بأعمالهم لأن من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من يعمل بها"[٣١].

ويخلص الغزي إلى القول في مقدمة كتابه: "وأما إذا امتنعت هذه الأمة عن التشبه بالكفار والفسقة من الأمم المتقدمة فإنهم يستفيدون من ذلك فوائد أيضاً منها ثواب امتناعهم عن تلك الأفعال والأحوال القبيحة، واستبشاعهم لها وتنكبهم عنها وتجنبهم منها، وظفرهم بفضيلة بغض هؤلاء المبغضين الممقوتين في الله تعالى إذ لا يتحقق بغضهم لهم إلا بتجنب أحوالهم واتقاء أعمالهم، كما لا يتحقق حب الصالحين إلا بالتخلق بأخلاقهم[٣٢].

لم يكن المفتي نجم الدين الغزي الوحيد بين علماء المسلمين في بلاد الشام آنذاك الذين هالهم تأخر الأمة" فحاولوا أن يصفوا لها الدواء بالتشبه بالمحسنين من الأمم الماضية؛ فقد جاراه، ونقل عنه، وذهب إلى أبعد منه، مفتي دمشق الحنفي وكبير علمائها ومتصوفيها الشيخ عبد الغني النابلسي (١٦٤١-١٧٣١)، الذي شغل باله هو الآخر وضع الأمة آنذاك. وقد عبّر عن ذلك في مؤلف له عنوانه: "هذا كتاب القول السديد في جواز خلف الوعيد والرد على الرومي الجاهل العنيد، وقد انتهى من كتابته في ٢٦ ذي الحجة ١١٠٣/ ٨ أيلول ١٦٩٢م[٣٣]، وفيه يتهم النابلسي عالماً رومياً لا يذكر اسمه، بالجهل والعناد لأنه اتهم العرب بالكفر، وهاجم تعاليم شيخه الأكبر الشيخ محي الدين بن عربي. وقد كتب النابلسي مؤلفه لتبرئة العرب عامة وابن عربي خاصة من التهم التي قذفهم بها العالم الرومي. وتحمل نسخة أخرى لهذا المؤلف من التاريخ نفسه عنواناً أكثر التصاقاً بالموضوع وهو : الرد على من تكلم على ابن عربي[٣٤]، كما

يرد لها عنوان آخر هو الرد على الطاعن في العرب وفي فضل العرب". وكان النابلسي، قبل عشرين عاماً من كتابة مؤلفه هذا، وقد وضع مؤلفاً أكثر تفضيلاً في ١ جمادى الأولى ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م، عنوانه: "هذا كتاب الرد المتين على منتقض العارف محي الدين"[٣٥].

والنابلسي في رده على العالم الرومي، يصفه بأنه عجمي، ويذكره أن العرب كانوا سادة العجم والروم، وهم الذين أدخلوا العجم والروم في الإسلام. ويستشهد عبد الغني النابلسي، في بداية مخطوطه، بمؤلف نجم الدين الغزي إذ يقول: "ومعلوم أن العرب أفضل من غيرهم قال الشيخ الإمام خاتمة المحدثين بدمشق الشام الشيخ نجم الدين الغزي العامري رحمه الله تعالى في كتابه الذي سماه "حسن التنبه لما ورد في التشبه في باب النهي عن التشبه بالأعاجم وفضل العرب، لا ينكر ويدل عليه العقل والنقل"[٣٦]. وقد ذهب النابلسي إلى أبعد مما قاله الغزي في فضل العرب بقوله: "في الحديث أن لا فضل لعربي على أعجمي ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى"، نعم استوى الناس في التقوى قدّم العربي على غيره لحديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.."[٣٧]. ويؤكد النابلسي أن أولوية العرب في الإسلام تعود إلى دورهم الرائد فيه، وإلى استخدامهم المحاججة العقلية، وإلى براعتهم باللغة العربية. واستشهده بالحديث الشريف: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبوا العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي"[٣٨].

إن اعتداد النابلسي بدور العرب وبهويته العربية يعكس دون شك ما كان يشعر به غيره من العلماء، مثل نجم الدين الغزي، كما أنه لا بد من أن يلقى القبول لدى أتباع النابلسي من المتصوفة وغيرهم من طبقات الشعب.

وقد أبدى النابلسي في مؤلفه هذا الكثير من التسامح تجاه أتباع المذاهب غير الإسلامية الذين يعيشون بجواره، ويتكلمون لغته، ويشاركونه في التراث، ويشاطرونه أفراح

الحياة وأتراحها، وهو ما ينسجم مع إعتداده بالعرب. وقد حمل على العالم الرومي لعدم فهمه الشريعة وسماحتها، حين أصر على أن غير المسلمين سيذهبون إلى النار. وردّ النابلسي، ملتزماً برأي شيخه محي الدين بن عربي، أن الله قد وعد المسلمين بالجنة وتوعّد غير المسلمين بالنار، وأن الوعيد يمكن أن يلغى لأن هؤلاء يدفعون الجزية مما يفيد المسلمين، كما أن من صفات الله الكرم والمسامحة، ولهذا يمكن لغير المسلمين أن يذهبوا، كالمسلمين إلى الجنة، وهذا ما أعلنه النابلسي في عنوان مؤلفه حين قال بجواز خلف الوعيد نظراً لأهمية ذلك ولتخطئة العالم الرومي. ويرى النابلسي "جواز خلف الوعيد في مذهب أهل السنة والجماعة، ويضيف "يجوز خلفه لأن خلفه من الكرم والكرم من صفات الكمال في حق الله تعالى"، ويذهب النابلسي إلى حد القول: إن أهل الكتاب" وأن لم يعطوا الجزية فإنه يجوز أن الله تعالى يعفو عنهم ويدخلهم الجنة ولا شك أن العفو عنهم سعادة لهم وذلك جائز منه تعالى وليس بمستحيل عليه سبحانه(٣٩).

ويعكس النابلسي في مؤلفه هذا أفكار التحرر والعقلانية في تفسير الشريعة، كما يؤكد التسامح العربي الإسلامي تجاه العرب غير المسلمين. وقد عاش النابلسي هذا التسامح ومارسه في رحلاته إلى فلسطين حيث زار الأماكن الدينية للمسلمين وغير المسلمين. وفي زيارته إلى بيت لحم، من أعمال القدس، يوم الأحد الموافق ٩ ربيع الأول ١١٠٥هـ/ ٨ تشرين الثاني ١٦٠٣م، يذكر النابلسي: "وزرنا هناك في تلك الكنيسة مولد عيسى عليه السلام وموضع النخلة والمهد، تبركاً بآثار النبي المعصوم وتيمناً بذلك العهد. ولله درّ الشهاب الخفاجي حيث لم يزل للرقة واللطافة يناجي، وهو في ديوانه المشهور، الذي هو بالفصاحة معمور، وبالبلاغة مغمور، فقال(٤٠):

أرى البيت المقدّس صار قلبي	وما حرم حواه غير جسمي
فأشرق ربنا مشكاة نور	بلا نار به ليزبل وهمي
وروح القدس فيه له قرار	ومولده به في بيت لحم

ويتابع النابلسي قوله: "وقد أضافنا بعض الرهبان بما تيسر من الزاد نحن ومن معنا من الأخوان، وأسمعونا فيه صوت الأرغلا، فكأنهم استنطقوا شحروراً وهزاراً وبلبلاً وما أحسن في هذا المقام تشريف لساني بما أنشده جناب العارف الكامل عفيف الدين التلمساني، قدّس الله سرّه، وأعظم في الدواوين شعره، حيث قال:

بتنا يغنينا الهزار الذي يطرب باللحن إذا ما تلا

ويجمع الأنغام في صوته كأنما يستنطق الأرغلا

وقد بلغ النابلسي في هذا الإعجاب باستضافة الرهبان له وسروره بموسيقاهم حداً بعيداً في التسامح الديني.

وقد تلاقت أفكار الشيخ عبد الغني النابلسي في شعوره بهويته العربية، وتفسيره المتسامح للشريعة الإسلامية، وتعايشه مع غير المسلمين العرب، مع أفكار معاصر له من رجال الدين المسيحي في دمشق، وهو الخوري ميخائيل بريك، الذي وضع تاريخاً للشام بين عامي ١٧٢٠ و ١٧٨٢(٤١). يقول بريك في مقدمة كتابه: إنه بدأ تاريخه للشام من عام ١٧٢٠ لثلاثة أسباب، أول وعيه على الدنيا، ولأنه في هذا الزمان ظهر، طايفة بيت العظم، وزراء وحكّام في دمشق وغيرها (ويصفهم بعد ذلك أنهم من أولاد العرب) ولأنه في هذا الزمان ظهر بين النصارى مذهب الكاثوليكية(٤٢).

لقد أعطى بريك الأولوية لظهور الحكام من آل العظم على انتشار الكاثوليكية رغم أهمية هذا الحدث، لأن الكاثوليكية كانت تستقطب اتباعها من كنيستَه الأرثوذكسية ودلّل بذلك على اعتداده بالحكام من آل العظم كونهم من أولاد العرب، وقد طبقوا التسامح الديني أثناء حكمهم، وصار للمسيحيين في عهد أسعد باشا العظم والي الشام (١٧٤٣-١٧٥٧)، كما يقول بريك: "عزّ وجاه وسيط وسطوة وذكر"(٤٣). ويبدو أن بريك قد تنبه إلى أهمية بروز أولاد العرب آنذاك حين ترتسم في عام ١٧٢٤ على

الكرسي الأنطاكي في دمشق البطريرك كيرلس، الذي اعتنق الكاثوليكية وكان عربياً، ويصفه برْيك بأنه أول من ارتسم من أولاد العربيين"(٤٤)، خلافاً للبطاركة السابقين واللاحقين الذين كان اليونانيون يعيّنوهم، واستمر تعيين هؤلاء إلى أن تعربت البطريركية الأنطاكية الأرثوذكسية في دمشق في أواخر القرن التاسع عشر.

واستمر اعتداد الخوري ميخائيل بريك بتسلم أولاد العرب مناصب الحكم، فوصف حسين باشا بن مكي الذي خلف أسعد باشا العظم في الحكم، وأصله من غزة، بأنه: "من ثاني طائفة من أولاد العرب الذين أصبحوا وزراء في بلادنا"(٤٥).

وكما اعتدّ العلماء المسلمون في بلاد الشام بانتمائهم العربي، وشجب الشيخ علي بن علوان الحموي ظلم الحكام، وقلق المفتي نجم الدين الغزي على أوضاع التأخر التي كانت تعاني منها الأمة، وانتصر الشيخ عبد الغني النابلسي وجَمْع من العلماء الدمشقيين للفلاحين في بلاد الشام الذي كانوا يعانون من ظلم الإقطاعيين وقوانينهم الجائرة، فقد أضاف الشيخ عبد الغني النابلسي بعداً آخر هو من صميم الانتماء العربي والتسامح الإسلامي، إذ دافع عن حق غير المسلمين العرب في الذهاب إلى الجنة، كالمسلمين لأنهم يسهمون مع هؤلاء في دعم الدولة المالي والمشاركة في التراث الواحد والانتماء إلى الوطن الواحد، فأشاد بريك بحكم الحكام من آل العظم لأنهم محليون ويتكلمون العربية، خلافاً للحكام من الأروام الذين تعاقبوا قبلهم وبعدهم. وامتدح بريك تسامح الحكام من أولاد العظم تجاه الطوائف المحلية غير الإسلامية. وهذا التلاقي بين الشيخ عبد الغني النابلسي في الاعتداد بالانتماء والتسامح إنما هو انعكاس للتعايش في المجتمع بين فئاته المتنوعة المذاهب، يجمع فيما بينهم انتماء حضاري واحد، وتراث عربي مشترك، ومساهمة فاعلة في مختلف أنشطته وتعايش عبر القرون. ومن أمثلة ذلك، في العهد العثماني، المشاركة في العمل ضمن الطوائف الحرفية التي انتظمت العاملين الحرفيين على اختلاف مذاهبهم. وتعددت الطوائف الحرفية التي شارك في عضويتها المسلمون وغير المسلمين على قدم المساواة، لأن

الانتساب الحرفي والتدرج في مراتبه من أجير إلى صانع ومعلّم كانت تتحكم بهما المهارة الحرفية وليس الانتماء الديني. وروعي التخصص الحرفي الذي ضم المتخصصين في الحرفة (الكار) بقطع النظر عن مذاهبهم فقد شارك في طائفة العطارين الذي يصنعون العطور والأدوية النباتية في مدينة حلب مثلاً مسلمون ويهود نظراً لخبرتهم في هذه الحرفة، وشخصت وفود مشتركة منهم إلى المحكمة الشرعية لإبلاغ القاضي ما اتخذوه من قرارات تتعلق بحرفتهم. واقتصرت حرفة قصاري القماش على مسلمين ومسيحيين دون غيرهم. كما شارك أتباع المذاهب المختلفة في عدد من الطوائف المختلفة في عدد من الطوائف مثل طوائف باعة الخبز بأنواعه، وطائفة الحيّاك (صنّاع الحرير)، وطائفة فتالة الحرير. ومما يدل على الأخلاقية المهنية والتسامح الديني بين الحرفيين أن شيخ القصابين المسلم في مدينة حلب مثلاً سمح للقصابين اليهود بزيادة درهم على السعر الذي يبيع فيه القصابون المسلمون اللحم الحلال وذلك ليدفعوا الزيادة إلى فقراء اليهود المعروفين بالصعاليك، ولم يعترض المحتسب الذي يدقق في الأسعار والموازين على ذلك[٤٦].

كما أن التعايش الذي دافع عنه الشيخ النابلسي والخوري بريك كان قائماً في التجاور السكني، ويلاحظ ذلك في العديد من الحارات والأحياء التي كانت تحمل أسماء دينية، مثل حارة النصارى التي كانت وما تزال تضم في الواقع خليطاً من المذاهب بدليل تجاوز دور أصحاب المذاهب هؤلاء مع بعضها. واستمر التعايش والاختلاط رغم كل الأزمات التي عصفت بالمنطقة[٤٧].

وتنامى الشعور بالهوية والانتماء بين علماء بلاد الشام إلى درجة متقدمة من الوعي في القرن الثامن عشر، كما يدل على ذلك المعروض الذي تقدموا به إلى السلطات العثمانية في عام ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م، تحت عنوان: "مطالب علماء العرب لآل عثمان". وقد أورد هذا المعروض الرحالة المغربي أبو القاسم الزياني في كتابه: "الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحراً"[٤٨]. وكان الزيناتي قد زار الشام

وقام بالحج في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، كما زار استنبول واجتمع إلى علمائها الذي أطلعه أحدهم على هذا المعروض الذي وقف عليه عند شيخ الإسلام، وفي ما يلي نصه:

مطالب علماء العرب لآل عثمان ١١٥١هـ/ ١٧٣٨:

لم يخفَ عن كرم علمكم أن الله اختار من خلقه محمداً رسول الله للثقلين جنهم وانسهم، وأبيضهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، ولما قبضه الله قام بأمر دينه خلفاؤه الأربعة؛ رضوان الله عليهم، فناضلوا عليه العرب والعجم، إلى أن رسخ، وقاتلوا عليه من أباه، ثم قام به من بعدهم من ملوك العرب، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده إلى أن فتحوا الأمصار، وبلغوا منتهى الأقطار، وكل من دخل في هذا الدين الحنفي كان له مالهم، وعليه ما عليهم من أحمر وأسود وعربي وعجمي، بل كانوا يميزون العجم على العرب، ويولونهم المناصب الدينية والدنيوية تأليفاً لهم وجبراً لخواطرهم واقتداءاً بسنة نبيهم، حتى صار أكثر المناصب السلطانية بأيديهم بعد أن كانوا تحت قهرهم وغلبتهم، ما وضعوا من حقهم ولا احتقروهم ولا استبدوا دونهم بمنصب. حتى أن منصب الخلافة الشرعي جعلوا لهم مثله وهو منصب السلطنة الذي يعادل الخلافة، بل هو أعظم منها وتحت حكمه العرب والعجم. ثم كذلك قاسموهم في المناصب الدينية والدنيوية كالقضاء، والفتوى والتدريس والحسبة والإراثة، والإمامة والخطابة والنقابة والحجابة والوزارة والإمارة طول أيامهم إلى أن انقرضت دولتهم نحواً من ستمائة سنة أو فوقها.

ولما صارت الخلافة السلطانية للعجم استبدوا بهم وأنزلوهم عن مراتبهم، بل أهلنوهم وحقّروهم. ولو وجدوا السبيل لما وعي في صدورهم من العلم لأزالوه. أجيبونا عن هذا بما يوافق الشرع العزيز والسلام.

"وتوجه بهذا الدفتر أعيان فقهاء العرب لحضرة الوزير الأعظم وشيخ الإسلام الذي هو المفتي. ولما قرأ عرض الحال، أمر الوزير بإحضار القضاة وأعيان العلماء، وأسمعهم ما في عرض الحال، قالوا: غداً نأتيك بالجواب. وانفصل المجلس واجتمع القضاة والفقهاء عند المفتي على الجواب، إلى أن اتفقوا عليه وكتبوا تحته في الدفتر، هذا الذي كتبه ساداتنا الفقهاء مما كان من اختيار الله تعالى لرسوله مولانا محمد بن عبد الله من كافة خلقه، وأرسله إلى الثقلين، ولما قبضه الله قام بأمر دينه خلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم وجاهدوا في الله حق جهاده إلى أن رسخ الدين. ثم بعدهم ملوك العرب من بني أمية وبني العباس، وتبعوا ما كان عليه الخلفاء، وجاهدوا وفتحوا وبلغوا أقاصي البلاد. وأسلم من أسلم من العجم.، وخالطوهم وقاسموهم المناصب السلطانية، والمناصب الشرعية، كل ذلك صحيح معلوم مشهور لا مرية فيه. فمن شك في نبوءة محمد ورسالته وسيرة خلفائه وعدلهم فقد كفر أو قارب الكفر. ومن طعن في عدل من اشتهر عدله من ملوك بني أمية وبني عباس فقد أثم وباء بغضب من الله، فقد كان عظماء ملوكهم على ما ذكرتم ولا خلاف عندنا في ذلك".

«ولما آل الأمر إلى خلفهم الذين هدموا حدود الشريعة، وقدموا للمناصب من لا يخاف الله من العرب والعجم، وجاروا في الأحكام، واستحلوا الحرام، وتركوا الجهاد حتى استولى الكفار على ثغور المسلمين وغلبوا على ساحل مصر والشام، بل على الشام كله وعلى مصر من أيام بني عبيد وبني العباس، ولولا أن الله تدارك هذا الدين المحمدي بملوك العجم من الكردية والسلجوقية والخوارزمية والعثمانية، لترك هذا الدين جملة لعدم من يقوم من ملوك العرب وأمرائهم، وقلة إنصافهم، وعدم عدلهم، في الملك والدين، فوالله لو دخلتم هذه المناصب الدينية لفسدت وبُدِّلت الحقيقة بالمجاز وما تجعلونه حجة من استعمالنا لهذه القوانين في الأحكام الشرعية لها أصل معتبر في الشرع العزيز، يعلمها من له تقدم في فهم الكتاب والسنة، فلا تحدثوا أنفسكم بالتقديم لهذه المراتب، فإن ولايتكم لها هي ابتداء المفاسد، فاقنعوا بما ترزقونه في الملازمة

والتدريس، وما تنتفعون به من الكتابة والصحبة لكل رئيس، وعليكم منا أزكى السلام، في البدء والختام، قيد عام واحد وخمسين ومائة وألف».

إن مطالب العلماء العرب بإنصافهم وتذكير الحكام بدورهم في نشر الإسلام وإقامتهم العدل، تنسجم مع الدعوات الإفرادية التي سبق أن قام بها الشيخ علي بن علوان والمفتي نجم الدين الغزي والمفتي النابلسي في الانتصار للمظلومين والمطالبة بتطبيق مبادئ الشريعة كما كان الأمر في عهد الأسلاف القدامى من العرب المسلمين. وقد تزامنت مطالب العلماء العرب هؤلاء في القرن الثامن عشر مع دعوة إصلاحية إسلامية في بقعة أخرى من الوطن العربي، في الجزيرة العربية، حيث قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٨٧)، بحركته الإصلاحية داعياً إلى تأكيد التوحيد، ومن هنا تجدر الإشارة إليه وإلى حلفائه ومناصريه من السعوديين وبالموحّدين لأنه شجب ماكان شائعاً بين عامة الشعب في الدولة العثمانية آنذاك من عبادة الأولياء والمتطرفين من أصحاب الطرق الصوفية وتوسيطهم بين الله والمؤمنين. ودعا الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى العودة إلى صفاء الإسلام كما في عهوده الأولى، أيام السلف الصالح، حين كان الإسلام في الجزيرة العربية مهد العرب الأول، ومن هنا التسمية الأخرى لهذه الدعوة الإصلاحية التي عرفت بالسلفية. وفشلت محاولات الدولة العثمانية في القضاء على هذه الحركة الإصلاحية بمحاولتها تسليط القوة الناشئة في مصر آنذاك بزعامة محمد علي باشا ضد الموحّدين السلفيين الوهابيين هؤلاء في الجزيرة العربية وذلك في محاولة لإضعاف الفريقين. ولم تتمكن الدولة العثمانية في نهاية المطاف من القضاء على الوهابيين الذين كان لهم تأثيرهم الفاعل في حركة الإصلاح الديني آنذاك وفي الحد من تطرف الطرق الصوفية كما حدث مثلاً في الحركة الصوفية السنوسية في ليبية التي تعتبر بحق حركة إصلاحية دينية، وكذلك الحركة المهدية في السودان التي حاولت إدخال الإصلاح في مجتمع قبلي.

وتزامنت هذه الحركات الإصلاحية الدينية في القرن التاسع عشر في مهد العرب، في الجزيرة العربية، وعلى أطرافه مع حركة دينية سلفية في بلاد الشام عرفت بحلقة دمشق التنويرية، وكان من كبار دعاتها الشيخ طاهر الجزائري والشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار وغيرهم. وكانت جميع هذه الحركات السلفية بدعواتها الإصلاحية، وشجبها تطرف الطرق الصوفية الشائعة آنذاك، وتطلعها إلى صفاء الإسلام كما في عهوده الأولى، في زمن السلف الصالح، رديفاً هاماً لحركة الوعي القومي العربي التي تأثرت بالأفكار الأوروبية المتحررة في القرن التاسع عشر (٤٩).

ومن هنا تأتي أهمية تقصي الفكر العربي لدى العلماء المسلمين في بلاد الشام وشعورهم بالهوية والانتماء في القرون التي سبقت القرن التاسع عشر، لأن فكرهم هذا يشكل القاعدة الأساسية للوعي القومي العربي في ذلك القرن. فالنهضة لم تنشأ من العدم بل كان هؤلاء العلماء، بأصالتهم وصفائهم وانتمائهم العربي ودفاعهم عن قيم الإسلام وتسامحه، جذور هذه النهضة ومرجعياتها وجملة هويتها العربية في أصعب الظروف.

BioGraphies of Prominent Clerics as Possible Approach to the History of the Christian Arabs in the First Centuries of Ottoman Rule The Case Of Macarius Ibn Al- Za'im

Carsten Michael Walbiner

Some introductory remarks

When I started writing my thesis on which was thought to be the edition and translation of a description of Georgia written in 1665 by Patriarch Macanus Ibn al-Za'im of Antioch (Walbiner 1994), I attached little importance to the biography of the author; little space was therefore dedicated to the description oof his life. However, in the course of my research I realized that the biography oof Macanus provides many important facts which not only help to better understand his literary work but also the history of his community, the Greek Orthodox, in the 17th century.

Macanus lived in a period, which was for a long time described as historically uninteresting oor even without a history. As an example, Frend summanises three centuries with one sentence: "From the sixteenth to the eighteenth enturies he hristians n he iddle ast ave ittle istory worth telling"(Frend 1969). But of course there is history, and like every history it is worth telling. Yet the sources for its reconstruction are rarely used; they are still lying dormant in the archives and libraries of the East and the West.

This paper was presented at the table ronde "Les enjeux de l'etude biographique". Organized by l'institut Français d'Etudes Arabes de Damas (IFEAD, Damascus) on 14-16 March 1996, and at the conference "Russia and the Orthodox of the East" at Balamand University, 19-21 November 1998, where a greater emphasis was laid on Russian sources. It has been modified for publication.

Research fellow at the Orient-Institut der Dcutschen Morgenländischen Gesellschaft, Beirut, specialised on Arab Christianity.

الحواشي والمراجع

(١) انظر مثلاً ورود هذه التعابير بكثرة في كتاب أحمد البديري الحلاق، **حوادث دمشق اليومية**، ١١٥٤-١١٧٥/١٧٤١-١٧٦٢، تحقيق الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٥٩.

(٢) انظر: Suraiya Faroghi and Sultans, the Haji under the Ottomans, 1517-1683, I. B. Tauris, London 1994,p.185.

قد اقتصر الحج بين أفراد الأسرة الحاكمة على الإناث منهم، كزوجات السلاطين أو شقيقاتهم، كما قام السلاطين ببناء سور القدس وعدد من الأبنية وبرك الماء، ولاسيما منهم السلطان سليمان القانوني، وأرسلوا الأعطيات باستمرار إلى فقراء الحرمين الشريفين.

(٣) انظر ترجمته في **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، ٣ مجلدات، للشيخ نجم الدين الغزي، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت، ١٩٤٥-١٩٥٩، ج٢، ص ٢٠٦-٢١٣.

(٤) نسخة المكتبة الظاهرية (في مكتبة الأسد حالياً)، رقم ٢١٥٨٠/ب. ويعطي نجم الدين الغزي في ترجمته لابن علوان، **الكواكب السائرة**، ج٢، ص ٧-٢ عنواناً عاماً لهذا المؤلف، وهو كتاب **النصائح المهمة للملوك والأئمة**، ولعل الإشارة هنا إلى الكتاب نفسه.

(٥) انظر: "**نصيحة الشيخ علوان**"، ٩٣ ب - ٩٤ أ.

(٦) شمس الدين محمد بن طولون، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، جزءان، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٢-١٩٦٤، انظر: ج٢، ص ٢٩-٣٠، وانظر أيضاً: للمؤلف بن طولون، **إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك**

بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٤، ص ٢٨٠.

(٧) بن طولون، **مفاكهة الخلان** ، ج٢، ص ٤٧.

(٨) الغزي، **الكواكب السائرة**، ج٢، ص ١٩٣.

(٩) القرآن الكريم، سورة غافر، الآية ١٩.

(١٠) القرآن الكريم سورة غافر، الآية ١٩.

(١١) سجلات **محاكم حلب الشرعية**، مجلد ٦، ص ١٠٧.

(١٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢٢.

(١٣) محمد بن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الطبعة الثانية، الجزء الخامس، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م، ص ٤١٧-٤٢٤.
وانظر تفاصيل أخرى في مقالنا بالإنكليزية وعنوانه: The Syrian Ulama, Ottoman Law and Islamic Shria "Turcica, Revue d'Etudes Turques, Tome XXVI *1994), pp. 9-32.

(١٤) انظر دراستنا لعقود الزواج في مدينة حماة بالاعتماد على وثائق حماة الشرعية من عام ١٥٣٥، في مقالنا: "**مظاهر اقتصادية واجتماعية من لواء حماة ٩٤٢-٩٤٣/ ١٥٣٥-١٥٦٣**"، مجلة دراسات تاريخية العددان ٢١ و٢٢ (آذار-حزيران ١٩٨٩)، ص ١٧-٦٥، وبخاصة، ص ٤٦-٦٥.

(١٥) Halil Inàlcik, The Ottoman Empire, the Classical Age, 1300-1600, New York, 1973, pp. 11-112.

(١٦) انظر مناقشتنا لهذا الأمر ولأمور الدين والقرض وإساءة استعمالهما، ولتوظيف أموال اليتامى وأوقاف في ما عرف بالمرابحة، وليس الفائدة، في مقالنا: "The Syrian Ulama. Pp. 13-22".

(١٧) مخطوط في المكتبة الظاهرية (مكتبة الأسد)، برقم ٦٨٧٩.

(١٨) انظر: محمد الأمين المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٢٨٤م (عدة نسخ مصورة)، ج٤، ص ٤٧٨-٤٨٠؛ وانظر كذلك نجم الدين الغزي، **لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر**، تحقيق محمود الشيخ، جزءان، دمشق ١٩٨٢-١٩٨١، ج٢، ص ٦٩٨-٧٠٦.

(١٩) انظر هذين المؤلفين في الحاشيتين ٤ و١٦.

(٢٠) مخطوط في المكتبة الظاهرية (مكتبة الأسد)، برقم ٩٠٣٠.

(٢١) حقق هذه الرسالة ونشرها بالعربية مع ترجمة بالفرنسية الدكتور بكري علاء الدين في مقال بعنوان: Deux fatwa-s du Shayh Abd al-Ghani al- Nabulsi, Bulletin D'Études Orientales, Institut Français de Damas, Tome XXXIX, Années 1987, pp. 28-37, voir, pp. 30-33.

(٢٢) الغزي، **حسن التنبه لما ورد في التشبه**، ورقة ٣ آ.

(٢٣) المصدر السابق، ورقة ١٤ آ.

(٢٤) المصدر السابق، ورقة ١٥ آ.

(٢٥) للحصول على تفاصيل وافية عن هذه الثورات انظر بحثنا: "**ثورات العساكر في القاهرة في الربع الأخير من القرن السادس عشر** والعقد الأول من القرن السابع عشر ومغزاها المنشور في كتابنا: **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**، دمشق ١٩٨٥، ص ٩٧-١٢٩. وقد ألغي هذا البحث في العيد الألفي للقاهرة ، في ١٩٦٩، ونشر أيضاً مع مجموعة البحوث آنذاك؛ وانظر كذلك في كتابنا: **العرب والعثمانيون** ١٥١٦-١٩١٦م، دمشق الطبعة الثانية، ١٩١٣، ص ١٢٤-١٤٨.

(٢٦) انظر كتابنا: **العرب والعثمانيون**، ص ١٤٨-١٦٧.

(٢٧) مخطوط في الظاهرية (مكتبة الأسد)، برقم ٧٨١٤.

(٢٨) انظر كتابنا: **العرب والعثمانيون**، ص ١٣٤.

(٢٩) توجد هذه النسخة في مخطوطات برلين العربية، برقم MQ1581، وقد كتبها اسماعيل ابن المؤلف وفرغ من تحريرها في ٨ ربيع الثاني ١١٠٤/١٧ كانون الأول ١٦٩٣، وتقع في ثماني عشرة ورقة، وأشكر الزميل الدكتور علاء الدين الأستاذ في قسم الفلسفة بجامعة دمشق الذي أطلعني على هذه النسخة.

(٣٠) نسخة مخطوطة في الظاهرية (مكتبة الأسد) برقم ١٤١٨، الأوراق ٥٣-١٠٠.

(٣١) نسخة مخطوطة في الظاهرية (مكتبة الأسد) برقم ٩٨٧٣، وتتألف من سبع وستين ورقة.

(٣٢) المصدر السابق، ورقة ١٤ آ و ١٤ب.

(٣٣) المصدر السابق، ورقة ١٧ ب.

(٣٤) المصدر السابق، ورقة ١٨ ب.

(٣٥) المصدر السابق، ورقة ١٩ آ.

(٣٦) المصدر السابق، الأوراق ٣٥ ب، ٣٦ آ، ٣٧ آ، ٤٠ آ، ٤٢ آ، ٤٣ ب، ٤٤ آ، ٤٤ ب، ٤٥ آ، ٤٦ آ.

(٣٧) عبد الغني النابلسي، **الحقيقة في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر**، تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ١٢٥.

(٣٨) . النابلسي، هذا كتاب القول السديد، (محطوط برلين وهو الذي نعتمده هنـــا)، ورقة ٣٥ب.

(٣٩) نفس المصدر السابق، ورقة ٣٠ آ، و ٣٠ ب.

(٤٠) نفس المصدر السابق، ورقة ٣١ آ.

(٤١) نفس المصدر السابق، ص ٣٦.

(٤٢) ميخائيل بريك، **تاريخ الشام**، ١٧٢٠-١٧٨٣، تحقيـــق قســطنطين الباشـــا، حريصا (لبنان) ١٩٣٠.

(٤٣) نفس المصدر السابق، ص ٢.

(٤٤) نفس المصدر السابق، ص ٦٢.

(٤٥) نفس المصدر السابق، ص ٣.

(٤٦) تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الطبعة الثانية، الرباط ١٩٩١، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٤٧) للمزيد حول التعايش ضمن الحرف والأخلاقية التي ساوت بيـــن الحرفييـــن على اختلاف مذاهبهم انظر بحثنا: "**مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني**" لمنشور في كتابنا: بحوث في التاريخ الاقتصـــــادي، ص ١٦٠-١٩٢؛ وانظر كذلك بحثنـــا بالإنكليزيـــة: Craft Organizations and Religious Communities in Ottoman Syria (XVI-XIX) cinturies" in la Shi'a Nell' Impero Ottomano, Accademia Nazionale dei Lincei, Roma. 1993. Pp. 25-26.

(٤٨) انظر أمثلة حول ذلك في مقالنا: "**البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة بـــاب مصلى (الميدان) بدمشق** (١٨٢٥-١٨٧٥)، مجلة دراسات تاريخية، السنـــة ٨، العددان ٢٥ و ٢٦ (آذار وحزيران، ١٩٧٨)، ص ٧-٦٢. وقد نشر هذا البحـــث بالإنكليزية بعنوان: "The social and Economic Structure of Bab al Musalla

(al- Midan), Damascus, 1825, 75". وذلك في الكتاب التكريمي للأستاذ الدكتـور قسطنطين زريق، وعنوانـه: Arab Civilization, Challenges and Responses, Studies in Honor of Constantine K. Zurayk, edited by George N. Atiyeh and Ibrahim M. Oweiss, State University of New York Press, 1988, pp. 272-311.

(٤٩) انظر: حول تأثر الكتابة التاريخية لبلاد الشـام بتطـور الشـعور الهويـة والانتماء، بحثنا بعنوان: "Social Groups, Identity and Loyalty, and Historical Writing in Ottoman and Post- Ottoman in Syria" les Arabes et l'hitoirem sous la diriction créatrice, sous la direction de Dominique Chevallier, presses de l'Université de Paris-Sorbonne, Paris, 1994, pp. 79-93.

الجالية الهندية في شرق إفريقية في عهد السيد برغش بن سعيد ١٨٧٠-١٨٨٨م

الدكتور بنيان سعود تركي

جامعة الكويت

خلفية تاريخية:

عرف الهنود الساحل الشرقي لإفريقية، وارتبطوا مع سكانه بعلاقات تجارية تعود بجذورها إلى عصور موغلة في القدم، وأغلب المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ العلاقات بين الهند وشرق إفريقية تعزز عمق الجذور التاريخية هذه، وقد لعبت الرياح الموسمية -التي احتكر العرب والهنود سرّها لفترة طويلة قبل مقدم الاستعمار البرتغالي- دورها في نمو وتطور علاقة العرب والسواحليين بالتجار الهنود، فلا عجب أن هذه الرياح الموسمية قامت بالدور الرئيسي في حركة التجارة الهندية في المحيط الهندي بل وارتبطت مواعيد الإبحار ارتباطاً وثيقاً بمواعيد الرياح.

كما عُرف أن الهنود تاجروا مع سكان شرق إفريقية ولكنهم لم يستقروا بأعداد كبيرة، وقد أخذت العلاقات بين الهند وشرق أفريقية زخمها في عهد السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي ١٨٠٦-١٨٥٦م، والذي يرجع له الفضل في إنشاء أول إمبراطورية عربية إفريقية في التاريخ الحديث، وقد شجع السيد سعيد الهنود على الإبحار والاستقرار في عاصمته الجديدة زنجبار، وعمل بكل ما بوسعه على توفير الأمن والأمان للهنود، إضافة إلى تسامحه الديني، مما دفع بالهنود إلى القدوم إلى المنطقة وبأعداد متزايدة، وقد سار خلفاؤه من بعده على سيرته(١).

إن الهدف من هذه الورقة هو تسقط أخبار الجالية الهندية في عهد السيد برغش بن سعيد بن سلطان البوسعيدي سلطان سلطنة زنجبار العربية ١٨٧٠-١٨٨٨م لسبر أغوار علاقة السلاطين العرب بالهنود وأوضاعهم الاجتماعية وأدوارهم الاقتصادية وعلاقاتهم بالطوائف الأخرى في السلطنة العربية وفي الساحل الشرقي لإفريقية، وكذلك علاقاتهم بالقنصلية البريطانية والقنصليات الأجنبية الأخرى، وكذلك الدور الذي لعبته الجالية الهندية في تاريخ شرق إفريقية الحديث والمعاصر.

السيد برغش سلطاناً على زنجبار:

توفي السيد ماجد بن سعيد البوسعيدي سلطان زنجبار (١٨٥٦-١٨٧٠م)، وقد تم اختيار شقيقه السيد برغش بن سعيد خليفة له، ويعدّ حكم السيد برغش من أزهى عصور السلطنة العربية، وامتد حكمه من ١٨٧٠-١٨٨٨م، وقد شهدت سلطنة زنجبار العربية تطوراً لافتاً في عصره، وعمّ ذلك التطور حتى شمل القسم الشرقي من القارة الإفريقية[٢].

أعداد الهنود:

من اللافت في هذه المسألة، أن الهنود الذين كانوا يأتون إلى الساحل الشرقي من إفريقية، كانوا موسميين، وأن أعداهم كانت تزداد بشكل ملحوظ أثناء هبوب الرياح الموسمية وما يرافقها من عمليات تبادل تجاري، وكانوا لا يبقون على هذا الساحل فترات طويلة قبل القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك أن أمر البقاء والاستقرار على ما يبدو، لم يكن مسموحاً به، والدليل على ذلك أنهم كانوا يدفعون مبالغ مالية معينة لقاء السماح لهم بالبقاء في المنطقة كعناصر غير مرغوب فيهم [٣].

لكن الصورة تغيرت منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، بعد أن وصل إلى الحكم في ساحل إفريقية الشرقي السيد سعيد بن سلطان، فبدأت أعداد متزايدة من الهنود

المسلمين وغير المسلمين تتدفق على زنجبار، فوصل عددهم في سنة ١٨٤٤م إلى أكثر من ١٢٠٠ نسمة في سلطنة زنجبار لوحدها، كان معظمهم من المسلمين(٤). وارتفعت هذه الأعداد في بداية القرن التاسع عشر إلى ٣٧٠٠ نسمة في سلطنة زنجبار العربية، وتضاعف هذا العدد في سنة ١٨٧٤م(٥)، بسبب توفر أسباب الاستقرار، لاسيما في الميدان الاقتصادي، الذي شهد ازدهاراً ملحوظاً في هذه الفترة، وكذلك بسبب روح التسامح التي سادت في كل العصور العربية مع الجاليات غير العربية، وذلك انطلاقاً من أرضية طيبة تجسدت في معاملة العرب لسواهم معاملة إنسانية لائقة، وهذا ما ينبغي أن يكون في ظل الأقوياء.

كان معظم الذين قدموا إلى زنجبار العربية من الهنود من مناطق بومباي وكتش وكثيوار، وكانوا يتحدثون فيما بينهم اللغة المعروفة بـ (جوجراتي)، وعملوا بشكل خاص في ميدان التجارة، سواء أكان ذلك في محلات تجارية خاصة أم في أمور الوساطة بين التجار المحليين والتجار الأوروبيين، مما حدا بقسم كبير منهم ولاسيما المسلمون، أن يتعلموا اللغة العربية، فأصبحوا بفعل ذلك التعلّم عناصر هامة في المجتمع بزنجبار(٦). هذا ومع مرور عجلة الزمن، أصبح لهم مساجدهم المعروفة هناك، يمارسون فيها طقوسهم وشعائرهم الدينية بحرية مطلقة، مما ساعد على استقرار مجموعة كبيرة منهم بزنجبار بصورة نهائية(٧)، وهذه المجموعة كانت بشكل خاص من البهرة الهنود، الذين اشتهروا بالغنى والبحبوحة الاقتصادية، وكذلك اشتغالهم بحرف متفرقة، ولا بد أن سبب غناهم المتميز أنهم كانوا قد أسسوا لأنفسهم قاعدة اقتصادية متينة قبل أن يستقروا بزنجبار العربية، جاءت من خلال اشتغالهم بأعمال التجارة ونقل البضائع بصورة منتظمة من كامبي على الساحل الهندي إلى موانئ شرق إفريقية موضوع هذا البحث(٨).

زنجبار المركز التجاري:

لقد شكّل هامش الحرية الكبير الذي أُعطي للجالية الهندية من قبل السلطة العربية بزنجبار، كحرية العمل وحرية التصرف بالوفر المالي بإرسال قسم منه أ, إرساله برمته إلى مواطن الجالية بالهند، هذا بالإضافة إلى قيامها بتوريد منتجات الداخل، وخزنها في مؤسسات الجالية حتى يحين الوقت المناسب لعرضها و طرحها في الأسواق الداخلية، أو تصديرها إلى الخارج، كل ذلك شكل دافعاً كبيراً للعمل بجدية وإخلاص من قبل هذه الجالية، التي اتخذت من زنجبار نفسها مقراً رئيساً لكل مؤسساتها التجارية النشيطة، وفي الوقت نفسه كانت تعمل في المرافئ الإفريقية الأخرى، وبذلك أصبحت زنجبار العربية ميناءاً تجارياً رئيساً للساحل في الشرق الإفريقي، ومع التوسع الأوروبي واستعمار الداخل، أخذت بعض المرافئ في المنطقة تنافس زنجبار، مثل ممباسا، ودار السلام، مما حدا بالجالية الهندية للتحول التدريجي إلى هذه المرافئ(٩). ومن اللافت أيضاً في هذا الميدان، أن السفن التجارية التي بدأت تغزو سلطنة زنجبار العربية، شغلت دوراً هاماً في المؤسسات التجارية العامة، بأن أحدثت تغييراً في نمط الحياة الاقتصادية في السلطنة العربية، فازدادت المنافسة بين التجار حتى بلغت أشدَّها، مما جعل بعض المهتمين يصف ذلك التطور، الذي حدث بزنجبار وبخاصة في عام ١٨٧٥ م، بأنه ثورة حقيقية في إدارة التجارة بزنجبار، وكان من نتيجة هذه الثورة ازدياد واردات السلطنة المالية، التي قفزت من ٣٠٠،٠٠٠ في عام ١٨٧٠ م إلى ١،٠٠٠,٠٠٠ مليون دولار في أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، مما ساعد السلطان على التخلص من جزء كبير من ديوانه(١٠).
وقد اشترك السلطان برغش بن سعيد في الأنشطة التجارية، فكانت مراكبه تتردد على الهند لجلب البضائع المرغوب فيها في بلاده وجوارها، وقد شغل هذا السلطان من خلال عملياته التجارية دوراً إيجابياً في ضرب العديد من عمليات الاحتكار، التي كان الهنود يمارسونها لجني مزيد من الأرباح، فاشتهر في هذا الصدد، أن مراكب السلطان

برغش كانت تأتي بالأرز من الهند وتبيعه بأسعار رخيصة وميسرة لجموع الفقراء[١١] وبذلك أصبحت مراكب السلطان منافساً قوياً للتجار الهنود، لا من أجل جني الأرباح، بل كما قيل من أجل تخفيف أعباء الحياة العامة على أبناء رعيته، الذين كان ينظر إليهم نظرة عطف ورحمة وشفقة وكأنهم أبناؤه الحقيقيون.

لكن حياة الجالية الهندية في سلطنة زنجبار العربية، لم تكن خالية من بعض المشاكل المؤرقة، فقد واجهت هذه الجالية مشكلة من أهم المشاكل وهي مشكلة الرعوية، أي هل أن الهنود بزنجبار هم من رعايا السلطان؟ أم من رعايا الدولة التي قدموا منها؟ أم من رعايا بريطانية بحكم حماية هذه الأخيرة على الهند؟. أدت هذه المشكلة إلى حدوث تنافس بين السلطان برغش بن سعيد سلطان زنجبار العربية وبين الإدارة البريطانية، ذلك لأن الطرفين على ما يبدو كانا حريصين على السيطرة على الجالية الهندية بزنجبار وما حولها من مناطق شرق القارة الإفريقية، وقد ضغطت بريطانية بكل قوتها لإثبات أن الهنود من رعاياها، وهي لذلك معنية بتطبيق قوانينها عليهم[١٢].

هذا وتجدر الإشارة إلى أنه في أبريل ١٨٦٩م، قبيل تولي السيد برغش مقاليد السلطة في زنجبار أصدر "الراو" (حاكم كتش) قراراً بأن المطالب والمنازعات الخاصة بمواطني كتش الذين يقيمون بشكل دائم أو من المترددين بغرض التجارة على موانئ مسقط والموانئ الأخرى في إفريقية والجزيرة العربية والخليج العربي يجب أن تتم عن طريق الحكومة البريطانية بنفس الطريقة فيما لو كانوا من رعاياها، وعندما اعترض السيد ماجد على هذا الإعلان هدّده القنصل البريطاني بأنه سوف يصنع من هذه القضية أزمة بين الدولتين مؤكداً على ما منحه "للراو" من صلاحيات، مما يعزز ما ذهبنا إليه من أن بريطانية استغلت الادعاء بأن الهنود من رعاياها للتدخل في الشؤون الداخلية للسلطنة العربية.

ولم يجد السيد ماجد مفراً من الاستسلام للأمر الواقع، ذلك لأن ضغط القنصل البريطاني ساهم في إنهاء هذا الصراع الذي استمر لثلاثة عقود للسيطرة على طبقة التجار التي كانت تملك العديد من الإمكانيات وتمنح العديد من الميزات، وكانت السيطرة على الجالية الهندية تمنح القنصل البريطاني سلطة التأثير على الإدارة المالية ومن ثمّ على الإدارة السياسية للسلطنة العربية، وهو ما حدث على أرض الواقع[١٣].

الهنود وملتزم الجمارك:

سيطر الهنود على إدارة الجمارك، وكان السلطان يمنح في العادة الملتزم أو المستثمّر لإدارة الجمارك مدة خمسة سنوات قابلة للتجديد، ويعتمد مبلغ الالتزام على تقدير الإنتاج، ومن المعروف أن أول من تولّى إدارة الجمارك مؤسسة "وات بهيما" في حدود ١٨١٧م، وهي مؤسسة هندية ومالكها من الهندوس، والمبلغ الذي تم الاتفاق عليه هو ٧٠,٠٠٠دولار ماريا تريسا، واستمر لفترة، ثمّ تحول لمستثمّر هندوسي آخر هو "سوجي توبان" ثمّ ابنه "جيرام سوجي" والتي بقيت أسرته لمدة شارفت على الأربعين سنة، ومع تطور التجارة في شرق إفريقية فإن المبلغ زاد مع انتهاء السنوات الخمسة، وفي عام ١٨٨١م، ارتفع العقد من ٧٠,٠٠٠ إلى ٥٠٠,٠٠٠ دولار ماريا تريسا، والذي يعادل ١١,٠٠٠ باوند[١٤].

وكان لملتزم الجمارك وكلاؤه الدائمون، وعادة ما كانوا من أقربائه أو من الهندوس في كل ميناء من الموانئ المنتشرة على طول الساحل الشرقي لإفريقية، ومن الملاحظ أن ملتزم الجمارك عادة ما يكون له تجارته الخاصة به، ونتيجة لموقعه القريب من السلطان ولكونه إلى حد كبير يلعب دوراً استشارياً بحكم موقعه، لهذا كان له أثره في نمو وتوسع تجارته الخاصة. وهذا أيضاً مكّنه لأن يكون له تأثير على القصر حيث السلطان كثيراً ما يحتاج إلى الأموال، والأقدار على توفيرها هو ملتزم الجمارك، وقد

ذكر أن الملتزم جيرام سوجي الهندوسي مارس سلطة أكثر من السلطان نفسه. فلا عجب أنْ تمكن الهنود من رقاب العرب والسواحليين في شرق إفريقية.

ولهذا فإن ملتزم الجمارك حرص على أن يكون سلاطين زنجبار مديونين له بشكل دائم ليضمن لمؤسسته الاستمرارية في إدارة الجمارك، ويذكر "المغيري" أن من أشهر خزنة السيد برغش كان "الخازن العام زيرام البانيان، مدير الجمارك...، ومن المقربين معه من الهنود تاريا بن توبن الهندي، وهو الذي سافر بصحبته إلى لندن، وابيره وفوجى...،" كما يذكر في موضع آخر" ونزلت الأجناس زنجبار منذ زمن السيد سعيد بن سلطان، واستعمل منهم السيد سعيد في أعمال الجمرك، والمشهور منهم زيرام بسيوجي البنياني، الذي كان موظفاً في جمرك زنجبار، وممباسة، وكلوة، في عهد برغش بن سعيد...".

ويذكر الجنرال "رجبي" الذي خدم قنصلاً في زنجبار خلال فترة حكم السيد ماجد (١٨٥٦-١٨٧٠م)، أن جيرام سوجي ترك ثروة تقدر بثلاثة ملايين كعملة صعبة، والتي كانت تساوي ٦٥٠,٠٠٠ باوند، وهناك من قدر ثروته بأربعة ملايين دولار، بالإضافة إلى القدرة على توفير مبلغ وقدره ١٠٠,٠٠٠ دولار في فترة وجيزة[١٥].

كما أشار الدكتور "كريستي" الذي عمل طبيباً للسيد برغش ١٨٧٠-١٨٨٨م، لفترة وجيزة في عام ١٨٧٠م، وصف متعهد الجمرك ورفاقه بأنهم القوة الحاكمة في زنجبار، ومن المدهش أنه عندما قابل الرحالة "ستانلي" السيد برغش عام ١٨٧١م، وجد أن الذي يجلس بجانب السلطان رجل هندوسي مسن وهو "لودادمجي"، أحد الهنود من "كوتش"، الذي كان لمدة تقارب الأربعين سنة الوكيل الرئيس "لجيرام سوجي"، وقد امتدحه "جون كيرك" بقوله: إنه يقوم بأعماله بدقة ويحظى بتقدير من جميع الطبقات[١٦].

وفي عام ١٨٧٠م، بدأ السيد برغش حكمه بوضع اقتصادي سيئ، إذ علم بعد وفاة شقيقه السيد خليفة، أنه مديون لوكيل الجمارك "لودادمجي" بمبلغ وقدره ٤٢٣,٠٠٠ دولار، وهو مبلغ كبير جداً، كما أبلغ أن هناك ديون أخرى خاصة بتركة سعيد بن سلطان، وقد حاول السيد برغش حل تلك المعضلة مع "لودادمجي"، ومع ذلك فإن وضع السيد برغش المالي كان يعاني من مشاكل عدة، خاصة وأن الإيرادات لا تغطي النفقات، ووصل الأمر في نوفمبر ١٨٧٠م، إلى أن خزانة الدولة أصبحت خاوية من العملة النقدية، وهذا أدى بدوره إلى أن جميع المدفوعات الضرورية غطت بصكوك محوّلة على ملتزم الجمارك[١٧].

ووجد السيد برغش ضالته المنشودة في أزمته المالية للحد من نفوذ ملتزم الجمارك وألاعيبه المالية والحصول على قيمة أكبر لالتزام الجمارك، وعقد العزم على تنحية مؤسسة جيرام سوجي من إدارة الجمارك واستبدالها بمؤسسة أو شخص آخر مثل "تاريا توبان"، أو "وات بينا"، وهنا تدخل القنصل البريطاني "جون كيرك" لمصلحة مؤسسة جيرام سوجي، وقد أدى تدخل القنصل البريطاني إلى إقناع السيد برغش بإعطاء الجمارك لعائلة سوجي، وقد راجت شائعات بأن السبب الذي دفع بالسيد برغش إلى اتخاذ موقفه هو الديون الضخمة التي على السيد برغش أن يدفعها لمؤسسة سوجي، ولهذا فإنه بعدم إعطاء عائلة سوجي غدارة الجمارك سوف يترتب عليه الضغط على العالة للتنازل عن جزء كبير من ديونها التي على السلطان[١٨].

وقد أثمّر التدخل البريطاني بإعادة الالتزام لعائلة سوجي، ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن القنصل البريطاني اعترف بأن الدين الذي على السيد برغش قد ضخم بتعمد من عائلة سوجي من أجل الضغط على السلطان لتجديد عقد المؤسسة، وبهذا نستطيع القول دون تحفظ أن ملتزم الجمارك كان يتلاعب بالسجلات المالية لخدمة مصالحه ومصالح الجالية الهندية أوليس هو ملتزم الجمارك والمستشار المالي للسلطان في نفس الوقت؟ ومن المعروف إن قيمة العقد تتراوح ما بين ٤٥٠,٠٠٠ دولار ماريا تريسا

و٥٠٠,٠٠٠ دولار ماريا تريسا، فإن القنصل البريطاني بتدخله وجد حلاً وسطاً وهو تخفيض ٣٤٠,٠٠٠ دولار ماريا تريسا، من الدين والتزام الجمارك يظل على نفس المستوى السابق ٣٠٠,٠٠٠ دولار ماريا تريسا في السنة.

وبهذه الحسبة البريطانية فإن السيد برغش يخسر على الأقل خلال السنوات الخمسة القادمة مبلغ وقدره ٤١٠,٠٠٠ دولار ماريا تريسا، وهذه الحسبة اعترضت عليها حكومة بومبي، التي أشارت إلى أنه لا يفترض للقنصل البريطاني التدخل فيها، ومع ذلك فقد ذهبت المعارضة أدراج الرياح حيث لم تصر حكومة بومبي على اتخاذ أي إجراء، وأجبر السلطان عن طريق تدخل القنصل البريطاني على تجديد عقد مؤسسة سوجي[١٩]. وهنا لا بد من التذكير بأن المنافس الرئيس لعائلة سوجي الهندوسية عائلة تاريا توبان المسلمة، وهو صراع يشار له تلميحاً لا تصريحاً، أضف إلى أنه جزء من الصراع للسيطرة على الجالية الهندية في شرق إفريقية بين سلطان زنجبار والإدارة البريطانية، وكان الخاسر بالطبع سلطان زنجبار.

وفي عام ١٨٧٢م، تبين أن إيرادات السلطان أقل من المدفوعات، واضطر السلطان في عام ١٨٧٤م، إلى زيادة الرسوم على العاج الذي يمر عبر موانئ الساحل وكذلك القرنفل القادم من جزيرة بمبا، إلى زنجبار، ومع أن إيراداته زادت بهذه الإجراءات غير الشعبية ١٠٠,٠٠٠ دولار فإن ديونه لمؤسسة جيرام سوجي بقيت في عام ١٨٧٥م، ٥٤٠,٠٠٠ دولار، وما أن انتهى العقد مع المؤسسة في عام ١٨٧٦م، فإن القنصل البريطاني -بسبب تجربته السابقة التي انتقدت لعب دوراً أقل، أضف إلى ذلك المؤسسة تصدعت لصراع عائلي داخلي، مما منع المهتمين من العائلة من رفع مقدار الالتزام الضروري للمحافظة على تجديد العقد، وقد وجد السيد برغش في ذلك فرصة سانحة لتحويل الالتزام لمؤسسة أخرى[٢٠].

وقد أدى فشل عائلة سوجي في تقديم عرض أفضل إلى إبرام عقد الالتزام مع مؤسسة اخرى، وهي الفترة الوحيدة التي امتدت لمدة خمس سنوات والتي لم يكن فيها ملتزم الجمارك هندوسياً، فلقد تحول عقد ملتزم الجمارك إلى أحد الملتزمين المسلمين، وهو الثرى المسلم "تاريا توبان"، والذي كان خلال تلك الفترة صديقاً وكاتم أسرار السلطان، وبلغت قيمة عقد الالتزام ٤٥٠,٠٠٠ دولار سنوياً، وقد ادّعت مؤسسة جيرام سوجي أن التغيير بسبب ديون على السيد برغش بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠، في الوقت الذي ردّ السيد برغش بادعاءات مضادة لما تدعيه مؤسسة سوجي.

وبعد مضي فترة من الزمن على إدارة مؤسسة تاريا توبان لإدارة الجمارك، أعلنت أنها لا ترغب في تجديد العقد إذ وجدت أن المصروفات تستهلك جزءاً كبيراً من العائدات خاصة وأعلن في عام ١٨٧٨م، عدم رغبته في التجديد كملتزم للجمارك إلا إذا خفضت الرسوم السنوية بمقدار ٥٠,٠٠٠ دولار ماريا تريسا، وهو ما لم يرغب السيد برغش الالتزام به، بل كان يفكر في زيادة قيمة الالتزام[٢١].

وبالفعل رفض السيد برغش التخفيض، وفي أغسطس من عام ١٨٨٠م، أعيد العقد مرة أخرى لمؤسسة جيرام سوجي، والتي زادت قيمة العقد إلى ٥٠٠,٠٠٠ دولار ماريا تريسا سنوياً، واستمرت في عائلته حتى سيطر البريطانيون على الأمور في سلطنة زنجبار وإعلان الحماية عليها في عام ١٨٩٠م، والتي أعيد فيها ترتيب الأمور الإدارية والمالية[٢٢]. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن زيادة قيمة العقد تعكس التطور الاقتصادي الذي شهدته سلطنة زنجبار وشرق إفريقية. كما يبيّن الدور الذي لعبه افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م، في التجارة العالمية، وكما أشرنا سابقاً إلى تطور دخل السلطان في الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، مما أزاح عن كاهل السلطان مديونيته لملتزم الجمارك.

الهنود والإقطاعيات الزراعية:

ذكر القنصل البريطاني في عام ١٨٧٣م، بأن المبلغ الذي يستثمّره الهنود في زنجبار يصل إلى ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، وهو مبلغ ضخم في تلك الفترة الزمنية، كما ذكر أن مؤسسة هندية واحدة اطّلع على سجلها بسبب منازعة قضائية تملك ٤٣٠,٠٠٠ حين تستثمّر في القروض والرهن[٢٣]. وهذا يوضح نقطتين في غاية الأهمية، وهما استغلال الهنود لسياسة القروض وبفوائدها الفاحشة ثمّ عملية الرهن، والتي غالباً ما يتبعها الاستيلاء على ما يُرهن، أضف إلى ذلك تحويل الجالية الهندية من طبقة تجار محليين إلى جسم أجنبي يستخدم من قبل القوة الأجنبية للسيطرة على الاقتصاد العربي في سلطنة زنجبار العربية،، وهذا ما لعب دوره في جعل الهنود ينعزلون ويخلقون فجوة بينهم وبين المجموعات العرقية الأخرى، مثل ما هو بين المديونين من ملاك الأراضي العرب والدائنين الهنود، وهذا ما سوف يقودنا للحديث حول الهنود والإقطاعيات الزراعية.

من المعروف أن الهنود سماسرة ووسطاء العمليات التجارية، ولم يكن تملّك الأراضي يثير اهتمامهم بدرجة كبيرة، وكان السيد سعيد بن سلطان،-عندما استقر في عاصمته الجديدة زنجبار- قسّم الشعب إلى مجموعة طبقات كل لها اختصاصها، فأعطى الأراضي للعرب، بينما كان نصيب الهنود السمسرة والعمليات التجارية، أما السواد الأعظم من السكان فأنيط بهم خدمة العرب والهنود كأيدي عاملة، وقد عَمِلَ العرب في الزراعة، ومن أهم المنتجات الزراعية القرنفلِ الذي تم التوسع بزراعته حتى أصبح العمود الفقري للاقتصاد الزنجباري، بل إن زنجبار أصبحت تنتج ٩٠% من الإنتاج العالمي[٢٤].

ونتيجة لحاجة الملاك العرب للأموال جعلهم يقترضون من الهنود الذين يتوفر لديهم السيولة النقدية، ثمّ أخذ العرب ونتيجة للثراء يهملون إقطاعياتهم الزراعية ويجعلون

الغير يشرف عليها، كما كان العرب يسكنون في إقطاعياتهم الزراعية واضطر الكثير منهم إلى سكن المدينة، مما ترتب عليه إهمال الإقطاعيات، ومع تراكم الديون أو نتيجة لعدم توفر السيولة المادية أو نتيجة لطبيعة العرب في الكرم والضيافة وبسط اليد لعدم وجود بنوك أو خدمات لملاك الأراضي، اضطر الكثيرون إلى رهن أراضيهم لدى المقرضين الهنود وجلهم من المرابين، وفي حالة فشل العربي في سداد ما عليه من التزامات فإن المرابي الهندي يطالب بحقه، مما يترتب عليه تحول العديد من الإقطاعيات العربية للمرابين الهنود أو استغلال الهنود واستثمار الإقطاعية للحصول على ديونه[٢٥].

لم يكن الهنود من الحريصين على تملك الإقطاعيات الزراعية، وبسبب عدم تفرغ العديد منهم لإدارة الإقطاعيات الزراعية، فإنهم يلجؤون إلى تأجيرها إلى بعض العرب لاستغلالها، ومن المفارقات أن العرب لم يكونوا يلجأوا إلى استخدام الثيران للحرث أو حتى لنقل المنتجات للسوق حتى لا يغضبون الهنود شركاءهم في العمليات التجارية[٢٦]، وقد عمل العرب جهدهم للحد من انتقال الإقطاعيات الزراعية للهنود، ولعل من الأمثلة على ذلك ما قام به العرب بعد تولي السيد برغش مقاليد الحكم من الشكوى له حول تصرفات الهنود، ففي عام ١٨٧٠م، قام عدد من المتنفذين العرب بالطلب من السيد برغش التدخل لحمايتهم من الجشع والتسلط الهندي.

وبالفعل قام السيد برغش بتشديد لهجته ضد الجالية الهندية في زنجبار متهماً مجموعة هندية بسرقة قرنفل من مزارع عربية، وأمر بإخراج جميع الهنود من الإقطاعيات العربية، وحرَّم على الهنود الاتجار خارج حدود المدينة، وللإيضاح نشير إلى أن بعض ملاك الأراضي يبيع الإنتاج مطروحاً على الأرض، أي بمعنى أن من يرغب في الشراء عليه الحضور ونقل ما تفق عليه، مما يوفر على الملاك أجرة النقل إلى السوق لعرضه، وكان عدد من الهنود يقومون بشراء المنتج من أصحابه ثمّ يقومون

بسرقة محصول القرنفل، بينما القضية الأساسية تحول العديد من الأملاك العربية للمقرضين الهنود، وهي محاولة لمنع سقوط المزيد من الأراضي بيد الهنود[٢٧].

وقد قام الهنود بتحريض القنصل البريطاني ضد السيد برغش، وتدخل القنصل البريطاني بحجة أن الهنود من رعايا بريطانية، ولهذا فإنه حسب الاتفاقية التجارية التي وقعتها بريطانية مع السيد سعيد عام ١٨٣٩م، فإن رعايا بريطانية لهم مطلق الحرية في السكن والاتجار والاستقرار في أي مكان من الأراضي التابعة للسيد سعيد بن سلطان، ونجح القنصل البريطاني في إقناع السيد برغش بالتراجع عن قراره والسماح للهنود بالاتجار في أي مكان يرغبون فيه دون عوائق[٢٨].

وقد أغضب التدخل البريطاني السيد برغش، ولكنه سريعاً ما أدرك ألا قبل له بتحدي السلطة البريطانية ومعاداة الجالية الهندية، ولهذا انحنى أمام الضغط البريطاني، ويُذكر أنه منذ تلك الحادثة حتى نهاية حكمه أن تجاراً هنوداً أثرياء من أمثال دافجي وتاريا توبان أصبحوا من المقربين له، بل من الذين يعدون من ثقاته ومستشاريه الخاصين[٢٩]. وفي عام ١٨٧١م، تردد السيد برغش قبل أن يسمح لمتعهد الجمارك بإرسال حملة عسكرية لمنطقة ليوني موازي في البر الإفريقي، خوفاً من أن يفتح هذا الطريق لتسرّب الجالية الهندية إلى الداخل آخر معاقل التجار العرب والتي لم يكن الهنود قد سبروا أغوارها بعد، ولهذا من الممكن أن نقول وبدون تردد: أن العلاقة الاقتصادية العربية الهندية والتي شكلت العمود الفقري للسياسة الاقتصادية للسيد سعيد بن سلطان البوسعيدي بدأت تتهاوى، وكذلك حدث في ميدان الوحدة الاقتصادية، التي بدأت هي الأخرى تسير نحو الهاوية، لما بدا عليها من مظاهر اضطراب [٣٠].

وقد ذكرت الأميرة سالمة هول جشع التجار الهنود استغلالهم للناس وخاصة "البانيان" منهم بقولها: إنهم "من أكبر المرابين الجشعين الذين لا يرحمون ضحاياهم". كما تناولت بيرادفجي الهندوسي -مستشار السلطان السيد برغش والذي سوف يكون له

دور في عهد السيد خليفة بن سعيد- والذي ارتقى من وظيفة حلاق ومشعل مصابيح إلى أحد أهم رجالات الدولة بقولها: "وبييرادوجي" هذا هندوسي خبيث الطبع وضيع الأصل وضع نفسه تحت تصرف السلطان (السيد برغش) خادماً وضيعاً حتى غدا رجل السلطان الأول الذي ينهض عنه بالأمور جميعها صغيرة وكبيرة "إنه رئيس وزراء زنجبار، كما لا بد من الإشارة هنا إلى أن بييرادفجي، استُقبل في قصر الأليزيه في باريس في عام ١٨٨٠م، واجتمع مع الرئيس الفرنسي، وهذا يبين المكانة المرموقة التي نجح في الوصول إليها[٣١].

أما "المغيري" فقد تناولهم بقوله: "إن القبائل الهندية على مختلف أجناسها قد امتصت دم ذلك العربي المبذر المتكاسل، وسلبت منه قوّته المالية، وصار ذلك العربي الذي يدّعي السيادة والسؤدد والغنى في هذه الإفريقية الشرقية وفي جزرها، تحت رحمة ذلك الهندي الذي استولى على أعمال التجارة.. فصارت تنتقل أموال العرب شيئاً فشيئاً إلى الهنود، وذلك منذ فارقت العرب السيادة على الرقّيق، فتوغل الهنود في إفلاس العرب أموالهم من شوائب (مزارع) وقصور، ويكمل "المغيري" بذكره: "والحقيقة وافق نزول الهنود في هذه الإفريقية سعداً لا مثيل له، وكما قيل في المثل العربي "ويل للأهل من النازل"[٣٢].

الهنود وجزيرة بمبا:

إذا كانت سلطنة زنجبار العربية قد عانت من إعصار ١٨٧٢م، والذي اقتلع معظم أشجار القرنفل وجوز الهند فإن جزيرة بمبا -(تشكل زنجبار من جزيرتي زنجبار وجزيرة بمبا وعدد من الجزر الصغيرة)- لم تتأثر كثيراً بالإعصار، وفي الثمّانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي أصبح ٨٠% من إنتاج القرنفل يأتي من جزيرة بمبا، وفي الفترة من عام ١٨٧٥-١٨٧٩م، كان الوضع في جزيرة بمبا لا يختلف كثيراً عن زنجبار، وكانت جزيرة بمبا تنتج تقريباً ضعفي ما تنتجه زنجبار،

وكانت أوضاع العرب ليست بأحسن حالاً من زنجبار، وقد أشار "أوسليفان" أول نائب قنصل لبريطانية في بمبا، إلى أن العمل الرئيس للجالية الهندية في بمبا -التي يقدر عددها بحدود ٣٠٠- هو شراء القرنفل من العرب والذي يصدرونه عن طريق القوارب الشراعية إلى زنجبار، وكذلك يسيطر الهنود على الاستيراد، ويديرون بشكل يكاد يكون كاملاً تجارة التجزئة في الجزيرة أو القروض بنسب فاحشة للمُلاّك العرب(٣٣).

وقد أدى ذلك الوضع إلى اضطرار بعض العرب إلى بيع المحصول قبل الحصاد، وبأسعار متدنية من أجل إسكات المرابي الهندي، وهذا ما أثر سلباً في عدم حصول ملاك الأراضي على أسعار منتجاتهم للحد من ديونهم، مما ضاعف من حجم مشكلات الملاك العرب وزاد من أرباح المرابين الهنود، وفي الثمّانينيات من القرن التاسع عشر أشير إلى أن ثلثي الأراضي العربية مرهونة لتجار هنود بكامل إنتاجها، وقد سمح الهنود للعرب لإدارة إقطاعياتهما بسبب عدم تمكن الهنود من الحصول على الأرقاء حيث أن العرب أقدر على توفير العمالة لتلك الإقطاعيات الزراعية(٣٤)، ومما زاد الأمر سوءاً للعرب، إن الهنود أخذوا تدريجياً يتحكمون في الإنتاج والتصدير ويشترون ويبيعون قبل انتهاء المحصول للضغط على ملاكها وللحصول على مكاسب أكبر.

الهنود في البر أفريقي:

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن هذا الأمر ينطبق على مدينة زنجبار، أما التجار الهنود البسطاء المنتشرين في القرى والأرياف وكذلك في البر الإفريقي فإن وضعهم ليس كوضع الهنود في مدينة زنجبار فكثيراً ما يتعرضون للمضايقات خاصة أنهم بعيدون عن أعين الإدارة البريطانية، وعلى سبيل المثال في عام ١٨٨٢م، وفي مدينة ممباسا اشتكى عدد من التجار الهنود للقنصل البريطاني بأن والي ممباسا فشل في

تلبية مطالب لهم ضد عدد من العرب المحليين، كما أشار التجار الهنود إلى سرقات تمت في القطاع الهندي من المدينة[٣٥].

كما ادعوا بأنه في حالة القبض على المتهمين بالسرقة فإنه لا تتم محاكمتهم أو لا يعاقبون العقاب الصارم الذي ينبغي تطبيقه عليهم، وفي عام ١٨٨٣م، أرسل التجار الهنود عريضة للقنصل البريطاني يذكرون فيها، أنه ليس فقط التجار الهنود في ممباسا يتعرضون للسلب والنهب، ولكن الوالي لا يقوم بواجبه للتحقق من تلك الأحداث[٣٦].

ومن الجدير بالذكر أن أعداد الذين يتوغلون في الداخل هي أعداد محدودة، ومع ذلك بدأت أعداد من المسلمين بالتوغل شيئاً فشيئاً، وتعتبر طائفة الإسماعيلية من الطوائف الإسلامية التي جازفت بالدخول إلى العمق الداخلي، ومن أشهر أبناء هذه الطائفة شخص يدعى "موسى مزوزي" الذي قدم من "سرت" للانضمام لشقيقه الأكبر الذي كان يتاجر في زنجبار، واللذان اتجها بعد ذلك إلى "يونيا موازي" واستمر موسى بالمتاجرة بعد وفاة شقيقه وأسس إمبراطورية تجارية في "تبورا". و أقام منطقة استقرار جذبت إليها أعداداً متزايدة من التجار من جميع الأعراق البشرية[٣٧].

ويذكر "بارتل فريز" في عام ١٨٧٣م، وفي تقرير أعدّه لوزارة الخارجية عن الجالية الهندية بأنه في تاريخ التجارة لا يعرف شيء مماثل للتجارة الواسعة التي أقامها التجار الهنود واحتكروها بهدوء بين الأعوام ١٨٢٠-١٨٧٠م، ويذكر "فريز" أنه خلال رحلته على طول الساحل الشرقي الممتد من موزمبيق إلى خليج جوردفون، لا يكاد يذكر أنه قابل صاحب متجر لم يكن هندياً[٣٨].

لقد لعب الهنود دوراً مهماً في تجارة شرق إفريقية ورغم ازدياد المشاركة الأوروبية في التجارة، فقد نجح التجار الهنود في المحافظة على وضعهم المميز. بل يكاد المرء يقول: إن الواردات لا يمكن توزيعها للزبائن المحليين في الداخل دون الوكالات الهندية. كما أن الشحنات الأوروبية والأمريكية من البضائع يتم شراؤها عن طريق

مؤسسات هندية، ومن ثمّ إعادة بيعها لموزعين هنود على كل الساحل الشرقي لأفريقية، كما أن التاجر الهندي هو من يقوم بشراء المنتجات المحلية المتنوعة من تجار محليين من الداخل، ثمّ يقوم هو بدوره بتصديرها مباشرة إلى الهند أو إعادة بيعها لتجار أوروبيين في سلطنة زنجبار العربية، وكانت أغلب الصادرات، العاج والرقّيق والقرنفل وحبوب السمسم والقواقع البحرية والصمغ(٣٩).

الهنود وتجارة الرقّيق:

عرف الرقّ وتجارة الرقيق منذ القدم ومارسه أغلب من تاجر مع شرق القارة الإفريقية، والهنود كغيرهم من الأعراق البشرية الذين تاجروا واستقروا في شرق إفريقية وساهموا بطريقة أو بأخرى في الرقّ وتجارته، وتعدّ زنجبار مركز تصدير بينما تعدّ كلوة، مركز تجميع للأرقاء، وتستورد زنجبار بمعدل ١٥,٠٠٠ عبد في السنة، يتم نقلهم بعدها وشحنهم خارج زنجبار. وكان تجّار الرقيق يتوغلون في الداخل للحصول على حاجاتهم من الأرقاء سواء عن طريق الشراء أو الخطف، وعادة تتم الرحلة كقافلة وتستغرق عدة أشهر، ويعدّ التجار الهنود من أهم الممولين لهذه القوافل التجارية التي تتوغل في الداخل للحصول على الأرقاء(٤٠).

وكان العرب والسواحيليون يقودون هذه القوافل بينما يقوم التجار الهنود بالتمويل، والذي يتمّ بعدة طرق منها:

أولاً: قوافل الأرقاء:

يحصل قادة القافلة على حاجتهم من المأكل والملبس، وكل ما تحتاج إليه القافلة من الممول الهندي، على أمل عندما تعود القافلة أن تدفع أثمّان تلك الحاجيات سواء عملة نقدية "وكانت العملة في ذلك الوقت دولار ماريا تريسا، يحصلون عليها من بيع الأرقاء على الساحل" أو بضائع من منتجات الداخل أو بقيمتها من العاج(٤١).

وحسب الوثائق المتوافرة، لم يشارك الهنود مشاركة فعلية في تلك القوافل وتركت المهمة للعرب والسواحليين، ولكن كانت مشاركتهم بالتمويل المادي، الأمر الذي أدى إلى توسع تجارة الرقيق في الداخل، فلولا التمويل لعجز الكثيرون عن التوغل في الداخل وهذا يعني الحدّ من الرقّ وتجارته، إنّ ما أشرنا إليه لا يعني أن الهنود لم يشاركوا في البيع أو الشراء كما سنبين لاحقاً، وإنما يعني أنهم لم يتوغلوا في العمق الداخلي بحثاً عن الأرقاء.

ثانياً: رسوم الجمارك:

كان من مصلحة العديد من الهنود استمرار تجارة الرقّيق، وتكمن أهميتها بالنسبة لهم من الناحية المادية، إذا إن الوكلاء الهنود لملتزم الجمارك الذين يتواجدون على طول الساحل الشرقي للقارة الإفريقية يحصلون منذ عام ١٨٤٦م، مقابل كل رقيق عبر الميناء على مبلغ محدد وهو دولار ماريا تريسا، إلا أن الرسم قد تضاعف في عام ١٨٧١م، إلى دولارين ماريا تريسا[٤٢]، ولك أن تتخيل ما يجنيه الوكلاء الهنود مقابل مرور العبيد في تلك الموانئ خاصة كما أشرنا آنفاً إلى الأعداد الكبيرة من الأرقاء الذين يعبرون هذه الموانئ متجهين إلى كلوة، مركز التجمع وزنجبار، مركز التصدير.

ولهذا فإن من الاهتمامات الأساسية للوكلاء، معرفة كل ما يدور حول الرقّ وتجارته من بيع وشراء، ليعرفوا ما سيدره عليهم من أموال، ومن هذا المنطلق فإن التجار الهنود يعتقدون أن من مصلحتهم توسع هذه التجارة لا القضاء عليها، كما أن السيد برغش ومن قبله سلاطين البوسعيد كانوا يحصلون على نسبة كبيرة من هذا الدخل حسب عقد التزام الجمارك[٤٣].

وهنا لا بد من التأكيد على أن ما يُمَارَس في شرق إفريقية هو نخاسة وبيع وشراء لا علاقة له بالدين الإسلامي، صحيح أن الإسلام لم يحرّم الرقّ وحثّ على العتق وشجعه وعدّ عتق الرقّبة من الأعمال العظيمة التي يثاب عليها المسلم، كما حاول الإسلام

تجفيف منابع الرقّ وحصرها في أسرى الحروب مع غير المسلمين، أما الهندوس فلا يعدّون أن الاسترقاق جريمة أخلاقية، وأن امتلاك الأرقاء والاستفادة بهم لا غبار عليه، فلا عجب أن الهندوس منذ الأيام الأولى لقدومهم شرق إفريقية اشتروا العبيد أو وظفوهم لديهم، ولكن ليس من بأعداد كبيرة مثل العرب والسودانيين من أصحاب الإقطاعيات الزراعية الكبيرة، ومع هذا امتلك عدد من الهنود إقطاعيات كبيرة تدار عن طريق الأرقاء.

وبما أن الهنود تجار ووسطاء العمليات التجارية فإنهم كانوا يحتاجون إلى أعداد قليلة من الأرقاء للخدمة المنزلية أو في مؤسساتهم التجارية، ويحصلون عليهم بالشراء أن بتأجيرهم من ملاّكهم السواحيليين، أو العرب، كما أن بعض الهنود وعلى وجه الخصوص الهندوس وبسبب أن أعداداً منهم كانوا زوجات فإنهم لجأوا لامتلاك المحظيات(٤٤).

ومن المعروف أن بريطانية قد نجحت في توقيع عدد من الاتفاقيات الخاصة بتحريم تجارة الرقيق في عهد السيد سعيد، وخاصة اتفاقيتي ١٨٢٢م، و ١٨٤٥م، والتي بموجبها وافق السيد سعيد، على وقف تجارة الرقيق من أملاكه في شرق إفريقية إلى العالم الخارجي، مع احتفاظه بنقل الأرقاء من ميناء إلى آخر على طول الساحل الشرقي لإفريقية والتي تقع ضمن أملاكه، ورغم التشدد البريطاني للحد من الرقّ وتجارته، إلا أن أعداداً كبيرة تم تهريبها إلى العالم الخارجي. ولا يعدم مروّجوا الرقّ وتجارة الرقيق الوسائل والسبل لإنجاح مهمّتهم. وهنا لا بد من التأكيد على أن سياسة محاربة الرقّ وتجارته التي تبنتها بريطانية بدوافع إنسانية لا تعدوا في حقيقتها سوى رغبة بريطانية في استغلال هذه السياسية للتدخل في الشؤون الداخلية للسلطنة العربية وفرض هيمنتها وتحقيق مصالحها على طول الساحل الشرقي للقارة الإفريقية.

وكما أشرنا في البداية تمّ تنصيب السيد برغش سلطاناً على زنجبار في عـام ١٨٧٠م، وكان القنصل البريطاني "تشرشل" قد قام قبيل تولية السيد برغش بدعوته عندما اشـتد المرض على السيد ماجد بن سعيد، وابلغه برغبة الحكومة في دعمه في حال توقيعـه اتفاقية جديدة للحد من تجارة الرقّيق، تلك الاتفاقية التي اقترحتها وزارة الخارجية، ولم يمانع السيد برغش من توقيع الاتفاقية في حال عرضت عليه السلطنة فـي زنجبـار، وأبلغ تشرشل بأنه سوف يعمل ما بوسعه، وعندما أرسل "تشرشـل" "كـيرك" للسـيد برغش في اليوم التالي لمناقشة اتفاقية تجارة الرقيق نفى السيد برغش إعطاء مثل هـذا الوعد الذي سوف يضر بالسلطنة العربية ومواطنيها، مما دفع بـ "تشرشل" إلى إرسال تقرير إلى حكومة بومبي(٤٥).

وفي عام ١٨٧١م، عيّنت لجنة برلمانية مختارة من مجلس العموم البريطاني للنظر في موضوع الرقّ وتجارته في شرق إفريقية، وكان ضمن أعضائها "بارتل فرير" -الـذي سوف نتناول بعثته إلى زنجبار لاحقاً- والأدميرال البحري "هيث"، وخلصت اللجنـة إلى القول: إن التجارة في الرقيق في الساحل الشرقي لإفريقية محصـورة أولاً بيـن أملاك السلطنة العربية في زنجبار، ومن الناحية الثانية بينها وبين سـاحل الجزيـرة العربية وفارس وجزيرة مدغشقر، وتعتقد اللجنة أن الجزء الأكبر من التجـارة يميـل إلى الاتجاه الأول. ويشار إلى أنه خلال الفترة من ١٨٧٨-١٨٧٠م، تم القبض علـى ١٠٩ سفينة شراعية تحمل أرقاء وكان عددهم من ١٩-٨٧ عبداً في كل سفينة، كمـا ذكر أنه خلال عام ١٨٧٠م فقط ٣% من السفن الشراعية تعاملت بتجارة الرقّيق(٤٦).

الهنود وبعثة بارتل فرير:

وقد اقترح "بارتل فرير" على اللجنة إنشاء مستعمرة للرقيق المحرريـن جنـوب دار السلام، كما اقترح الأدميرال البحري "هيث" اقتطاع منطقة من أملاك زنجبار سـواء بموافقته أو استخدام القوة لإيواء العبيد ولتكون مركزاً لنشر الحضارة الغربيـة فـي

إفريقية، وكان نشر الحضارة يعني حسب مفاهيمهم نشر المسيحية في إفريقيـــة، وقــد لعب وباء الكوليرا ١٨٧٩-١٨٧٠م، وإعصار ١٨٧٢م، الذي ضرب زنجبار ودمّـــر أشجار القرنفل وجوز الهند دورهما في القضاء على الرقّ، وهو ما اســـتغلته الإدارة البريطانية خير استغلال(٤٧)، ولتوضيح ذلك نقول بأن وباء الكوليرا حصد أعداداً كبيرة من الأرقاء كما حصد غيرهم، كما دمّر الإعصار أعداداً هائلة من أشـــجار القرنفـل وجوز الهندا التي تعمل عليها الأرقاء.

وكانت مهمة وضع سياسة جديدة تجاه الرقّ وتجارته قد حُولت إلى لندن وإلى لجنـــة تمثل وزارة الخارجية ووزارة الهند ووزارة المستعمرات والبحرية، التي لـــها نشــاط واضح في محاربة تجارة الرقّيق، واقترحت اللجنة إعفاء سلطنة زنجبـــار مـــن دفـــع مساعدات إلى مسقط، تلك المساعدات التي تم الاتفـــاق عليـــها عندمـــا تـــم تقســـيم الإمبراطورية العمانية، وإمكانية السماح بزيادة الضرائـــب علـــى العـــاج والصمـــغ، والسماح بتجارة رقيق محدودة لتلبية الاحتياجات الزنجبارية، وتتقلص تدريجياً حتـــى تنتهي للقضاء على تلك التجارة.

وكانت الافتراضات التي تمّ مناقشتها أن القضاء على تجارة الرقيق في الحـــال، مـــن الممكن أن يؤدي إلى ثورة ضد السلطان، كما أن المساعدات إلى مسقط سوف تتكفـــل بها وبشكل مشترك وزارتا الهند والخارجية، وأخيراً رأت اللجنة أنـــه يجـــب تعزيـــز النفوذ البريطاني عن طريق زيادة الإدارة القنصلية البريطانية في زنجبـــار، وتشـــجع التجارة البريطانية بإنشاء خط ملاحي بخاري إلى زنجبار(٤٨).

ولم يثنِ الحكومة البريطانية في لندن أو الإدارة البريطانية في زنجبار اعتراض السـيد برغش على الاتفاقية بل عملا على إجباره على الاقتناع وبأية وسيلة، وقد قام "بـــارتل فرير" حاكم بومبي السابق وعضو مجلس الهند بالعمل جاهداً على كسب الرأي العـــام للقضاء على تجارة الرقيق وللحصول على مكاسب سياسية في زنجبـــار، وفـــي عـــام

١٨٧٣م، أعلنت الحكومة البريطانية نيتها القضاء على تجارة الرقيق عبر البحر، ولتعطي أهمية وقوة للجنة الخاصة التي أقامتها لمناقشة اتفاقية جديدة للقضاء على الرقّ فإنها أعطت "فرير" ليقود هذه اللجنة ورافقته إلى زنجبار أربع سفن حربية[٤٩].

أخذت العلاقة بين القنصل البريطاني والسيد برغش تسوء بسبب رفض الأخير التوقيع على اتفاقية محاربة الرقّ وتجارته في سلطنة زنجبار العربية، وكان السيد برغش قد بنى رفضه للاتفاقية على أن هذه الاتفاقية غير مقبولة من قبل أهالي زنجبار، ومن الممكن أن تقود إلى الثورة عليه، كما ذكر السيد برغش بأن تطبيق بنود الاتفاقية يضر بمصالح أصحاب الإقطاعيات الزراعية ممن يعتمدون على الأرقاء كأيدي عاملة خاصة، وكما أشرنا إلى تعرض زنجبار إلى إعصار مدمر اقتلع أغلب أشجار القرنفل في زنجبار. وكذلك وباء الكوليرا الذي قضى على أعداد كبيرة من الأرقاء.

وطالب السيد برغش ومستشاريه بفترة زمنية للقضاء على الرقّ، أو بالسماح سنوياً لعدد بين ٢٠٠٠-٣٠٠٠ عبداً في السنة لتوفير حاجات زنجبار من الأيدي العاملة، وقال كلمته المشهورة "بأن الحربة مسددة لكلتا عيني فأيهما اختار لأن أطعن بها"[٥٠]. ما يدل على الوضع السيئ الذي وجد السيد برغش نفسه فيه فهو بين مطرقة الإدارة البريطانية وسندان أصحاب الإقطاعيات العرب.

وقد هدده "فرير" بأن على زنجبار أن تدفع لمسقط ما اتفق عليه من أموال، وأن بريطانية سوف تصر على الحصول على تنازل مماثل لبريطانية فيما يتعلق بالصمغ والعاج من البر الإفريقي، والتي منحها ماجد للفرنسيين، ولكن السيد برغش لم يتزحزح عن موقفه، وقد أشار "فرير" إلى أن أحد أسباب فشله يعود لتأثير القنصل الفرنسي في زنجبار، وكانت فرنسة تتخوف من أن ما يترتب على هذه الاتفاقية هو مزيد من السيطرة البريطانية على السياسة الداخلية والخارجية لزنجبار، ولهذا من الممكن تفسير الموقف الفرنسي[٥١].

كما برزت أطروحات بأن السيد برغش من الممكن أن يلجأ لطلب الحماية الفرنسية، وأود أن أشير هنا إلى أن أحد الأسباب التي تغفلها بريطانية حول فشلها في القضاء على تجارة الرقيق هو أن القوافل المتجهة إلى الداخل التي تحمل بضائع للمتاجرة من ضمنها بضائع بريطانية كالأسلحة و الذخائر التي تجد سوقاً رائجاً في الداخل، والتي من خلالها يتم القبض على الأرقاء وتسهل انسياب البضائع البريطانية على طول خط القوافل إلى الداخل، ولهذا فلا عجب أن فشلت العديد من الاتفاقيات للحد من تجارة الرقّيق(٥٢).

وقد دفع هذا الموقف بالسيد "فرير" في ١٣ فبراير ١٨٧٣م، إلى مخاطبة الحكومة البريطانية في لندن بأن أمانيهما وأماني العالم الحر لم تجد آذاناً صاغية، وقدم مجموعة من المقترحات والتي من ضمنها محاصرة سواحل سلطنة زنجبار العربية، والتي لو طبقت لكانت بمثابة إعلان حرب على السلطنة العربية. وفي ١٤ مايو اتخذت الحكومة البريطانية قرارها بأنها سوف تذهب إلى حد الحرب ضد السيد برغش إذا رفض توقيع الاتفاقية، ولم يكن أمام السيد برغش من خيار سوى الموافقة على الاتفاقية، التي تشير إليها الأميرة "سالمة" بأنها وضعت بلاد زنجبار تحت السلطة البريطانية(٥٣).. وقد عمل السيد برغش جهده على عدم توقيع الاتفاقية، ولكنه أجبر تحت التهديد على التوقيع والذي تم فعلياً في ٥ يونيو ١٨٧٣م، والتي بموجبها تم تحريم نقل الأرقاء من موانئ الساحل إلى أي ميناء آخر من أملاك السلطان أو إلى أي بلاد أجنبية، وإغلاق أسواق النخاسة في المناطق التابعة لسلطان زنجبار، وفي الاتفاقية التي وقعها فقرة خاصة حول امتلاك الهنود للأرقاء ويشير النص إلى أن مواطني الدويلات الهندية تحت الحماية البريطانية لا يحق لهم امتلاك الأرقاء ويمنعون من امتلاك أرقاء جدد(٥٤).

وقد أرسل وزير الخارجية البريطانية إلى القنصل البريطاني في زنجبار بأن يتعامل في الحال مع أي من أبناء الطائفة الهندية ممن يتعامل بشراء الأرقاء أو من يمتلك أرقاء ويكونون تحت تصرفه، ولضمان تطبيق هذه التعليمات قام "جون كيرك"

أولاً: في سبتمبر ١٨٧٣م، بالقبض على أحد التجار الهنود المتنفذين بسبب امتلاكه لأرقاء، وتمّ إبعاده إلى بومبي عقاباً له وليكون عبرة للجالية الهندية، وبعد القبض على تاجر هندي آخر، فإن الجالية الهندية أنهت اعتراضها ووافقت على المطالب البريطانية التي تحرم على الهنود امتلاك الأرقاء[٥٥]. وهنا لا بد من التأكيد على أن فترة الصراع بين الجالية الهندية والإدارة البريطانية على حق الهنود بامتلاك الأرقاء، ذلك الصراع الذي قاده السيد "سعيد" ضد "هامرتون" القنصل البريطاني انتهى إلى غير رجعة، فقد فرض البريطانيون قوانينهم وبما يخدم مصالحهم.

ثانياً: قام "جون كيرك" بجولة تفقدية على طول الساحل الشرقي لإفريقية من ممباسا متجهاً شمالاً، كما قام مساعدة القنصل الكابتن "التون" بجولة تفقدية أخرى ولكن من ممباسا وإلى الجنوب، وكانت المفاجأة تلك الأعداد الكبيرة من الأرقاء التي لا زال يملكها الهنود على طول الساحل الشرقي لإفريقية، ومع ذلك لم يواجه صعوبة في جعل الهنود يحضرون أرقاءهم ليتم إعتاقهم[٥٦].

وكانت الإجراءات التي اتبعها "كيرك" في ممباسا في عام ١٨٧٣م، تكاد تكون مماثلة لما فعله على طول الساحل، وكان حيث يصل يرسل تعليماته لجميع الهنود ممن يملكون أرقاء للمثول بين يديه في اليوم التالي بغرض إعلان أي عبد من العبيد إعتاقه، وفي تلك الحال يتم تسجيل اسم المالك وعبيده، وكل عبد من العبيد يحصل على صك بحريته يكتبه قاضي ممباسا باللغة العربية ويوقع عليه أيضاً "جون كيرك" ليعطيها قوة إضافية، ويقال للأرقاء بأن بإمكانهم العمل مع ملاكهم السابقين مقابل أجر مدفوع يتفق عليه بين الطرفين[٥٧].

ويذكر أن السير "جون كيرك" نجح في إعتاق نحو ٢٢١ عبداً من ملاّكهم الهنود في غضون ثلاثة أيام[٥٨]، ومن الملفت للنظر أن نصف العبيد الذين تمّ إعتاقهم فضلوا العمل مع ملاكهم السابقين بصفة عمال أحرار، كما قام "جون كيرك" بزيارة إلى ماليندي ممبروي ولاموسيو وويسن، أما كابتن "التون" نائب القنصل فقد نجح في إعتاق أرقاء مملوكين لهنود في نانجاني، ودار السلام، ويغامويو، وكولسي، وكلوة، وكانت المحصلة التي تمكن القنصل ونائبه من إعتاقها ١٨٨٧م عبداً، وفي عام ١٨٧٥م تم تحرير ٢١٣ عبداً في الجزيرة الخضراء و٦٤ في تانغا[٥٩].

وفي عام ١٨٨١م، أبلغ "جون كيرك" وزير الخارجية البريطانية بأن أغلبية أبناء الجالية الهندية تقبلوا فقدان اليد العاملة من أرقائهم بسبب إعتاقهم، ويذكر أنه قبيل مغادرة "جون كيرك" عائداً إلى لندن استلم خطاباً موقعاً عن طريق جميع المتنفذين الهنود في زنجبار، والذي أكدوا فيه "إنهم الآن يقدرون تصميمه" على عدم إبقاء ملاك رقيق بينهم وأن ما قام به له تأثيره في تحول رأس المال إلى قنوات شرعية أي من تجارة غير شرعية إلى تجارة شرعية، ومن الملاحظات الجديرة بالاهتمام أن نصف تكاليف رحلة "فرير" دفعت من قبل حكومة الهند[٦٠].

الهنود وأدوار أخرى:

لقد استغلت الحكومة البريطانية في لندن والإدارة البريطانية في زنجبار الجالية الهندية للتدخل في الشؤون الداخلية للسلطنة بحجة أنهم من رعايا بريطانية، مما مكنها أن يكون لها اليد العليا في أمور السلطنة العربية[٦١]، كما أن دعم ومساندة ملتزم الجمارك وشركة الهند الشرقية وإنشاء القنصلية في زنجبار تحت هيمنة حكومة بومبي، حيث كان الهدف الأساسي للقنصل البريطاني -حتى الثمانينيات من القرن التاسع عشر- تعزيز استخدام التجار الهنود، لما أطلق عليه "التجارة المشروعة" ضد تجارة الرقيق

غير المشروعة، أي الهنود ضد العرب، ولهذا تم تعزيز التشريعات القانونية عليهم كرعايا بريطانيين(٦٢).

كما لعب الهنود كوسيط لتوسيع التجارة البريطانية أي ينقلون ما يصل إلى الهند إلى الساحل الشرقي لإفريقية، فلا غرابة بعد عام ١٨٧٠م، أن تطوّرت العلاقات بين زنجبار وبريطانية وزاد عدد السفن التجارية البريطانية التي تأتي أو تخرج من سلطنة زنجبار العربية. إضافة إلى ذلك نظر إلى عدد التجار الهنود من البرجوازيين والأسرة البوسعيدية كأدوات للتوسع الاستعماري البريطاني في الداخل الإفريقي، فكلما امتد النفوذ البوسعيدي، فهذا يعني بطبيعة الحال التوسع البريطاني(٦٣)، كما لا بد من تناول دور الهنود في دعم بعض التجار العرب ممن اندفعوا للتجارة في الداخل، ومن أشهر هؤلاء حميد المرجبي المعروف "بتيبو تيب"، ونتيجة لما كسبه من ثراء ونفوذ أخذ السلطان يعتمد عليه في التوسع البوسعيدي في الداخل، وكان حميد الدين المرجبي قد اقترض من أحد التجار الهنود في زنجبار مبلغ وقدره ٨٠٠٠ جنبيه إسترليني، كما قام "تاريا توبان" ملتزم الجمارك في أواخر ١٨٧٠م، بتزويده بالحمّالين والسلاح والبضائع بناء على تعليمات من السلطان السيد برغش بن سعيد، والتي بطبيعة الحال لا تخلو من دعم بريطاني(٦٤).

كما أشار العديد من الرحالة والمستكشفين -وخاصة ممن نشطوا في شرق إفريقية- إلى المساعدات والخدمات التي قدمت لهم من قبل العديد من أثرياء الهنود في سلطنة زنجبار أو على طول الساحل الشرقي لإفريقية أو في العمق الإفريقي، ولا تخلو سجلات الرحالة والمستكشفين من ذكر الهنود وغيرهم وما قدموه لهمّ من خدمات، ونحن نعرف ما قام به الرحالة والمستكشفون من أدوار، وما ترتب عليه نشاطهم من فتح للقارة على مصراعيها ونهب لثرواتها وخيراتها وتكالب على استعمارها، بل إن العلاقة بين الهنود والمستكشفين الغربيين وصلت إلى مرحلة التمويل وتوفير المستلزمات(٦٥).

إن تأييد البريطانيين في الفترة الأولى من حكم برغش وتوطيد سلطنة زنجبار في الداخل لأنهم كانوا في أمس الحاجة لتأسيس نفوذهم في الداخل، ثمّ أخذ البريطانيون بعد ذلك بالتحول التدريجي إما بمناصرة الدول الإفريقية أم على المحافظة على التوازن بين القوى المختلفة داخل إفريقية. وما حدث للسيد برغش من إجباره على توقيع اتفاقية ١٨٨٦م، التي قسّمت أملاكه بين بريطانية وألمانية، حدث لمناصريه كحميد الدين المرجبي الذي أجبر على التخلي عن المناطق التي بني عليها دولته في حوض نهر الكونغو، وسهّل البريطانيون على البلجيك احتلالها[٦٦].

كما يمكن الإشارة إلى أن الهنود لعبوا وإلى حد ما، دوراً في إدارة القنصلية البريطانية وعلى سبيل المثال لا الحصر، فعندما توفي القنصلُ البريطاني عام ١٨٥٧م، تولى شؤون القنصلية أحد موظفي الجمارك المهمين من مؤسسة "جيرام سوجي" لمدة شارفت على السنة، فلا غرابة أن كل منهما يحمي مصالح الآخر. وفي الثمّانينيّات من القرن التاسع عشر منح "تاريا توبان" لقب فارس على جهوده لمحاربة الرق[٦٧].

وفي عام ١٨٨٣، فإن المسؤولية القانونية عن الهنود من رعايا بريطانية تحولت، من حكومة الهند إلى الحكومة المركزية في لندن، كما أخذت الحكومة البريطانية بمحاولة التقليل من الاعتماد على التجار الهنود، وهذا التحول من الممكن فهمه، عندما ندرك أنه بعد تقسيم أملاك السلطنة العربية في عام ١٨٨٦م، بين ألمانية وبريطانية تم تأسيس شركة شرق إفريقية الإمبريالية البريطانية في عام ١٨٨٨م، وكان متخذ القرار البريطاني يتخوف أنه بعد التقسيم فإن البريطانيين لا يستطيعون حماية البر الإفريقي من خلال زنجبار كما كان الحال في السابق، وكان قلق البريطانيين يكمن في الخوف من استغلال الألمان للهنود لبناء اقتصادهم التجاري، وقد بنى البريطانيون اعتقادهم وتخوفهم على أنه بعد التقسيم قام عدد من التجار الهنود بالهجرة إلى البر الإفريقي لتوسيع نشاطهم[٦٨].

التعليم والصحة:

لقد أدرك الهنود منذ البداية أهمية التعليم والصحة، وكان القادرون منهم يبعثون أبناءهم إلى الهند للدراسة، كما إن أغلب أبناء الجالية الهندية لديهم الرغبة والقدرة فقد طرحوا فكرة إقامة مدرسة خاصة بهم، ويدرك الهنود بأن رجال البعثات التنصيرية لديهم عدد من المدارس ولكنهم لا يرغبون في دفع أبنائهم لهذه المدارس التنصيرية سواء المسلمين منهم أم الهندوس، وقد سبق وأن تبنت القنصلية البريطانية في علم ١٨٧٦م، فكرة أن يقوم الهنود بتوفير المال اللازم لإنشاء مدرسة ومصحة للجالية الهندية تديرها إرسالية بعثة الجامعات لوسط أفريقيةوتوفر لها ما يلزم من موظفين، إلا أن اقتراح لم يثمّر عن شيء(٦٩).

وفي عام ١٨٨١م، طرح "تاريا توبان" أحد أهم التجار الهنود على القنصل البريطاني أن الجالية الهندية سوف تقوم بتوفير مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ روبية هندية، من أجل إنشاء مستشفى ومدرسة، وقد أعاد "توبان" الاقتراح وأضاف إليه أن تكون الحكومة البريطانية مسؤولة عن المدرسة وأن تقدم مبلغ وقدره ٨٠٠٠ روبية هندية، وقد رفضت الحكومة البريطانية في لندن العرض تاركين "لكيرك" حرية التصرف للعمل على إقامة مدرسة هندية مستقلة، وما تلا ذلك من تعديل الاقتراح في عام ١٨٨٧م، والتركيز على إنشاء مستشفى، والذي وضع حجر أساسه التاجر الهندي "تاريا توبان" وكلف ١٥٠,٠٠٠ روبية هندية، وافتتح لجميع الأعراق في يوليو ١٨٨٧م، أما فيما يتعلق بالمدارس فلم تبدأ إلا بعد الحماية البريطانية على زنجبار ١٨٩٠(٧٠).

الخاتمة:

ارتبط الهنود مع سكان الساحل الشرقي لإفريقية بعلاقات عميقة الجذور، وقد نمت وترعرعت هذه العلاقات في العصر الحديث عندما شجع السيد سعيد الهنود على الاتجار والاستقرار في زنجبار عاصمته الجديدة، بل إنه أناط بهم مهمة السمسرة

والعمليات التجارية وإدارة الجمارك، وبتولي السيد برغش مقاليد السلطة في زنجبار سار على نهج والده، ولهذا تضاعفت أعداد الهنود خلال فترة وجيزة بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية وأعراقهم البشرية، كما تطورت وتوسعت علاقات زنجبار بالعالم الخارجي مما ساهم في زيادة مكاسب الجالية الهندية، وكان لإدراك بريطانية أهمية ودور الجالية الهندية أثره في الحرص على إخضاعها للتشريعات البريطانية، بحجة أنهم من رعاياها، كما استغلتهم بحجة حماية مصالحهم للتدخل في شؤون السلطة العربية الداخلية، وقد وصل الأمر إلى التدخل في مقدار مبلغ عقد التزام الجمارك لما يمثله موقع الملتزم من نفوذ سواء المادي أو الإداري. كما عملت الإدارة البريطانية جهدها لحماية المرابين والمقرضين من الهنود الذين أخذوا يسيطرون على الأراضي العربية بعد أن فشل الملاك العرب في تسديد ديونهم، ولم يوفق السيد برغش عندما تدخل لحماية العرب بسبب تدخل القنصل البريطاني، وهذا لعب دوره في جعل الهنود يتحكمون في الإنتاج والتصدير، بل إن الهنود نجحوا في شراء وبيع المحصول قبل انتهاء موسمه للضغط على ملاكه وللحصول على مكاسب أكبر، وكما ساعدت الإدارة البريطانية الهنود فقد قام الهنود بدورهم بمساعدة الرحالة والمستكشفين البريطانيين وغيرهم، مما ساعد على التوسع البريطاني في الداخل.

لقد تعامل الهنود كغيرهم من الأجناس البشرية بالرقّ وتجارة الرقيق سواء بطريق مباشر كالبيع والشراء أو بطريق غير مباشر كالتمويل، بل إن الهنود يعدون من الممولين الرئيسيين لهذه التجارة البشرية، كما أن من مصلحة ملتزم الجمارك الهندي نمو وتطور هذه التجارة التي يحصل -مقابل كل عبد يمر عبر موانئ شرق إفريقية- على دولاري ماريا تريسا.

وقد نجح التهديد والضغط البريطاني في موافقة السيد برغش على توقيع اتفاقية ١٨٧٣م، للقضاء على تجارة الرقّيق، تلك الاتفاقية التي قدمها بارتل فرير، وقد حرم أحد نصوص الاتفاقية على الهنود امتلاك الأرقاء، ونجح القنصل البريطاني ونائبه من

خلال الإجراءات التي اتخذاها في إعتاق المئات من الأرقاء المملوكين من قبل هنـــود في زنجبار أو على طول الساحل الشرقي لإفريقية.

وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي أوكلت مهمة الإشراف على الـــهنود من رعايا بريطانية إلى الحكومة المركزية في لندن، كما أخذ القلق يساور البريطانيين بعد تقسيم سلطنة زنجبار العربية ١٨٨٦م، من هجرة الهنود إلى البر الإفريقي حيـــث النفوذ الألماني، وتخوفهم من تطويرهم للتجارة هنالك، وكما أدرك الهنود أهمية المـــال والتجارة فإنهم أيضاً لن يغفلوا التعليم والصحة، وقد نجحوا من خلال جهود رحالتـــهم في إقامة مستشفى وانتظروا افتتاح أول مدرسة للجالية حتى إعلان الحماية البريطانيـــة على زنجبار ١٨٩٠م.

الهوامش

١-يعتبر كتاب "الدليل الملاحي للبحر الأرتيري" الذي وضعه ملاح إغريقي في القرن الأول الميلادي من أقدم المصادر التي تناولت الوجود الهندي في شرق إفريقية. بنيان سعود تركي، **الجالية الهندية في شرق إفريقية بين هامرتون والسيد سعيد (١٨٣٢-١٨٥٦)**، المؤرخ المصري، العدد ١٣، ١٩٩٤، ص ١٢-١٧، شوقي عثمان، **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، عالم المعرفة، ١٥١الكويت**، ١٩٩٠،ص٨٧، Agehanada Bharati. **The Asians in East- Africa,** Chicago: Nelson Hall Champagne 199 P17-19. Gogfrey Dale. **The Pople of Zanzibar their Custom and Religious Beliefs**. London: u.m.c.a. 1920., P1,19, **R.G. Gregory, India and East Africa, 1890-1939**. Oxford: Clarendon Press, 1971, PP 9-10. **G. A. Ballard, The Rulers of the Indian Ocean: London, 1927, P. 3.**

٢-سعيد بن علي المغيري، **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار**، تحقيق عبد المنعم عامر، سلطنة عمان: وزارة التراث القومي، ١٩٧٩، ص ٢٢٦.

3- Public Record Office. Forigen Office Records (hereafter cited as F. O.) F. O., 84/1391. No. 58, Memorandum by Sir Baetle Frere regarding Banians or Native of Indian in East Africa. Inclosure 1 in Frere to Granville, 1 Aprol 16, 1876 (hereafter cited as Memorandum). C. S. Nicholls. **The Swahili Coast**. New York, African Publishing Corporation, 1971, P.79.

4- R. Coupland, East Africa and its Invaders, Oxford, 1938 P. 484. Hollingsworth, L. The Asian in East Africa. London: Macmilan & co. 1960, P. 22.

5- Ibid. Norman Bennett. **A. Historry of the Arab State of Zanaibar**. London: Mathuen co. ltd. 1979, P. 115. **F. O. 84/ 1344. Kirka dministrative Report, 1870**. Abdul Sheriff. **Slave, Spices & Ivory in Zanaibar**. London: James Currey, 1987, P.147.

٦-يطلق السواحليون كلمة "بانيان" على كل تاجر هندي بصرف النظر عن معتقده ولفظ بانيان تحريف لكلمة "باتيا" وهي إحدى الطبقات التجارية الهندوسية في الهند

والتي اقترن تاريخها بالاتجار مع الخارج. تركي بنيان، **الجالية الهندية في شرق إفريقية بين هامرتون والسيد سعيد**، مصدر سبق ذكره، ص ١٦، السيد رجب حراز، **إفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي**، القاهرة دار النهضة العربية ١٩٨٦، ص ١١٠، روبرت جيران لاندن، **عمان منذ ١٨٥٧، مسيراً ومصيراً**، ترجمة أمين عبد الله، سلطنة عمان: وزارة التراث القومي، ١٩٦٦، ص ٥٧.
Dale, Godfrey, Op. Cit. P. 20, 99, Hollingsworth, L. **The Asian in East Africa,** op. Cit. P. 22.

7- Ibid, V. H. Ingrams. **Zanzibar its History and its Pople**. London: Frank Cass, 1967, p. 33-35.

8- Ibid. Bharati, Agehananada. Op. Cit, P.24. Dale, Godfrey. Op. Cit. P. 21. F. B. Pearce. Zanzibar the **Island Metoropolis of Easten Africa**. London: T. Fesher Unwin, Limited, P. 254- 255. H. Chattopadhyya. **Indiana in Africa,** Calacutta, 1970, P. 347. المغيري، سعيد، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٥، حراز، السيد، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩-١١٠.

9- Hollingsworth L. **The Asian in East Africa,** op. Cit. P. 28-109 Nicholls, c. op. 78.

10- Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P. 107

11- Ibid. P. 106. المغيري، سعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٢، Fredrick Holmwood. **The tarde between India and the East Coast of Africa.** Journal of the Society of Art. XXX 111 (1884-1885), 422.

١٢- للمزيد من المعلومات حول الصراع بين السيد سعيد وهامرتون القنصل البريطاني انظر: تركي بنيان **الجالية الهندية في شرق إفريقية بين هامرتون والسيد سعيد**، مرجع سبق ذكره Hollingsworth,L. **The Asian in East Africa,** .P. 22

13- Sheriff, Abdul. **Slave, Spices & Ivory in Zanzibar. P 207,** Bennett, N **the Histiry of the Arab tate of Zanzibar.** Op. Cit. P. 98.

١٤- وكانت العملة المتداولة هي دولار ماريا تريسا، وقيمته تعادل أربع مـــرات ونصف الجنيه الإسترليني، تركي بنيان، **الجالية الهندية في شرق إفريقية بيـــن هامرتون والسيد سعيد**، مرجع سبق ذكره، صـ F.O. 881/01936, Inclosure in.
No. 14 Administrative Report of the Zanzibar, Agensy, 1870. F. O. 84/1357. Kirk to Bomby Government Zanzibar, 1872. F. O. 48/1391. Frere to Granville, May 7, 1873. J.C. Mangat, **Asians in East Africa., 1886-1945, Zanzibar under** Colonial **Rule London: James Currey, 1991. P. 167** Oxford: Clarendon Press 1969. P. 167 Sheriff, Abdul. **Slave, Spices & Ivory** in Zanzibar, P. 136. Bharati, Agehananda, op. Cit. P. 22, Hollingsworth. L, **The Asian of East Africa.** Op. Cit. P.21.

15- Ibdul. P. 21 Sheriff, Abdul & Ed Ferguson. Zanzibar under Colonial Rule op. Cit, P. 167. Mangat, J. **Asians in East Africa**. Op. Cit. P. 10. Nicholls, c. op. Cit. 293. المغيري، سعيد، **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبـــار**، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣، ١٦٦، ١٦٥، من المرجح أن جيرام سوجي الـــذي خلف والده في إدارة الجمرك غادر زنجبار في عام ١٨٥٣م، وقد أنـــاب عنـــه وكيله لودامجي ليدير أعماله في شرق إفريقية، وقد توفي جيرام سوجي في عـــام ١٨٦٦م، تركي بنيان، **الجالية الهندية في شرق إفريقية بين هامرتون والســـيد سعيد**، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢-٢٣.

16- Bharati, Agehananda. Op.cit, P. 23. Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P. 21.

17- Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P. 104-105. Sheriff, Abdul. Slave, Spices & Ivory in Zanziba. P. 207.

18- Ibid

19- Ibid

20- Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P. 105-106.

21- Ibid

22- Bharati, Agehananada. Op. Cit, P.24, . Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P. 21.

23- Ibid. P. 28. F. O. 84/1391, Managat, J. **Asian of East Africa**. Op. Cit. P. 19.

24- Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P. 110. ، تركي بنيان ، **الجالية الهندية في شرق إفريقية بين هامرتون والسيد سعيد**، مرجع سبق ذكره، ص ١٨، Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P. 108.

25- Chattopadhyya, H. **Indians in Africa**. Op. Cit. P. 395. Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P. 110.

26- Ibid. P. 112. R. H. Crofton. Apageant of the Spice Island. London, 1936, 86.

27- Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P. 92. **Bharati**, Agehhananda. Op. Cit. P. 26.

28- Ibid. Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P. 24.

29- Ibid. Sheriff, Abdul. Slave, Spices & Ivory in Zanziba. P. 208.

30- Ibid.

٣١- سعيد، سالمة بنت، **مذكرات أميرة عربية**، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٨.

٣٢- المغيري، سعيد، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٦. Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P.110.

33- Ibid. p. 108 Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P.112.

34- L. W. Hollngsworth, **Zanzibar under the Foreign Office**. London, 1952. P. 92, Bharati, Agehananda. op.cit. P 27.

35- Ibid. p. 108 Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P.25.

36- Ibid.

37- Ibid. 26

38- Ibid. p. 27. F. O. 84/1391. No. 53. Frere to **Granville**. May 7, 1873. Robert Lyne **Zanzibar in Contempory Times**. London: Hurst and Blacket. 1905. P. 81.

39- Ibid. p. 108 Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P.28.

40- Ibid. Sheriff, Abdul & EdFerguson. **Zanzibar under Colonial Rule**. Op. Cit. P. 165. **تركي، بنيان، الجالية الهندية بين هامرتون والسيد سعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧.**

٤١- المرجع السابق، F.O.84/1391. Bartle Frere. August 26, 1872. **Memorandum**.

42- Ibid. Sheriff, Abdul & EdFerguson. **Zanzibar under Colonial Rule**. Op. Cit. P. 167.

43- Hollngsworth, L. **Zanzibar under Colonial Rule**. Op. Cit. P. 29, **Bharati, Agehananda**. op.cit. P.24.

44- Ibid. Sheriff, Abdul. **Slave, Spices & Ivory in Zanzibar. P. 147.** للمزيد من المعلومات حول موقف الديانات السماوية من الرقّ والاسترقاق، انظر عبد السلام الترمانيني، **الرقّ ماضيه وحاضره**، عالم المعرفة، العدد ٢٣، الكويت، ١٩٧٩.

45- **Bharati, Agehananda**. op.cit. P.24.

46- **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P.96. Sheriff, Abdul. **Slave, Spices & Ivory in Zanzibar. P. 224.** F.O.84/1391. Bartle Frere. August 26, 1872. **Memorandum.**

47- Ibid. Sheriff, Abdul & EdFerguson. **Zanzibar under Colonial Rule**. Op. Cit. P. Bennett, N.

48- Sheriff, Abdul. **Slave, Spices & Ivory in Zanzibar**. P. 236. Lyne **Zanzibar in Contempory Times**. Op. Cit. P. 75.

49- Ibid. P. 73

50- Iibid. P. 74. Hollngsworth, **Zanzibar under the Foreign Office**. Op. Cit. P. Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit.

51- Ibid. Sheriff, Abdul. **Slave, Spices & Ivory in Zanzibar. Op.cit. P.** 236.

52- Sheriff, Abdul & EdFerguson. **Zanzibar under Colonial Rule**. Op. Cit. P.167.

53- سعيد، سالمة بنت، مذكرات أميرة عربية، مرجع سبق ذكـره، ص ٢٩٣-٢٩٤.
Lyne **Zanzibar in Contempory Times**. Op. Cit. P. 82. F.O.84/1391 Frere to **Granville**. May 7, 1873.

54- Ibid. **Bharati, Agehananda**. op.cit. P.25. R. H. **The Old Consulate at Zanzibar**. London: Oxford University Press. 1935. P. 53.

55- Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P. 98..O.84/1376. No. 126, Kisk to Granville. November 7, 1873.

56- Ibid.

57- Ibid.

58- Ibid.

59- Ibid. Bharati, Agehananda. op.cit. P.25

60- F.O.84/1376. No. 126, Kick to Granville. November 7, 1881. Sheriff, Abdul & EdFerguson. **Zanzibar under Colonial Rule**. Op. Cit. P.170.

61- **Ibid. P. 165**

62- **Ibid. Managat, J. Asians in East Africa.** Op. Cit. P. 18.

63- Sheriff, Abdul & EdFerguson. **Zanzibar under Colonial Rule**. Op. Cit. P.168-169.

64- **Ibid.**

65- **Ibid.** Speke. **What led to the Discovrey of the Nile London**, 1864, P. 169. R. Burton. **Zanzibar, City, Islan and Coast. London: 1872. Vol. 2, P. 11, J. A. Grant A Walk across Africa**, London, 1864. P. 11. Hollngsworth, L. **The Asian of East Africa**. Op. Cit. P.23.

٦٦- صلاح العقاد جمال زكريا قاسم، **زنجبار**، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٥٠.

67- Sheriff, Abdul & EdFerguson. **Zanzibar under Colonial Rule**. Op. Cit. P.168-169.

٦٨- .Ibid. 171، حول اتفاقية ١٨٨٦م، انظر جاد محمـــد طـــه "**دور بريطانيـــة وألمانية في تقسيم سلطنة زنجبار**" "**العلاقات الإفريقية دراسة تاريخية للآثـــار السلبية الاستعمار**" القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٧.

٦٩- للمزيد من المعلومات حول السياسة البريطانية والتعليم انظر: .Bentan Turki
The **British Policy in Zanzibar, 1890-1945**. Un Publish thieses.

70- Bennett, N. **The History of the Arab State of Zanzibar**. Op. Cit. P. 114.

سياسة بريطانية تجاه مشيخات الساحل العماني

١٨٤٠-١٩٧١

الدكتورة كاميليا أبو جبل

جامعة دمشق - قسم التاريخ

المخطط:

المقدمة:

مرّ تاريخ مشيخات الساحل العماني ما بين ١٨٤٠-١٩١٤، بمرحلة تشكّلت فيها البنية السياسية التي قامت عليها الإمارات. ففي عام ١٨٤٠ انتهى الوجود المصري بانسحاب قواته من أقطار الجزيرة العربية جميعها: (نجد والحجاز والخليج واليمن)، بعد أن اصطدمت السياسة المصرية بالسياسة الإنكليزية، خاصة في منطقة الخليج العربي. وتطوّر الوضع إلى سباق بين السياستين استطاعت فيه السياسة الإنكليزية أن تحرز قصب السبق، معتمدة على تفوقها البحري وتحالفها مع الشيوخ والأمراء.

بعد انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية، حدث فراغ لم تستطع أي من دول الخليج ملأه، بسبب تفكك تلك الدول وعجزها وتنابذها من جهة، وبسبب وقوف بريطانية لها بالمرصاد من جهة ثانية. ولم تنجح محاولات الدولة العثمانية والإمارة السعودية ملء هذا الفراغ بسبب الضعف العسكري (خاصة البحري)، مما أفسح المجال أمام القوى الأوروبية مثل إنكلترة وفرنسة وألمانية وروسية، وكلها تملك مؤهلات ساعدتها على التغلغل في المنطقة من أجل السيطرة عليها. ولهذا أصبحت مسألة الخليج، ومن ضمنها المشيخات، مسألة دولية.

عملت بريطانية لبسط سيطرتها وإبقاء المنطقة مفككة عاجزة تنشد الأمان في ظل هيمنتها. وجاء تفجّر البترول فأضاف إلى المنطقة أهمية جديدة، مما زاد بريطانية تشبثاً بها، وتحقق لها ذلك في أواخر الثلاثينيات ومنتصف الأربعينيات.

جاءت أحداث الحرب العالمية الثانية وما بعدها، خاصة المدّ القومي العربي فهزّت الوجود البريطاني وزعزعت أركانه، ولكن واقع المشيخات بقي مفككاً إلى أن قامت الوحدة فيما بينها، نتيجة عوامل داخلية مثل ازدياد الوعي القومي عند بعض الشيوخ، ووحدة التاريخ والتراث المشترك ووحدة الدين والمقومات الجغرافية واللغة الواحدة

والحضارة الواحدة. كذلك يمكن الإشارة إلى عوامل أخرى ساعدت على قيام هذه الوحدة مثل دور جامعة الدول العربية وبعض الوساطات العربية.

وكم يشقّ على النفس أن نكتب عن عصور مديدة ليس فيها إلاّ السيطرة الأجنبية والاستغلال والتحكّم والمنافسة بين القوى الكبرى على هذه المنطقة. وهانحن نكتب اليوم وقد تبدّلت الصورة فارتفعت رايات الاستقلال الرسمي وتحقق قدر من الاتحاد وانمحت الصورة القديمة واستقام الطريق أمام سكان الخليج ليأخذوا مكانهم اللائق بين أبناء العروبة.

الأوضاع العامة للساحل العماني حتى عام ١٨٤٠:

تطلق التسمية على ذلك الجزء من الجزيرة العربية في الخليج العربي الممتد من عمان إلى قطر. وتنقسم هذه المنطقة إلى عدد من الوحدات السياسية التي يمكن ترتيبها من الشمال إلى الجنوب على النحو التالي: أبو ظبي - دبي - الشارقة - العجمان - أم القوين - رأس الخيمة والفجيرة.

الكابتن بريدوكس Prideaux أحد ضباط البحرية الهندية اقترح تسمية الساحل العماني الذي تطل عليه هذه المشيخات باسم الساحل المتصالح Turcial Coast[١]، أو الساحل المهادن. لأن جميع هذه المشيخات كانت مرتبطة بمعاهدات واتفاقيات مع بريطانية قد بدأتها منذ ١٨٠٦. وبالرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تعدّها إمارات مستقلة، لكنها في الحقيقة كانت أقرب إلى المستعمرات البريطانية منها إلى الوحدات السياسية المستقلة.

نجحت بريطانية في تفتيت هذه المنطقة المحدودة السكان والمساحة إلى سبع وحدات تابعة لها، من خلال عملها على تشجيع النعرات القبلية وتعميق النزاعات والخلافات بين الشيوخ الذي كانوا يصلون في مشاحناتهم إلى حدّ القطيعة بالرغم من القرابة التي تربط معظمهم[٢].

ينتمي سكان هذه المشيخات إلى قبائل إياس وآل بوفلاسة، وآل بوعلـــي، والقواســم. فاتحاد القواسم ضم سكان الشمال. واتحاد بني إياس ضمّ سكان الجنوب وغالباً ما كـان يتميز القواسم بالقوة البحرية. أما بنو إياس فتميزوا بالقوة البرية[٣]. ويعيش إلى جـانب العرب الذين يشكّلون الغالبية العظمى من السكان بعض الفرس والهنود والزنوج. ومن المعروف أن هذه المشيخات كانت تفتقر إلى المياه ما خلا بضعة أجزاء قليلة توضعت فيها الآبار. وكانت الزراعة تقتصر على النخيل وبخاصة في أبو ظبي، بالإضافة إلـى بعض أشجار الفاكهة، كما اشتغل سكان المشيخات برعي الإبل وصيد اللؤلؤ.

أدرك الإنكليز خطر "القواسم" على نفوذهم، فقد كتب المقيم البريطاني فـــي البصـــرة ماينسيتي إلى حكومته حول ذلك مؤكداً "أن خطرهم أكبر على بريطانية مـــن خطـــر الفرنسيين، وقوة القواسم هي حاجز يحول دون هيمنة بريطانية على المنطقة". لذلـــك أرسلت بريطانية أول حملاتها في حزيران ١٨٠٥ وتمت هذه الحملة بمساعدة عمانيـــة إذ طلب إمام عمان العون من إنكلترا التي استغلت ذلـــك فحالفتـــه. وقـــامت حملتـــها بمحاصرة جزء كبير من أسطول القواسم عند جزيرة قشم، لكن الحرب لم تنشب بيـــن الطرفين، فقد انتهى الأمر إلى توقيع معاهدة ١٨٠٦، التي تضمنت ستة بنود تعهد فيها القواسم بعدم التعرض للسفن الإنكليزية في المستقبل[٤].

بعد فترة تجدّدت الحرب بينهما فهاجم القواسم السفن العمانيـــة والإنكليزيـــة. وكـــان أسطولهم مؤلفاً من ٦٣ سفينة مسلّحة تسليحاً جيداً. وكانت كل سفينة تحمـــل بضعـــة مدافع. وقد وصل عدد محاربي القواسم إلى ١٩,٠٠٠ محارب[٥].

في عام ١٨٠٩-١٨١٠م، قام الإنكليز بحملتهم البحرية الثانية ضد القواسم. واشـتركت بالحملة قطع من الأسطول البريطاني. وكانت رأس الخيمة هدف الحملة الرئيسي حيث جرى قصفها في ٢ كانون الثاني، ودار فيها القتال من بيت إلى بيت، وأُحرقت ثلاثون سفينة من سفن القواسم[٦]. لكنهم لم يستسلموا، مما زاد الحملات عليـــهم. ففـــي عـــام

١٨١٩، قام الإنكليز بحملتهم الأخيرة ضد القواسم بقيادة الجنرال جرانت كير Keir لأن الظروف كانت مؤاتية لبريطانية، خاصة بعد تدمير الدولة السعودية الأولى ١٨١٨، على أيدي قوات محمد علي باشا، وكذلك بعد أن تغلّبت بريطانية على الثورات التي قامت ضدها في الهند. ولذلك جاءت حملة الجنرال كير لتضرب أهم قوة عربية وتعيد رسم خارطة الخليج طبقاً لمصالح بريطانية الاستعمارية. وكان من نتائج تلك الحملة وقوع رأس الخيمة في يد الإنكليز وحرق سفن القواسم، ووقوع ٤٠٠ محارب منهم في الأسر. كما أجبرت بريطانية رؤساءهم، على توقيع معاهدة ١٨٢٠[٧]، التي تألفت من ١١ مادة، أبرمها الشيوخ مع المقيم البريطاني، وكانت حلقة من سلسلة المعاهدات التي عقدتها بريطانية لتأكيد سيطرتها على الخليج وقد جاء فيها:

- **المادة الأولى**: تعهّد الموقعون بأن يمتنعوا امتناعاً تاماً ونهائياً عن ممارسة أعمال النهب والقرصنة في البحر والبر.
- **المادة الثانية**: فرّقت بين النهب والقرصنة وبين الحرب المشروعة ونصّت على إعدام المتعاملين بالقرصنة ومصادرة ملكياتهم وأموالهم مهما كانت الدولة التي يقع عليها اعتداؤهم.
- **المادة الثالثة**: حدّدت علماً لكل العرب الموقعين على الاتفاقية وهو "علم أبيض يتوسطه لون أحمر".
- **المادة الرابعة**: تشير إلى أن الحكومة البريطانية ليست صاحبة مطامح سياسية أو إقليمية في منطقة الخليج، وأنها لا تتدخل في النزاعات والخلافات المحلية المعتادة.
- **المادة الخامسة**: حدّدت نوعين من السجلات: الأول: سجل لك سفينة يحدّد مقاساتها وحمولتها ويوقّع عليه الشيخ، والثاني: سجل دقيق للرحلة التي تقوم بها

السفينة، وعلى أصحاب السفن تقديم هذه الأوراق لدى طلبها من جانب السفن البريطانية أو غيرها.

- **المادة السادسة:** أن يقيم وكيل عن العرب المتصالحين في المقيمية البريطانية في الخليج، وأن يقيم مبعوث من الحكومة البريطانية بينهم على أن يدفع راتب هذين الممثلين أصحاب المصالح التي يخدمانها.

- **المادة السابعة:** إن عدم التزام شيخ أو أكثر من الشيوخ الموقعين على الاتفاقية لا يعفي بقية الشيوخ من هذا الالتزام.

- **المادة الثامنة:** تحريم الطريقة التي كان يتبعها القواسم في إعدام أسراهم[٨].

- **المادة التاسعة:** تنص على منع تجارة الرقيق بين العرب المتصالحين منعاً باتاً.

- **المادة العاشرة:** نصت على حرية الشيوخ المتصالحين في زيارة الموانئ الأوروبية وضمنت لهم الحماية ضد أي عدوان.

- **المادة الحادية عشرة:** نصت على ضرورة إعادة توقيع الشيوخ على هذه الاتفاقية من حين لآخر.

ومن الطبيعي أن تختلف شروط معاهدة ١٨٢٠، عن معاهدة ١٨٠٦، التي أبرمت مع القواسم، لأنها فرضت من جانب المنتصر على المغلوب التي تحطّمت قوته. وترتّب على هذا انهيار الاتحادات القبلية في المنطقة، وظهور إمارات تحمل أسماء إقليمية أو جغرافية. ولم تكتفِ بريطانية بوضع أسس التقسيم والتجزئة في المنطقة، بل أصبحت بسبب مركزها المتفوّق تقف معارضة لأي حركة من حركات التوحيد، سواء أكان مبعثها قوة داخلية أم خارجية. وكذلك عملت على تفكيك الإمارة القويّة، كما حدث في الشارقة التي كانت تضمّ مقاطعات كثيرة، ففصلتها عنها وأعطتها كيانات خاصة،

ولجأت إلى تدعيم سيطرتها بوساطة القوة البحرية، واستغلال المعاهدات لتشجيع النعرة القبلية وإثارة الجفوة بين الحكّام، رغم صلات القربى بينهم(٩).

من المعروف أنه كان على رأس كل مشيخة من هذه المشيخات حاكم يساعده من يقع عليه الاختيار من شيوخ القبائل وبعض التجار بقصد التشاور في الحكم. وسوف نقوم بدراسة كل مشيخة على حدة، متتبعين تاريخها منذ نهاية الوجود المصري حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

٢- التاريخ السياسي لمشيخات الساحل العماني منذ نهاية الوجود المصري حتى الحرب العالمية الأولى (١٨٤٠-١٩١٤):

أ- أبو ظبي:

إذا اتجهنا جنوباً فإن أول مشيخة تقابلنا هي أبو ظبي، وتُعدّ أكبر المشيخات السبع مساحة إذ تبلغ ١٦٤م٢. ويقال إنها سُميت أبو ظبي نسبة إلى جزيرة صغيرة فيها ظباء كثيرة، وكان اقتصادها يقوم على الملاحة والتجارة وصيد السمك واستخراج اللؤلؤ. ويعود تاريخها إلى حوالي مئة عام تقريباً، عندما سكنها أفراد من قبائل بني ياس وبوفلاح، والمناصير. وفي عام ١٨٣٣، خرج منها فرع يسمى بوفلاسة، وانفصل عن بني ياس وأنشأ مشيخة دبي. وكانت العلاقات فيما بينهم علاقات توتّر ومشاحنة على الصعيد القبلي.

بين عامي ١٨٣٨-١٨٤٠، قام حاكم أبو ظبي الشيخ خليفة بن شخبوط، بمحاولة لضم واحة البوريمي، لكنه لم يتمكن من ذلك. وفيما بعد عاود الكرّة الشيخ سعيد بن طحنون لكنّ الوهابيين أبعدوه عنها(١٠).

واستمرّ الشيخ سعيد بن طحنون يحكم أبو ظبي ما بين ١٨٤٥-١٨٥٥م، ثم ترك عاصمته ورحل باتّجاه جزيرة قيس، وقد أدّى ذلك إلى احتدام الخلاف بين أهالي

الإمارة مما اضطر كبار العشائر لاستدعاء الشاب زايد بن خليفة من دبي، حيث كان يعيش لدى أخواله من قبيلة السودان، فتسلم الحكم في أبو ظبي واستمر حاكماً عليها منذ عام ١٨٥٥ حتى عام ١٩٠٩م. ووصلت أبو ظبي خلال عهده أقصى درجات التوسع والنفوذ، حيث امتدّ حكمه حتى منطقة العديد غرباً.

حاول الشيخ زايد بن خليفة تحقيق تحالف بين الإمارة والقبائل في الساحل، تحت لوائه. وكاد ينجح لولا أن تنبهت حكومة الهند إلى اتساع نفوذه، فوقفت ضده وأنهت محاولاته.

لقد تهيأت عدة عوامل ساعدت في نجاح الشيخ زايد، إضافة إلى قوة شخصيته وفروسيته وطموحه. ومن هذه العوامل:

١- عدم وجود أسباب للصدام بين إمارة أبو ظبي والبريطانيين في البحر. مثلما حدث مع القواسم.

٢- ورث الشيخ زايد علاقات صداقة تقليدية بين شيوخ أبو ظبي وسلاطين عمان. وكان للصداقة الشخصية التي ربطت السلطان فيصل بن تركي سلطان عمان (١٨٨٨-١٨٩٠) بالشيخ زايد، دور في اتساع نفوذ زايد في إقليم الظاهرة وفي بادية الإمارات.

٣- اكتساب الشيخ زايد بن خليفة خبرة سياسية بأحوال الساحل خلال فترة إقامته في دبي[١١].

وكان لاحتلال العثمانيين للأحساء ١٨٧١، دورٌ كبيرٌ في وقوف البريطانيين بجانب الشيخ زايد بن خليفة، وتدعيم نفوذه في قرية العديد. ولكن بريطانية انقلبت عليه في نهاية القرن التاسع عشر عندما بلغت قوته ذروتها وبدأ توحيد الإمارات والساحل. ولعلّ السبب في موقف بريطانية هذا، سوء العلاقات بين حكومة الهند والشيخ زايد بن

خليفة، وكذلك عدم تقيد زايد بن خليفة بالاتفاقية المانعة لعام ١٨٩٢[١٢]. فقد كتب القنصل الفرنسي بمسقط في تقريره لباريس، في ٢٦ شباط ١٨٩٦ يشير إلى أنه تلقى خطابين من الشيخ زايد بن خليفة يبدي فيهما تشجيعه للفرنسيين من أجل إقامة علاقات تجارية وسياسية معه. وعرض عليهم ميناء أبو ظبي ليكون محطة لسفن شركة المساجيري ماريتم Mesagerie Maritime الفرنسية. لكن بريطانية أنذرت الشيخ زايد وطلبت منه إنهاء صداقته مع الفرنسيين. ومع هذا ظلّت الاتصالات بين الشيخ زايد والقنصل الفرنسي في مسقط طي الكتمان.

وفي عام ١٩٠٠، جرت اتصالات بين زايد بن خليفة والحكومة الإيرانية، وهنا اتضح للبريطانيين مدى استخفافه واستهانته بقيود الاتفاقية المانعة، الأمر الذي جعل بريطانية تمارس سياسة مكشوفة ضد خططه وتمنّعه من بسط سلطته على إمارات الساحل.

ومن الأسباب التي أدّت إلى هذا الموقف البريطاني ضد خطط الشيخ زايد بن خليفة، خوف بريطانية من توحيد الساحل تحت لوائه. في حين أن سياسة بريطانية التقليدية هي المحافظة على التجزئة وتفتيت الساحل إلى إمارات مستقلة صغيرة. وهذا ما أكّده كوكس المقيم السياسي البريطاني في الخليج عام ١٩٠٠م، حيث أشار إلى مدى تزايد نفوذ الشيخ زايد، وأكّد أنه إذا لم تحدّ بريطانية من نفوذ الشيخ زايد في الساحل فإن الموقف سيكون محفوفاً بالمخاطر بالنسبة للمصالح البريطانية[١٣].

ولقد وقفت بريطانية بالمرصاد ضدّه وكذلك ضدّ حكم ابنيه: الشيخ طحنون، الذي حكم ما بين ١٩٠٩-١٩١٢م، والشيخ حمدان ما بين ١٩١٢-١٩٢٢م، حيث انكمش نفوذ حكّام أبو ظبي في إقليم الظاهرة وأصبح قاصراً على إمارة أبو ظبي التقليدية.

ب- دبي:

تقع مشيخة دبي إلى الشرق من أبو ظبي وهي مشيخة صغيرة تمتدّ من أبو حايل في الشرق، إلى خور جهند في الغرب. وتعدّ ميناءً رئيساً للبوريمي وشمال عمان. ويؤمها

الكثير من البواخر التجارية. وتأتي أهميتها من دور الوساطة التجارية التي تقوم بها بالنسبة لجميع مشيخات الساحل العماني.

ينتسب سكان دبي إلى قبائل بني ياس وآل مرّة وأبو طاهر. وكانت تابعة لأبو ظبي حتى عام ١٨٣٣، ولكن على إثر اغتيال الشيخ طحنون حاكم أبو ظبي، تمكّن آل بوفلاسة من الانفصال عنها واختاروا مكتوم بن بطي حاكماً عليهم[١٤]، فاستمر بالحكم حتى عام ١٨٥٢.

استطاع مكتوم أن يحافظ على استقلال إمارته. ويقف ضدّ مطامع شيخ أبو ظبي والشيخ القاسمي في الشارقة. وعندما توفي عام ١٨٥٢، بمرض الجدري، تسلّم الحكم بعده ابنه سعيد بن بطي وحكم حتى ١٨٥٩، وتعرّض للمنازعات الداخلية خاصة مع (أولاد مكتوم).

حاول الشيخ سعيد إقامة علاقات تفاهم مع الحكومة البريطانية، خاصة عندما أتى المقيم البريطاني للساحل بقصد توقيع اتفاقية السلم الدائمة عام ١٨٥٣[١٥]، وبعد أن توفي الشيخ سعيد خلفه ابن أخيه حشر بن مكتوم ١٨٥٩-١٨٨٦، ولم يتميّز عهده إلا بمحاولاته تأكيد مشاعر الصداقة والولاء لبريطانية.

ومنذ عام ١٨٨٦-١٨٩٤، بقيت دبي تحت حكم راشد بن مكتوم، حيث اعترف به المقيم البريطاني شيخاً عليها. وتشير المصادر أنه خرق معاهدة الصلح مع بريطانية أكثر من مرّة، ولم يكن مرضياً عنه. ثم خلفه بعد موته مكتوم بن حشر ١٨٩٤-١٩٠٦، فكانت سياسته مستنيرة، وحققت دبي في عهده نمواً ملحوظاً وأصبحت ميناءً هاماً للملاحة والخطوط التجارية ووطّدت علاقاتها مع بريطانية. وقد أشار رويمر إلى تطوّر دبي أثناء زيارته لها عام ١٩٠١، وقدر عدد سكانها بـ ١٥,٠٠٠ نسمة. ومنذ مطلع القرن العشرين ١٩٠٦ حتى ١٩٥١، حكمها رشيد بن سعيد، الذي عُرف عهده

بكثرة المنازعات مع أم القوين وأبو ظبي والشارقة. وكانت دبي مقرّ الوكيل البريطاني لجميع مشيخات الساحل ما عدا أبو ظبي التي أقام فيها ممثل بريطاني خاص(١٦).

جـ- الشارقة:

تقع الشارقة إلى الشرق من دبي. وتضمّ مدينتين هامتين: الشارقة وخورفكان، وكذلك قريتين كبيرتين هما كلبا ودبا، إضافة إلى ٤٠ قرية صغيرة. وتُعدّ مشيخة الشارقة أهمّ هذه الإمارات وأقدمها بالرغم من أنها لا تشغل أكثر من ١٦ كم على الساحل مع أن أكثر المشيخات الأخرى كانت في وقت من الأوقات جزءاً منها. وسيطرت العائلة الحاكمة في الشارقة قبل قرن من الزمان على أكثرية الساحل، ووقفت على قدم المساواة في معاملاتها، مع سلطان مسقط والأمير الوهابي في نجد. وسيطرت على الملاحة في الخليج العربي(١٧).

في أوائل القرن التاسع عشر امتلك القواسم (العائلة الحاكمة في الشارقة) أسطولاً ضخماً ضمّ ثلاثاً وستين سفينة كبيرة وثمانمائة وثلاث عشرة سفينة صغيرة وكان يعمل في الأسطول قرابة تسعة عشر ألف ملاّح(١٨).

منذ أن تسلّم "سلطان بن صقر" زعامة القواسم منذ عام ١٨٠٣ حتى ١٨٥٦، اصطدم بثلاثة أعداء أقوياء: بريطانية، والوهابيين، وسلطان عمان. وإذا كان قد استطاع الوقوف بوجه سلطان عمان فإنه خسر أمام الوهابيين وبريطانية.

استطاع سلطان بن صقر التوّغل داخل أراضي سلطنة عمان عام ١٨٠٨، وأسّس لأولاده إمارات جديدة، فأعطى لابنه ماجد كلبا ونصّب ابنه أحمد على دبا. واتّخذ ميناء الشارقة عاصمة له، وجعل عمّه حسن بن رحمة نائباً على رأس الخيمة. ثم ما لبث أن واجه هزيمة على يد الوهابيين انتهت بأسره ونفيه إلى الدرعية، وتنصيب الوهابيين لابن عمّه حسين بن علي حاكماً وهابياً.

تمكّن سلطان من الفرار من الدرعية والتجأ إلى سلطان مسقط، الذي وجد ذلك فرصة مناسبة للانتقام من حاكم رأس الخيمة. بمساعدة الأسطول البريطاني. فشارك في الحملة البحرية عام ١٨٠٧، ضدّ رأس الخيمة، حيث قصفت مدة ثلاثة أيام قبل احتلالها وأغرقت سفن القواسم. وجرى أسر ابن رحمة وأُعيد سلطان إلى حكم الشارقة.

لكن سرعان ما ستعاد القواسم قوتهم بعد فترة قصيرة، فتمكّنوا في عام ١٨١٣، من بناء أسطول جديد فرض سيطرته على الملاحة في الخليج. وتابع سلطان عمان حملاته الفاشلة ضدّ رأس الخيمة خاصة ما بين ١٨١٢-١٨١٦، مستعيناً بالإنكليز. لكن الحملة التي جهّزتها بريطانية بمساعدة سلطان مسقط، استطاعت احتلال رأس الخيمة في ٩ كانون الأول عام ١٨١٩، وقامت بحرق أسطول القواسم. وأجبرت بريطانية حسن بن رحمة شيخ رأس الخيمة، والشيخ شخبوط حاكم دبي، والشيخ سلطان حاكم الشارقة، على توقيع معاهدة (٨ كانون الثاني ١٩٢٠)، وقد وقّع عليها أيضاً شيخ البحرين وتعهّد الجميع فيها بوقف نشاطهم البحري. فقُضي بذلك على قوة العرب البحرية في مياه الخليج.

وقد تعهّد الموقعون على الاتفاقية في المادة الأولى منها أن يمتنعوا امتناعاً تاماً ونهائياً عن ممارسة أعمال النهب والقرصنة في البر والبحر(١٩).

أما المادة الثانية فقد فرقت بين القرصنة والنهب، ونصّت على إعدام المتعاملين بالقرصنة ومصادرة ملكياتهم وأموالهم.

وحدّدت المادة الثالثة العلم الذي يرفعه كل العرب الموقعين على الاتفاقية. لكن حكومة بومباي لم تكن راضية عن الاتفاقية التي وُقّعت بقيادة سير جرانت، لأنها عدّته قد أفرط في التساهل، وكان عليه أن يفرض شروطاً أكثر قوة وتشدّداً مثل عزل الشيوخ الذي يسهمون في القرصنة عن إماراتهم، وتعيين بدل منهم أو تحويل كل إماراتهم

لحاكم سلطان مسقط[٢٠]. ورغم كل التحفظات من جانب حكومة بومباي، فإنها سمحت بإقرار هذه الاتفاقية.

اتّخذ الشيخ سلطان بن صقر حاكم القواسم من الشارقة عاصمة أخرى له إضافة إلى رأس الخيمة، وقد سيطر على الأحداث السياسية في ساحل المشيخات، رغم المشاكل الداخلية في إمارته.

وسرعان ما تطوّرت الشارقة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، خاصة بعد أن اختارتها الحكومة البريطانية مقرّاً لوكيلها السياسي المحلي منذ عام ١٨٢٣، حيث أصبحت مركزاً سياسياً واقتصادياً في ساحل المشيخات خلال القرن التاسع عشر.

لكن أسباب الضعف تكاثرت على إمارة القواسم وعملت على إضعافها، خاصة الخلافات على الحكم، التي نبشت بين أبناء الشيخ سلطان بن سقر وكانت أحد الأسباب الأساسية في ضعف إمارة القواسم. وظهرت الثورات في أنحاء الإمارة بهدف الاستقلال عن حكم سلطان بن صقر خاصة في منطقة روس الجبال وفي الفجيرة.

ولا شك أن عداء القواسم للبريطانيين وعدم اعترافهم بمسألة الأمن البحري البريطاني في الخليج، وتحدّيهم المستمر لبريطانية قد أثار ضدّهم عداء حكومة الهند خلال القرن التاسع عشر. وقام البريطانيون بإجراءات عديدة ضدّ القواسم لتثبيت سيطرة حكومة الهند. وكان هذا من أحد أهمّ العوامل التي أدّات إلى ضعف الإمارة.

ومن يتأمل اتساع رقعة مشيخة القواسم، حيث يقع جزء منها على ساحل المشيخات والأجزاء الأخرى على خليج عمان، يفصل بينها مرتفعات جبال الحجر ذات المسالك الصعبة، وتسيطر على ممراتها القبائل، يدرك أن أساس اتساع مساحتها واستمرار بقائها، هو القوة البحرية، ولا شك أن إنكار الحكومة البريطانية على القواسم استخدام البحر للنقل عجّل في تفكك هذه المشيخة، خاصة أن قبائل الشحوح كانت تسيطر على ممرّات الجبال الأمر الذي عزل حكم القواسم عن بقية المشيخة على خليج عمان[٢١].

وفي عام ١٨٥٥ ثارت قبيلة الشحوح ضدّ القواسم ولم يكن بمقدور الشيخ سلطان بن صقر القاسمي إخضاعهم براً. ولهذا حاول محاصرة موانئهم، إلا أن تدخّل الكابتن فلكس جونز Felix Jones المقيم السياسي فقي الخليج وطلبه من الشيخ سلطان بن صقر عدم نقل قواته بحراً وإجباره على فك الحصار، كل ذلك أدّى إلى أن تصبح معظم أراضي القواسم في منطقة الشميلية على خليج عمان خارج سيطرتهم.

وقد ازداد الوضع سوءاً في الإمارة نتيجة الخلافات بين أبناء الشيخ سلطان بعد وفاته، ورغبتهم في الانفصال. ومع ذلك عدّ حكّام الشارقة المتعاقبون أنفسهم رؤساء المشيخة والمسؤولين عن سلامتها. ومن هؤلاء كان الأخوة، بالتتالي الشيخ خالد بن سلطان ١٨٥٦-١٨٦٨، والشيخ سالم سلطان ١٨٦٨-١٨٨٣، والشيخ صقر بن خالد بن سلطان ١٨٨٣-١٩١٣، والشيخ خالد بن أحمد بن سلطان ١٩١٣-١٩٢٤[٢٢].

وتميّز عهد الشيخ خالد بن سلطان بالثورة ضدّ قبيلة الشرقيين في الفجيرة، التي رفضت دفع الجزية للقواسم. ولم يستطع الشيخ خالد تحقيق آماله في توحيد إمارة القواسم، أو استعادة كيانها، لسببين:

١- عداء بريطانية له، وتحطيم بريطانية لقلعة الزورا نتيجة تحالف الشيخ خالد بن سلطان مع السعوديين آنذاك.

٢- المعارضة التي لقيها من الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي القوي. وفي عام ١٨٦٨، جرح الشيخ خالد بمعركة مع شيخ أبو ظبي، وتوفي على إثر ذلك. وتجدّدت الثورات مع الشرقيين في الفجيرة، واستمر تدهور الأوضاع في الإمارة مع أبو ظبي إلى أن تمّت تسوية النزاع بوساطة المقيم البريطاني في بوشهر روس في عام ١٨٨١. وأعطيت السيادة على الفجيرة للشيخ سالم بن سلطان، لكن الشيخ صقر بن خالد خلع عمّه أثناء غيابه، وأعلن نفسه حاكماً على الشارقة واعترفت بذلك بريطانية. واستمر

حكمه ثلاثين عاماً، حصل خلالها على رضا بريطانية(٢٣)، وفي نهاية القرن التاسع عشر، لم تعد قبيلة القواسم قادرة على تهديد مصالح بريطانية كما كان الأمر سابقاً، وذلك بسبب ضعف إمارتهم وتفككهم، خاصة أن بريطانية كانت قد نجحت بالضغط على القواسم عام ١٨٦٩، وأجبرتهم على توقيع اتفاقية سلام بحرية ثالثة، تعهدوا بموجبها بعدم القيام بهجمات عسكرية فيما بينهم وعدم تأجير أي قطعة أرض من أراضي مشيخاتهم دون موافقة بريطانية، وفي عام ١٨٩٢، تم توقيع الاتفاقية المانعة التي تعهّد فيها الشيوخ ألا يدخلوا بعلاقات أو اتفاقات إلاّ مع بريطانية. وكذلك في عامي ١٩١١-١٩١٢، تم توقيع اتفاقيات أخرى مع عجمان إضافة إلى الاتفاقيات السابقة، واحتوت كلها كسابقاتها مزيداً من البنود المجحفة بحق شعوب هذه المشيخات. ومن البديهي أن هذه الاتفاقيات كانت ترسخ الهيمنة البريطانية أكثر فأكثر ووفّرت لبريطانية الظروف الملائمة للتدخّل بشؤون هذه المشيخات الداخلية والخارجية(٢٤).

د- عجمان:

تقع في قلب مشيخة الشارقة. وهي أصغر الإمارات وأهمّ قبائلها آل النعيم والبوعلي وأبو ماهر وحاكمها من آل النعيم. يعتمد السكان في معيشتهم على الزراعة وصيد الأسماك. حكمها حميد بن رشيد (١٨٣٨-١٨٤١)، ثم عبد العزيز بن راشد (١٨٤١-١٨٧٣)، ثم راشد بن حميد (١٨١٧٣-١٨٩١)، ثم حميد بن راشد (١٨٩١-١٩٠٠)(٢٥)، الذي سرعان ما قتله عمّه عبد العزيز وتسلّم السلطة، وأكّد مباشرة حمايته للرعايا البريطانيين المقيمين في عجمان. ولم يصحب انقلابه هذا أية اضطرابات عامة لكنه طلب من بريطانية أن تعترف به شيخاً على عجمان. وقدّم طلبه للمقيم السياسي الذي اكتفى بالاعتراف به شفوياً فقط، دون الحاجة لاعتراف خطي(٢٦).

هـ - رأس الخيمة:

تقع إلى الشرق من أم القوين وهي معقل القواسم قبل عام ١٨٢٠. يتركز معظم سكانها في المدينة. ولم تنفصل عن الشارقة، التي كانت تتبع لها إلا في عهد صقر بن خالد ١٩١٩، حيث كان الشيخ صقر قد ولّى حميد بن عبد الله ثم ابنه خالد مسؤولين (عاملين) على رأس الخيمة. وبعد وفاة خالد أسند الحكم إلى ولده محمد. وسرعان ما عمّت هذه المشيخة الفتن الأهلية، ولم تستقر أوضاعها حتى ١٩٤٨، عندما نصّب عليها صقر بن محمد.

و- أم القوين:

تتاخم الشارقة من الشرق، وكانت أقوى المشيخات وأهمّ قبائلها. لكنها مشيخة صغيرة المساحة، ويعيش سكانها القلائل في واحتين داخلية وخارجية، وأول من حكمها أحمد بن راشد ١٨٢٠-١٨٥٣، ثم أحمد بن عبد الله ١٨٧٣-١٩٠٤،. وكانت هذه الإمارة مرتبطة بمعاهدة مع بريطانية بتاريخ ٨ آذار ١٨٩٢، نصّت على عدم الدخول بأية اتفاق أو علاقات مع أية دولة باستثناء بريطانية، وعدم السماح لأي ممثّل حكومة بإقامة أية صلات مع أم القوين دون موافقة بريطانية. إضافة إلى عدم بيع أو رهن أو تنازل أو تأجير أي جزء من أراضي أم القوين لدولة أخرى غير بريطانية[٢٧].

ز- الفجيرة:

تقع بين كلبا وخورفكان. عدد سكانها لا يزيد عن خمسة آلاف نسمة. سيطر عليها الوهابيون عام ١٨٠٩، ثم تبعت لحاكم الشارقة. وفي عام ١٨٧٩، ثار أهل الفجيرة وطردوا الحاكم المعيّن من قبل الشارقة وعيّنوا مكانه رجلاً من قبلهم. لكن حاكم الشارقة الشيخ سالم ثار ثانية واستولى عليها وأسكنها البلوش. لكن أمور الفجيرة

سرعان ما تعقدت واضطرت لدفع الجزية للشارقة عام ١٨٨٠، واستمرت أوضاعها غير مستقرة، حتى إن بريطانية كانت تتدخّل لفضّ النزاعات بينها وبين جيرانها ولم تعترف بها منطقة مستقلة إلا في عام ١٩٥٢.

٣- الأوضاع الداخلية في مشيخات الساحل العماني ١٨٤٠-١٩١٤:

كان شيوخ الإمارات يمارسون سلطات مطلقة في مشيخاتهم. وكانوا يصلون إلى الحكم إما بطريق الوراثة أو بالاتفاق. وغالباً ما كانت تستخدم القوة في عزل شيخ وإحلال شيخ آخر بدلاً منه، فتقع الصدامات والحروب من أجل السلطة. وقد عرفت منطقة مشيخات الساحل العماني بكثرة الاغتيالات والفوضى والحروب الأهلية. وهذا عائد إلى الظروف القبلية التي تعيشها المنطقة وعدم وصول هذه المشيخات إلى مرحلة النضج والاستقرار السياسي. إضافة إلى ذلك يجب ألا نغفل دور بريطانية في زعزعة استقرار هذه المناطق، لأنها كانت تستغل الاضطرابات، وأحياناً تكون المحرضة عليها أما بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية لهذه المشيخات فقد كانت موارد الدخل قليلة وتنحصر في الأتاوات التي كان يفرضها الشيوخ على صائدي اللؤلؤ والتجار، والزكاة المفروضة على النخيل. إضافة إلى ذلك هناك قيمة الإيجارات التي كانت تدفعها الحكومة البريطانية مقابل استخدامها لبعض أراضي الشيوخ، خاصة في دبي والشارقة وهي بمنزلة قواعد عسكرية أو مطارات للخطوط الجوية البريطانية.

ومع أن الدخل الذي يحصل عليه الشيوخ يُعدّ دخلاً كبيراً فإنه لم يُستغل لمصلحة تطوير المنطقة؛ فكانت هذه المشيخات تعاني من نقص في التعليم والخدمات الصحية، ونقص في موارد مياه الشرب، لأن شيوخ هذه المنطقة كانوا يعدّون إدخال وسائل الحضارة، مثل الأمور الصحية والتعليمية إسرافاً ليس له مسوغ. ولكن اكتشاف البترول فيما ابعد، أدى إلى تطور الأوضاع الاقتصادية، إلى ما نعرفه اليوم.

٤- المشيخات والسياسة البريطانية فيما بين الحربين ١٩١٤ ـ ١٩٤٥:

تميزت هذه الفترة بكثرة حوادث الاغتيالات التي كانت تقوم بين الشيوخ المتنافسين، وتميزت كذلك بالتغلغل السعودي. ورغم أن بريطانية كانت على علم بالضغوط السعودية، التي تتعرض لها المشيخات، لكن ذلك لم يقلقها لأن هذه الضغوط قد توجّهت نحو المناطق الداخلية فقط. هذه الفوضى الكبيرة والحروب الأهلية التي ميّزت تلك الفترة تعود أسبابها إلى ما يلي:

١- الظروف القبلية التي عاشتها المنطقة.

٢- عدم وصول هذه المشيخات إلى مرحلة الاستقرار السياسي[٢٨].

٣- تأثير السياسة البريطانية على أوضاع المشيخات المضطربة وإن ظهرت أحياناً في صورة المنقذ لها من هذه الأوضاع التي تمثلت بالصراع بين رأس الخيمة ورامس، والصراع بين العجمان والشارقة وبين أبو ظبي وأم القوين والشارقة، وكذلك الصراع بين رأس الخيمة والفجيرة. وجميع هذه المنازعات كانت في الأساس قبلية وتتعلق بالحدود. والجدير بالذكر أن المنازعات لم تتوقف حتى عام ١٩٤٠ وذلك عائد لتدخل الحكومة البريطانية وعدم تزويد الشيوخ بالذخائر والأسلحة إلا بالقدر الذي يكفي حمايتهم من قبائل البدو الرحل.

منذ مطلع الثلاثينات من هذا القرن، طرأت مستجدات كثيرة في سياق المصالح البريطانية في المنطقة. وهذا ما جعل الحكومة البريطانية تعمل على إحكام سيطرتها عليها بصورة أشد مما كان عليه من قبل. وارتبطت زيادة هذه المصالح بإنشاء شبكات من الخطوط الجوية البريطانية تمتد إلى الشرق الأقصى عبر الخليج العربي، وما تبع ذلك من إنشاء مطارات وبناء قواعد جوية، وخلق طريق جوي على الساحل العربي للخليج خشية منع الحكومة الإيرانية لطائرات شركة الخطوط البريطانية من المرور تجاه الساحل الإيراني، خاصة بعدما ساءت العلاقات الإنجليزية مع حاكم إيران رضا

خان، حيث أرغم الإنجليز على إبعاد المقيم السياسي البريطاني في الخليج من بوشهر في إيران فاستقر في البحرين[٢٩]. كذلك أجرت بريطانية اتصالات مع شيخ الشارقة، الذي وافق على توقيع اتفاقية مع بريطانية عام ١٩٣٢ حول إنشاء مطار لهبوط الطائرات البريطانية. وكان لتلك الاتفاقية أهمية خاصة لبريطانية لانّ شيخ الشارقة يتمتع بمركز هام بين شيوخ الساحل، خاصة أن إماراته أصبحت قاعدة للخط الشرقي الواصل بين البصرة وكراتشي.

وفي عام ١٩٣٤، حاولت بريطانية عقد اتفاقية جوية مع أبو ظبي ونجحت في ذلك، إذ وافق شيخ أبو ظبي على إنشاء مطار في جزيرة صبر بني ياس، لكنه عارض إقامته في أبو ظبي، وكذلك نجحت بريطانية في عقد اتفاقية ١٩٣٨، بينها وبين دبي.

كانت بريطانية تزعم بأنها لا تتدخل بالشؤون الداخلية للمشيخات، ولكن بعد ازدياد التنافس والصراع الدولي على الخليج العربي، خاصة بعد ظهور البترول، لم تعد تخفي تدخلها السافر في ترتيب الشؤون الداخلية لأهل الحكم في المشيخات، لكي تبقى الدولة الأجنبية الأقوى بين الدول المتنافسة (الولايات المتحدة واليابان وفرنسة وإيطاليا وهولندا). ومن جهةٍ ثانية ساور القلق بريطانية بسبب وجود دول قومية قوية تحيط بالخليج، الأمر الذي دفعها إلى التصريح العلني بإمكانية تدخلها بحراً وجواً إذا تعرضت مصالحها للخطر[٣٠].

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، ظهرت تغيرات أشد وضوحاً في الإدارة البريطانية وفي سياستها إزاء الخليج، فقد أدى إعلان استقلال الهند وباكستان عام ١٩٤٧ إلى إلغاء حكومة الهند البريطانية، وبالتالي أصبحت أمور الخليج تدار مباشرة من قبل وزارة الخارجية البريطانية بدلاً من حكومة الهند، ونقل الإنجليز مقرهم من بوشهر إلى البحرين عام ١٩٤٦[٣١] وهذا دليل على تحول السياسة البريطانية من التركيز على إيران إلى التركيز على الخليج وسواحل الجزيرة العربية مباشرة.

٥- المستجدات الداخلية في المشيخات بعد الحرب العالمية الثانية:

لقد عانت مشيخات الساحل العماني، كما ذكرنا سابقاً، من مشكلات الحدود فيما بينها. وهذه المشكلات أدت إلى صراعات دائمة. وما ضاعف خطورة الوضع، عدم وجود حدود متفق عليها فيما بينها، أي لم يكن معروفاً أين تبدأ حدود المشيخة وأين تنتهي. مما أفسح المجال لادعاءات ومطالبات مستمرة. فمثلاً شيخ أبو ظبي طالب بنصف أراضي دبي. وشيخ دبي يؤكد ادعاءاته في حقه بجزء من الشارقة. هذا بالنسبة إلى الحدود، أما بالنسبة إلى للحياة الاقتصادية،فقبل اكتشاف النفط لم يكن لشيوخ الساحل موارد ضخمة باستثناء دبي وأبو ظبي. أما بقية المشيخات (عجمان وأم القوين والشارقة والفجيرة ورأس الخيمة) فلم يكن دخلها في مجموعه يتجاوز ٢٥٠٠٠٠ جنيه استرليني ولذلك كانت هذه المشيخات بحاجة ماسة إلى المساعدات، للنهوض بالمستلزمات الاقتصادية والاجتماعية. وإضافة إلى هذه الأوضاع السيئة، كانت بريطانية تتدخل لحفظ الأمن في الشؤون القضائية. وكان يوجد في الوكالة البريطانية في دبي محكمة خاصة للمشيخات يرأسها قاضٍ بريطاني ينظر في القضايا التي تعرض على المحكمة. وكان لبريطانية صلاحيات خاصة بالنسبة إلى الأجانب مسلمين وغير مسلمين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بريطانية لم تهتم بتطوير المشيخات إلا في فترة متأخرة. وكانت مرغمة على ذلك، بفعل التيارات القومية العربية التي برزت في المنطقة وبلغت أوجها خلال الستينات.

بدأت أول محاولات التطوير عام١٩٦٠ بإنشاء مدرسة صناعية في الشارقة، وأخرى في دبي، عام ١٩٦٣، وأنشئت في نفس العام مدرسة زراعية في رأس الخيمة. وفي عام ١٩٦٨ أقيم المعهد المهني في الخليج، وكانت البحرين مقراً له وكانت مهمته تخريج طلاب مزودين بخبرات فنية وتقنية وتجارية وإدارية.و شاركت أبو ظبي في

تمويل هذا المعهد وتبرعت البحرين بالأراضي التي أنشئ عليها في جنـــوب مدينـــة عيسى بالمخامة[٣٢].

ويعزى إلى مكتب التطوير البريطاني اهتمامه بموضوع مشروعات التنمية. وقد عــهد برئاسة ذلك المكتب منذ إنشائه، إلى الشيخ صقر بـــن محمــد حــاكم رأس الخيمـــة، ورصدت بريطانية له مليون جنيه إسترليني سنوياً. ولكن الدعم المادي لهذا الصنــدوق كانت تقدمه البحرين وقطر، وكانت مهمة مكتب التطوير وضع برامج زراعية ومســح مصادر المياه وإنشاء مزارع تجريبية وإنشاء طرق لربط المشيخات بعضها ببعـــض. ومن أهم المشروعات التي تحققت، إنشاء طريق بين دبي والشارقة.

٦- العوامل الخارجية ومنعكساتها على المشيخات:

بدأت الجامعة العربية تولي اهتمامات متميزة لمشيخات الساحل العماني، خاصة بعـــد أن أصبحت إسرائيل تهرب بضائعها إلى الخليج، فقامت بتوجيــه تحذيــرات لشـــيوخ الساحل، ووافق حكام كل من دبي، وأبو ظبي، والشارقة، على إنشاء مكاتب للمقاطعــة الإسرائيلية في بلادهم. وقد أرسلت الجامعة العربية بعثة إلى إمارات الخليج ووجــهت عناية خاصة لبعض الموضوعات مثل:

١- أخطار الهجرة الأجنبية عن المنطقة.

٢- تسوية المشكلات بين الإمارات خاصة مشاكل الحدود.

٣- تنظيم المساعدة العربية المالية للمنطقة.

وأشار تقرير البعثة العربية إلى تنظيم المساعدة المادية استثنى قطر والبحرين وأبـــو ظبي نظراً لوفرة الدخل في تلك الإمارات، وتأتي بعدها الشارقة ودبي. أما الإمـــارات المحتاجة للمعونات العربية فهي (عجمان وأم القوين ورأس الخيمة والفحيرة). وأكـــد

تقرير البعثة على ضرورة دعم التعاون الثقافي الاجتماعي والصحي مع هذه المنطقة. وأكد كذلك على إنشاء مكتب للتنمية يتبع الجامعة العربية.

والجدير بالذكر أن الجامعة العربية كان قد سبقت بريطانية إلى فكرة إنشاء صندوق لتطوير إمارات الخليج. ورصدت له خمسة ملايين جنيه. لكن بريطانية عارضت المشروع[٣٣]، وأبدت اعتراضاً شديداً على نشاط الجامعة العربية باعتباره منافياً للمعاهدات والعلاقات، التي تربط بريطانية بهذه الإمارات. وأصرّت بريطانية أنه من حقها الإشراف على الشؤون الخارجية لإمارات الخليج. واجتمع المقيم البريطاني مع الوكلاء التابعين له في قطر، ودبي، وأبو ظبي، ومع حكام وشيوخ الخليج، وطلب منهم إصدار قرارات يعلنون فيها بأنهم يرحبون بإعانات مجردة من القيود لتطوير إمارتهم. وهكذا استطاعت بريطانية أن تفوت على الجامعة العربية فرصة إنشاء مكتب التنمية العربية.

وكان أمام شيوخ الخليج إمّا تأييد مكتب التطوير، الذي اقترحته بريطانية، أو تأييد صندوق التنمية التابع لجامعة الدول العربية. وكانت النتيجة أن وافقت الكويت على صندوق التنمية العربي، أمّا شيوخ دبي، وقطر، والبحرين، وأبو ظبي، فوافقوا مرغمين، على المشروع البريطاني. وقام جورج طومسن وزير الدولة البريطاني بتوجيه تحذير للحكّام في الخليج من مغبة التعاون مع الجامعة العربية. ولم تكتفِ بريطانية بذلك بل قامت بإقصاء الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة عام ١٩٦٥، لأنه أبدى تجاوباً مع مشروعات الجامعة العربية، وأرغمت الشيوخ الآخرين الذين وافقوا على مشروعات التنمية العبية على إرسال برقيات لجامعة الدول العربية يلغون فيها موافقتهم السابقة مطالبين أن تكون المساعدات العربية عن طريق مكتب التطوير. وهكذا نجحت بريطانية في إفشال التعاون العربي مع إمارات الساحل العماني.

٧- التطور الثقافي في مشيخات الساحل العماني بعد الحرب العالمية الثانية:

لقد كان للكويت دور أساسي وهام في مجال التعليم في الإمارات، خاصة بعد امتداد إشرافها على جميع الإمارات، باستثناء أبو ظبي، إذ كانت السبّاقة في مجال التعليم. وأوضحت تقارير اليونسكو مدى التخلّف الذي كانت تعانيه هذه المشيخات في مجال التعليم، حيث لم يزد عدد المدارس فيها عام ١٩٥٨ ، عن سبع مدارس، وبدأ التعليم في أول هذه المدارس عام ١٩٥٣، وهي مدرسة الشارقة، حيث أظهر شيخها اهتمامه بذلك، فأمدّته دائرة المعارف في الكويت باثنين من المدرسين. وسميت المدرسة باسم "المدرسة القاسمية"، وهي أول مدرسة نظامية في المشيخات. وفي عام ١٩٥٤، أعلن عن إنشاء مدرسة ثانوية في دبي، وفي عام ١٩٥٦، ظهرت مدرسة في أم القوين ورأس الخيمة. في الأعوام ١٩٦٠-١٩٦٤، ظهرت مدارس عجمان والفجيرة.

كذلك ساهمت الكويت بإرسال بعثة فنية، لمسح المنطقة مسحاً اجتماعياً للتعرّف على متطلبات الإمارات، وأنشأت لجنة دائمة لمساعدة إمارات الخليج، وهي عبارة عن مساعدات، ومنح دون مقابل، وليس لها أية التزامات سياسية. وفي عام ١٩٦٣، أنشأت مكتباً لها في دبي. ثم حذت مصر، وقطر، والسعودية حذوها، في تقديم لمساعدات التعليمية، والفنية لإمارات الساحل العماني. وأكّدت الكويت حرصها على توثيق صلتها بالمنطقة، بعد الزيارة التي قام بها أميرها صباح للإمارات عام ١٩٦٦.

وقدّمت هدية "٤٣ مدرسة يعمل فيها ٨٥٠ مدرّساً ومدرّسة". كذلك لم يقتصر دور الكويت على التعليم بل شمل كذلك الخدمات الصحية والاجتماعية والإعلامية. إذ ساعدت في إنشاء إذاعة تابعة لها في الشارقة، وكذلك أنشأت محطة تلفزيون في دبي. ومن هنا يتّضح دور الكويت في تأييد وحدة إمارات الساحل العماني، ودعمها باعتبار أن الوحدة هي الحل الأمثل، والأسلم للحفاظ على كيان هذه الإمارات[٣٤].

لقد أدّى التعاون العربي في ميدان التعليم في الساحل العماني، إلى نشر الوعي بين أبناء الساحل. كما ساعد وجود عناصر من المدرسين من جنسيات عربية مختلفة على تخطي حواجز العزلة المفروضة على الساحل. وزادت معرفة الأهالي بمشكلات الوطن العربي. وأصبح الساحل أكثر إحساساً بالانتماء القومي العربي. وظهر هذا الوعي عند أبنائه جلياً أثناء حرب السويس عام ١٩٥٦، إثر موقفهم المؤيد لمصر والرافض للعدوان، الذي وقع عليها. كذلك استقبل سكان الساحل العماني الوحدة ما بين مصر، وسورية عام ١٩٥٨، بالحماسة الشديدة.

لقد قام التعليم الحديث بدور أساسي في توثيق روابط الصداقة بين مشيخات الساحل. ولعبت الرياضة، والتعليم دوراً أساسياً، كذلك في توثيق روابط الإخاء، والمودة بين أبناء الساحل والوطن العربي. فمثلاً المعلم العربي القادم من الخارج للتدريس، كان محلّ الاحترام والتقدير من قبل الطلاب والآباء والشيوخ، كذلك فقد ساعد إنشاء النوادي الرياضية، والثقافية خاصة في الشارقة، على التقدم والتطوّر.

وخلال عامي ١٩٥٤-١٩٥٥، تطوّر التعليم في الشارقة، ودُعي الطلاب الذي أوفدوا للدراسة خارج البلاد للعودة، وافتتحت المدرسة القاسمية المعروفة، وقدّمت قطر مساعداتها التعليمية حيث أقامت في عام ١٩٦١، مدرسة ثانوية في الشارقة سميت "مدرسة العروبة". وفيما أخذ هؤلاء الطلاب بعد إتمام دراستهم الثانوية يوفدون للتعليم الجامعي في القاهرة. ومع بداية ١٩٦٦، عاد إلى الشارقة أوائل الخريجين من الجامعة.

وفيما بعد ظهر النادي الثقافي ونادي العروبة في الشارقة ثم ظهرت صحافة وطنية محلية: مجلة "اليقظة"، ومجلة "الخليج". ولما كانت الشارقة رائدة في ميدان التعليم، فقد كان منها أول وزير للتعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة، وهو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي. أما في دبي فاستمرت المدرسة الأحمدية برسالتها. واستقبلت دبي

المدرسين من الكويت ومصر وقطر. ومع بداية عام ١٩٦٢، تم إرسال أول دفعة من طلاب دبي للدراسة في جامعة مصر(٣٥).

لكن التعليم الحديث لم يبدأ في أبو ظبي، إلا في أوائل الستينيات، خاصة بعد أن تسلّم الشيخ زايد بن سلطان عام ١٩٦٦ الحكم، حيث قفز التعليم إلى درجة متطورة بالقياس إلى الماضي. ويعترف الجميع أنه مع عصر الشيخ زايد، شهد التعليم تطوراً ملموساً. فظهرت المدارس الإعدادية والثانوية، وقدمت للطلاب منح دراسية. وفي عام ١٩٧١، بلغ عدد المدارس خمساً وعشرين مدرسة يتعلم فيها ٨٧٩٧ طالباً، وبلغ عدد المدرسين ٤٣٩ شخصاً.

٨- قيام الوحدة بين الإمارات والقضاء على التفكك:

إنّ ظهور دولة الإمارات العربية المتحدة إلى حيّز الوجود في ٢ كانون الأول ١٩٧١، هو تصحيح للأوضاع السيئة، التي خلفتها التجزئة والتفكك، والتي عانت منها منطقة الساحل العماني، وحرصت بريطانية على استمرارها، كي تضمن وجودها إلى أطول فترة في الخليج.

كان ظهور دولة الإمارات استجابة لعوامل الانتماء العربي الواحد بين مشيخات ارتبطت بوحدة التاريخ والجغرافية واللغة والقرآن(٣٦). وبعد قرار بريطانية الانسحاب من منطقة الخليج العربي، التي هيمنت عليها ما يقرب من قرن ونصف القرن. ظهرت تيارات تمثّلت بمخططات استعمارية ومشروعات استغلالية لمصلحة شركات أجنبية لا همّ لها سوى الربح وتبديد الثروة الوطنية. وأصبحت الحاجة الوطنية إلى مجابهة هذه المخططات العامل الأول في إدراك حكام هؤلاء المشيخات لضرورة الاتحاد في كتلة واحدة قوية قادرة على التصدي الناجح لها. وهكذا تشكّل الاتحاد السباعي من (دبي، أبو ظبي، الشارقة، عجمان، الفجيرة، أم القوين، رأس الخيمة)، ورغم أن المعوقات هي التي منعت أن يكون هذا لاتحاد تساعياً، أي يضمّ بالإضافة

إلى المشيخات المذكورة كلاً من قطر والبحرين، إلا أنه كان من أعظم الإنجازات الوطنية القومية في المنطقة إذ حقق أهدافاً اقتصادية وسياسية بعيدة المدى بفضل ما أتاحه للإمارات الصغيرة من فرص الاندماج في ظل دولة واحدة لها وزنها السياسي والاقتصادي، وتتصف بكل مواصفات الدولة الحقيقية، وإلا لظلت هذه الإمارات الصغيرة مشيخات مبعثرة لا وزن لها، فإمارات عجمان وأم القوين، والفجيرة، لم يكن دخلها السنوي يتجاوز عدة آلاف من الجنيهات، بينما هناك إمارات غنية كان دخلها يبلغ ملايين من الجنيهات، مثلاً في إمارة عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة، فهذا لا يعطيها أي ثقل سياسي أو أية مقومات أخرى.

والسؤال الآن كيف قامت هذه الدولة؟:

كان الشيخ زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي، أوّل من عرض مشروع إقامة الاتحاد على حاكم دبي الشيخ راشد بن مكتوم. وكان ذلك في لقاء (سميح)، في ١٨ شباط عام ١٩٦٨، الذي تمخض عن توقيع اتفاقية ثنائية بين أبو ظبي ودبي عرفت "باتفاقية دبي الثنائية"، وهي النواة الأولى للاتحاد[٣٧]. وقد نصّت هذه الاتفاقية على شرطين هامين:

أولهما: إقامة اتحاد يضمّ البلدين، ويتولّى الإشراف على الشؤون الخارجية والدفاع وتنسيق الخدمات الصحية والتعليمية وغيرها.

ثانيهما: موافقة الحاكمين في أبو ظبي ودبي على دعوة حكّام الإمارات الأخرى لمناقشة الاتحاد والاشتراك فيه، ومن ثم دعوة حاكمي قطر والبحرين للتداول حول مستقبل المنطقة والاتفاق فيما بينهم على عمل موحّد لتأمين ذلك[٣٨].

كذلك تمّ في اجتماع (سميح)، التوصل إلى تسوية الحدود بين البلدين، حيث نصّ الاتفاق على أن يُضمّ لدبي مساحة من البحر تقع غربي آبار فتح. وهذا كان بمنزلة تنازل من الشيخ زايد استرضاء لشيخ دبي والسعي لإنشاء فكرة الاتحاد وتجاوز العقبات.

وممّا يلفت النظر أن اتفاقية دبي جاءت بعد شهر من إعلان بريطانية الانسحاب من الخليج في نهاية عام ١٩٧١، ومن هنا كانت فكرة حاكمي أبو ظبي ودبي تستهدف المحافظة على الاستقرار وتقوية الروابط وتنسيق الخطط المستقبلية للتطوير والنمو.

ولقد بادر حكّام الإمارات التسع ٢٥-٢٧ شباط عام ١٩٦٨، إلى عقد اجتماع موسّع فتقدّمت قطر بمشروع يجمع الإمارات الخمس الصغرى (الشارقة، عجمان، أم القوين، الفجيرة، رأس الخيمة) في إمارة موحّدة. لكن هذا المشروع لاقى اعتراض الحكّام الخمسة لاعتزازهم بشخصيتهم حيث أصرّوا على تحقيق المساواة مهما صغرت رقعة الإمارة أو قلّ عدد سكانها. غير أن قطر ما لبثت أن تقدّمت بمشروع آخر يستهدف إقامة اتحاد يضمّ الإمارات التسع توحيد هذه الإمارات وتنسيق سياستها الخارجية وتنظيم دفاع مشترك فيما بينها. ولقد اتُخذ المشروع القطري أساساً لاتفاقية اتحاد الإمارات العربية، التي وقّع عليها الحكّام التسعة في شباط ١٩٦٨. وصدر إعلان تضمّن ١٧ مادة، كان أبرزها تلك المواد التي نصّت على توثيق الصلات والعلاقات بين الإمارات، وتقوية التعاون بينها[٣٩]، وتشكيل مجلس أعلى من حكّام الإمارات ووضع ميثاق دائم ورسم سياسة عليا كذلك أشار الإعلان على تشكيل مجلس اتحادي ومحكمة عليا، وشروط تناوب حكّام الإمارات على رئاسة المجلس الأعلى، بصفة دورية. وأشار أيضاً إلى ممارسة كل إمارة لشؤونها الخاصة.

وقد تعرض الإعلان الآنف الذكر إلى جملة من الانتقادات أهمّها: أن ممارسة كل إمارة لشؤونها الخاصة، يعني الاعتراف بالنزاعات المحلية. وقد وجهت انتقادات جديدة حول عزل عمان عن الاتحاد الأمر الذي يرسّخ التجزئة. وللأسف ظهرت خلافات كثيرة خاصة بين قطر وأبو ظبي حول مسألة إعداد جدول أعمال المؤتمر، وحول انتخاب رئيس الاتحاد وتعيين المقر الدائم وإعداد شعار الاتحاد وتوحيد النقد وإصدار جريدة رسمية وعلم ونشيد وطني، وكانت قطر تجد نفسها مؤهلة للقيام بدور

قيادي في الاتحاد بحكم أقدميتها في العمل السياسي، ولا توجد منازعات حول أراضيها ولا ادعاءات إيرانية كما هي الحال مع البحرين.

ويشير وحيد رأفت، وهو المستشار القانوني لدولة الكويت والخبير الدستوري، الذي كلّف فيما بعد بوضع الدستور الاتحادي المؤقت، أن هذه الخلافات كانت ستاراً لنزاعات سياسية واعتبارات محلية. ولذلك أعلنت البحرين فيما بعد استقلالها كدولة ذات سيادة وكذلك فعلت قطر. فسارعت الكويت للقيام بوساطتها الدبلوماسية بين الأطراف. وقد فُسِّر موقفها هذا على أنها تتطلع كي لا يكون في المنطقة دولة تهدّد وجودها. ويشير بعض المراقبين أن الكويت هي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تعطي ولا تأخذ، لأنه ليس لها ادعاءات في المنطقة. وقد قدّمت مساعدات فنية واقتصادية وتعليمية لإمارات الساحل. وأثبتت الوساطة الكويتية نجاحها عندما عاد الحكّام لاستئناف اجتماعهم من ٦-٧ تموز عام ١٩٦٨. وتم بالإجماع اختيار زايد بن سلطان رئيساً للدورة.

وتعدّ الدورة الثالثة، التي عقدت في الدوحة من ١٠-١٤ أيار خطوة هامة في تدعيم الاتحاد إذ تمخض عنها عدة قرارات هامة وهي:

١-أن يكون للاتحاد رئيس ونائب رئيس ينتخبان من بين أعضائه مدة سنتين غير قابلتين للتجديد.

٢-يستبدل المجلس الاتحادي المؤقت بمجلس وزاري مكوّن من ١٣ وزيراً.

٣-أن يكون للاتحاد علم موحّد يمثّله في الخارج وكل إمارة لها علمها الحالي.

٤-تشكيل لجنة من المستشارين والقانونيين لوضع مشروع دستور مؤقت للاتحاد على أن تفرغ اللجنة من أعمالها خلال شهرين، وتعرض نتائج عملها على خبير دستوري عربي لدراسته وتقديم توصيات للمجلس خلال شهر.

٥-بحث الأسس والقواعد المنظمة لمالية الاتحاد إلى جانب تشكيل لجان مختصة[٤٠].

وتنفيذاً لما نصّت عليه قرارات مؤتمر الدوحة، تألفت لجنة من المستشارين القانونيين فوضعت الدستور وعرضته على الخبير العربي الدكتور وحيد رأفت، الذي لم يقتصر دوره فقط على مراجعة المشروعات، التي قدمت له بل سدّ جميع الثغرات فيها وانتهى من إعادة صياغة مشروع دستور متكامل مكون من ١٥٣ مادة موزعة على عشرة أبواب. وأكّد الدكتور رأفت أنه لم يتعرض لأي تأثير من أية جهة معينة. وصاغ الدستور بطريقة محايدة تماماً[٤١].

وخلال اجتماع المؤتمر الرابع، أعرب الشيخ زايد عن أمله في تحقيق نجاحات أكثر مما حققته الدورات السابقة. وبالفعل تمّ في المؤتمر الرابع التصديق على عدة قرارات: منها انتخاب الشيخ زايد رئيساً للاتحاد مدّة سنتين، والاتفاق على أن تكون أبو ظبي عاصمة مؤقتة حتى تبني العاصمة الاتحادية الدائمة بحيث يجري الاختبار بين دبي وأبو ظبي. وتقرر أن يكون التمثيل في المجلس الوطني متساوياً بين جميع الإمارات، وتمثّل كل إمارة بأربعة أعضاء. وكذلك تقرر تشكيل وزارة اتحادية. وكل إمارة تتقدم بقائمة مرشحيها. ولكن الموقف تأزم إثر دخول الوكيل البريطاني في أبو ظبي جميس ترود إلى قاعة اجتماعات المجلس الأعلى للحكّام، وقرأ رسالة من السير ستيورات كرافورد Craw Ford[٤٢]، المقيم البريطاني في الخليج، يبدي فيها رأي بريطانية في شكل قيام الاتحاد وهنا عدّ بعض الحكّام، خاصة حاكمي قطر ورأس الخيمة أن هذا تدخّل من جانب بريطانية. لكن الشيخ زايد كان أكثر ليونة فأصدر بياناً بتأجيل الاجتماع إلى موعد آخر.

وهناك عوامل داخلية أفشلت مباحثات الدورة الرابعة. فقد اعترض حاكم دبي على ترشيح الشيخ خالد حاكم الشارقة لمنصب رئيس الاتحاد، واشتراط حاكم رأس الخيمة الحصول على وزارات معينة مثل وزارتي الدفاع والداخلية.

ومع هذا استجدت أمور كثيرة أخرى، فقد أعلنت البحرين استقلالها في ١٤آب عام ١٩٧١، وتبعتها قطر في أ١ أيلول عام ١٩٧١، وعلّلت انسحابها من الاتحاد بسبب استمرار الخلاف بين الإمارات. واستمرت بعض الخلافات البسيطة بين أعضاء الاتحاد السباعي، حيث اعترض حاكم رأس الخيمة الشيخ صقر القاسمي على تركيز المناصب الوزارية في بعض الإمارات دون غيرها. كذلك ظهرت خلافات عدة بين حاكمي رأس الخيمة والشارقة، كان لها أثر كبير في عدم إمكانية بقاء الإمارتين في دولة واحدة. وبالرغم من امتناع حاكم رأس الخيمة عن التوقيع على دستور الاتحاد فقد أعلن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في الثاني من كانون الأول عام ١٩٧١، من الإمارات الست المتبقية، وأصدر المجلس الأعلى بياناً اختار فيه الشيخ زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي أول رئيس لدولة الإمارات ومدة رئاسته خمس سنوات. واختير الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي نائباً للرئيس مدة خمس سنوات. ويكون للرئيس ونائبه حق التجديد بعد انتهار الفترة عام ١٩٧٦، شريطة موافقة المجلس الأعلى وهو السلطة العليا في الدولة.

وأكّد البيان الرسمي الصادر عن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة أن الدولة الجديدة قامت من أجل توفير حياة أفضل للمواطنين، ولمناصرة القضايا العربية والإسلامية، وتمتين أواصر الصداقة بين جميع الدول والشعوب على أساس ميثاق جامعة الدول العربية والأمم المتحدة(٤٣).

ترافق إعلان ظهور الدولة الجديدة مع إلغاء المعاهدات، التي كانت تربط إمارات الساحل ببريطانية. وحرصت حكومة المحافظين البريطانيين على إقامة علاقات صداقة مع الدولة الجديدة وأصبحت دولة الإمارات العربية الدولة ١٣٢ في الأمم المتحدة والعضو ١٨ في الجامعة العربية.

ولعلّ أهمّ المشكلات الداخلية الخطيرة، التي تعرضت لها هذه الدولة الحديثة بعد شهرين من قيامها، هو الانقلاب الذي حصل في الشارقة عندما قام الشيخ صقر بن سلطان، الذي كان حاكماً سابقاً عليها، وأطيح به عام ١٩٦٥، مع أعوانه بدخول قصر الشيخ خالد حاكم الشارقة وإرغامه على توقيع وثيقة التنازل، لكن أحد أشقاء خالد حاصر القصر وطلب مساندة القوات الاتحادية، التي أنجدته وانتهى الأمر بفشل محاولة الانقلاب، حيث دفع الشيخ خالد حياته ثمناً لهذه المحاولة. وبذلك أثبتت الحكومة الاتحادية قدرتها على ردع أي تهديدات داخلية ضدها. وسرعان ما تقدمت رأس الخيمة، بعد ذلك بطلب لقبولها عضواً في الاتحاد لتسبح الإمارة السابعة فيه.

لقد بذلت دولة الإمارات العربية المتحدة، منذ قيامها جهوداً جبارة لإلغاء الحواجز الجمركية وتوحيد العملات النقدية، إضافة إلى الاهتمام الشؤون الداخلية من تعليم وصحة وخدمات اجتماعية أخرى. كما وضعت دولة الإمارات خطط التنمية الموحّدة في كافة مجالات المجالات الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية والعسكرية، وهذا ما ساعد في توثيق الوحدة وتعايش أبناء الإمارات في ظل دولة موحّدة، بعيداً عن النزعة القبلية والإقليمية، إضافة إلى خلق علاقات إيجابية مع شقيقاتها الدول العربية الأخرى.

الخاتمة:

لقد تبيّن لنا، أن بريطانية لم تكتفِ بوضع أسس التقسيم والتجزئة في المنطقة، بل أعطاها مركزها المتفوق القدرة على أن تعارض أية حركة من حركات التوحيد سواء أكان مبعثها قوة داخلية أم خارجية، فقد عارضت بريطانية أية تحالفات سواء أكانت داخل الإمارة أم بين المشيخات. وقد سبق أن قضت على الحلف بين إمارتي عجمان وأم القوين. ولم تكتفِ بذلك، بل عملت على إضعاف أية إمارة قوية، كما حدث مع الشارقة، التي كانت تضمّ مقاطعات كثيرة، فجزأتها وجملتها كيانات خاصة وشدّدت من تبعيتها لبريطانية.

وفي جميع الأحوال، كانت بريطانية إضافة إلى تشجيع النعرات القبلية تلجأ إلى القوة البحرية لتدعيم سيطرتها في المنطقة. واستخدمت لذلك معاهدات الحماية ليس لترسيخ سيطرتها فقط، بل إلى إدامة الفرقة والخصام بين حكّام الإمارات التي تناولها البحث.

ونتيجة للظروف العربية والدولية، أرغمت بريطانية على الانسحاب من هذه الإمارات عام ١٩٧١، مما أفسح المجال لقيام دولة الإمارات العربية. وهذا ما صحح أوضاع التفكك والتجزئة، التي عانت منها هذه المنطقة زمناً طويلاً. فقيام الإمارات ليس ظاهرة تستدعي الدهشة، وإنما الذي يستدعي الدهشة حقاً هو تبعثر هذه الإمارة وتفككها.

وجاء قيام دولة الإمارات العربية المتحدة، ليحقق أغراضاً سياسية، واقتصادية بعيدة المدى، بفضل ما أتاحه من فرص للإمارات الصغيرة مثل عجمان، وأم القوين، والفجيرة، لرفع مستواها الاقتصادي، من خلال وجودها في ظلّ دولة واحدة. ولقد كانت خطط التنمية في مختلف المجالات الاقتصادية، والتعليمية، والاجتماعية عاملاً مساعداً عبر الزمن، على توثيق العلاقات بين الإمارات أكثر فأكثر وخلق دولة لها مكانها ووزنها بين دول الوطن العربي. ومن غير شك أنه كان لتعايش أبناء دولة الإمارات في ظل جيش واحد وحياة اقتصادية واحدة أثر هام في تحطيم النزعة القبلية والميول الانفصالية، إضافة إلى ترسيخ عرى التعاون بين دول الإمارات وشقيقاتها الدول العربية.

الهوامش

(١) Great Britain F.O. No. 67. **The persien** Gulf London 1920. P. 44 .

(٢) جمال زكريا قاسم، **الخليج العربي ١٨٤٠-١٩١٤**، دار البحوث العلمية، الكويت، ط٢، ١٩٧٤، ص ٥٠.

(٣) John B. Kelly, **Britain and the Persian gulf** 1795-1880 Oxford clerendon press .1968. P. 33.

(٤) مركز دراسات الوحدة العربية، **تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة**، ط ١٩٨١، ص ٩٢-٩٣.

(٥) Wilson (Arnold) The Persian culfLondo 1954 p. 207 – 208.

انظر أيضاً:

Moni, Jarnes< A journey through persia, Armenia and Asia Minor to constontionpole 1809 . London 1812 . p 373.

(٦) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ مكتبة الرياض الحديثة**، ج١، ص ١٤٨.

(٧) جورج لوريمر، **دليل الخليج، القسم التاريخي**، ج٢، طبع مكتبة صاحب السمو أمير دولة قطر، ص ١٠١٥-١٠١٦.

انظر أيضاً:

Atichison cu. Treaties Engements and sands relating India and Neighbouring countries vol X. persia and persien culfcalcutta 1892.

(٩) Creat Britain Foreign office public record office F.o 67. Persian culf p. 44

(١٠) عبد الكريم غرايبة، **تاريخ العرب الحديث، دمشق** ١٩٦٠، ص ٢٧٩.

(١١) محمد مرسي عبد الله، **دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانـــها**، ط١، ١٩٨١ دار العلم، الكويت، ص ١٣٧-١٣٩.

(١٢) لوريمر، **دليل الخليج**، ج٢، ص ١١٩٣. مرجع سابق.

(١٣) عبد الله، **دولة الإمارات العربية**، ص ١٣٩-١٤٠. مرجع سابق.

(١٤) Selection From Records of the Bombays Government vol. XXIV.] نقلاً عن جمال زكريا قاسم، **الخليج العربي** ١٨٤٠-١٩١٤، ص ٥٤.

(١٥) لوريمر، **دليل الخليج**، ج٢، ص ١١٩٣. مرجع سابق.

(١٦) غرايبة، **تاريخ العرب**، ص ٢٨٠. مرجع سابق.

(١٧) غرايبة، **تاريخ العرب**، ص ٢٧٥. نفس المرجع.

(١٨) لوريمر، **دليل الخليج**، ج٢، ص ٩٨٣. مرجع سابق.

(١٩) لوريمر، **دليل الخليج**، ج٢، ص ١٠٢٣-١٠٢٥. نفس المرجع.

(٢٠) لوريمر، **دليل الخليج**، ج٢، ص ١٠٢٦. نفس المرجع.

(٢١) عبد الله، **دولة الإمارات**، ص ١٣٠. مرجع سابق.

(٢٢) سالم بن حمد السيابي، **إيضاح المعالم في تـــاريخ القواســـم**، ط١، ١٩٧٦، ص ٣٠٧-٣١١.

(٢٣) عبد الله، دولة الإمارات، ص ١٣٢-١٣٥. مرجع سابق.

(٢٤) ر. ف. كليسكوفسكي ف. ألوتسكيفيتيش ، **المعضلات الاجتماعية الاقتصاديـــة**، الإمارات العربية، ترجمة حسان اسحاق، دار ميسل ١٩٧٩، ص ٢٠.

(٢٥) لوريمر، **دليل الخليج**، ج٢، ص ١١٧٧-١١٧٨. مرجع سابق.

(٢٦) لوريمر، **دليل الخليج**، ج٢، ص ١١٧٨. مرجع سابق.

(٢٧) لوريمر، **دليل الخليج**، ج٢، ص ١١٩٣-١١٩٤. نفس المرجع.

(٢٨) F.O 371 1144. C.F Nejdian Enercashments of trucial coast under secretary of .state CO. to Fo 24th July 1926.

(٢٩) ر. ف. كليوفسكي، **المعضلات الاجتماعية الاقتصادية**، ٢٠-٢١. مرجع سابق.

(٣٠) جمال قاسم، **الخليج العربي ١٩١٤-١٩١٥**، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٣، ص ٣١٧. مرجع سابق.

(٣١) Clarence, Mann, Abu Dhabi, Birth of an oil sheikhadom, Beirut 1972 - p. 87-88.

(٣٢) جمال قاسم، **الخليج العربي ١٩٤٥-١٩٧١**، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٤، ص ١٨٣. مرجع سابق.

(٣٣) قاسم، **الخليج العربي ١٩٤٥-١٩٧١**، ص ١٨٧-١٨٨. نفس المرجع.

(٣٤) قاسم، **الخليج العربي ١٩٤٥-١٩٧١**، ص ١٨٤-١٨٦. نفس المرجع.

(٣٥) عبد الله، **دولة الإمارات**، ص ٢٠٢-٢٠٥. مرجع سابق.

(٣٦) د. أحمد زكريا الشلق، د. مصطفى عقيل، **قطر واتحاد الإمارات العربية التسع في الخليج العربي ١٩٦٨-١٩٧١**، (دراسة وثائق)، الدوحة ١٩٩١، الوثيقة ٢٢، ص ٣٢٢.

(٣٧) وثائق اتحاد الإمارات، **إمارة دبي**، ديوان الحاكم بيان مشترك، ١٨ شباط، ١٩٦٨.

(٣٨) الشلق+ الخطيب، **قطر واتحاد الإمارات**، ص ٢٤. مرجع سابق.

(٣٩) قاسم، **الخليج العربي ١٩٤٥-١٩٧١**، ص ٣٨٠-٣٨١. مرجع سابق.

(٤٠) الشلق+ الخطيب، **قطر واتحاد الإمارات**، الوثيقة ١٨، ص ٢٧٣-٣٧٥. مرجع سابق.

(٤١) الشلق+ الخطيب، **قطر واتحاد الإمارات**، الوثيقة ١٤، ص ٢٤١.نفس المرجع.

(٤٢) الشلق+ الخطيب، **قطر واتحاد الإمارات**، الوثيقة ٢٣، ص ٣٣٣. نفس المرجع.

(٤٣) الشلق+ الخطيب، **قطر واتحاد الإمارات**، الوثيقة ٢٠، ص ٣٠٦. نفس المرجع.

علماء دمشق والحكومة الفيصلية/الدولة العربية ١٩١٨ـ ١٩٢٠*

الدكتور محمد. م الأرناؤوط

جامعة آل البيت

الأردن

مقدمة:

لم تكن دمشق تشكل استثناء فيما يتعلق بالدور الذي يلعبه العلماء في المدينة، والذي كان ينبع من طبيعة الصلة الوثيقة بين الدين/الإسلام ونظام الحكم العثماني/الإسلامي التي كانت تعطي الشرعية للنظام القائم [١]، دون أن يعني هذا استثناء المكانة الخاصة لدمشق (الأحاديث النبوية الواردة فيها، أهمية قافلة الحج الشامي التي تجتمع وتنطلق منها بالنسبة للدولة العثمانية الخ)[٢]. ولا يخفى هنا أن هذه المكانة الخاصة لدمشق هي التي ساهمت في اجتذاب الأفراد /العلماء من البلدان الأخرى للاستقرار في دمشق وتأسيس عائلات دمشقية خرجت أشهر العائلات كالمرادي والبكري والغزي وغيرهم[٣].

وكان هذا الدور المهم الذي يمارسه العلماء، سواء بالنسبة للمجتمع المحلي أو بالنسبة للدولة العثمانية، إنما ينبع من "احتكار" هؤلاء العلماء لـ"العلم الشرعي"، الذي

---

* في الأصل ورقة قدمت إلى ندوة بناء الدولة العربية الحديثة: تجربة فيصل الأول في سورية والعراق ١٩١٨-١٩٣٣ التي عقدت في جامعة آل البيت/الأردن خلال نيسان ١٩٩٨.

كان يتيح لهم ممارسة هذا الدور من خلال أهم المؤسسات بالنسبة للمجتمع والدولـــة: القضاء (المحاكم الشرعية حينئذ) والتعليم (المدارس الشرعية أو التقليديـــة) والإفتـــاء والأوقاف ومهام الجامع (الإمامة والخطب والوعظ) التي كانت تمارس تأثيراً كبيراً في العامة وقد أدى هذا "الاحتكار" للعلم وتوارثه في عائلات محددة (البكـــري والشـــطي والمحاسني والأسطواني والخطيب وغيرها)(٤) إلى تحول العلماء في دمشق إلى قـــوة مهمة موازية للقوة الإدارية العسكرية العثمانية ومتحالفة معها بسبب ارتباط المصـــالح حتى مطلع القرن التاسع عشر(٥).

وفي الواقع لقد حمل القرن التاسع عشر جملة من التطورات التي هزّت هذه العلاقـــة المستقرة منذ عدة قرون بين العلماء ونظام الحكم.

ففي خريف ١٨٣١ فوجئ العلماء بانهيار النظام العثماني أمام تقدم جيوش محمد علـــي باشا في بلاد الشام، إلا أنهم لم يتخلوا عنه بسهولة. ففي البداية عندما حـــاول محمـــد علي باشا أن يحصل من علماء الشام على فتوى تفيد بعدم صلاحية وقدرة الســـلطان العثماني (محمود الثاني) على الحكم، جاء رد علماء دمشق ببطلان هذا الإجـــراء (٦). وعلى الرغم من أن ابراهيم باشا لم يهمل تمثيل العلماء في الإدارة الجديدة التي أقامها، إلا أن هذا التمثيل كان يعكس في الواقع المكانة الجديدة للعلماء في نظام الحكم غـــير المألوف. ففي حزيران ١٨٣٢ تشكل مجلس شورى دمشق من اثنين وعشرين عضـــواً مع قلة من العلماء برئاسة مسيحي/ذمي (حنا بحري)، مما أثار عليه نقمة العلمـــاء(٧). ومن ناحية أخرى وضع الحكم الجديد أهم حصن للعلماء (القضاء) تحت سيطرته، بعد أن ترك للعلماء/القضاة النظر في القضايا الشرعية (الأحوال الشخصية) وحول كـــل القضايا الأخرى لمجلس الشورى الذي أصبح بمثابة محكمة عليا، بل أعطى للمجلـــس الحق في أن تستأنف أمامه أحكام العلماء/القضاة(٨).ولذلك فقد رحب العلماء في ١٨٤٠ بعودة النظام العثماني، الذي لم يعد في الواقع كما كان نتيجة للتنظيمات/الإصلاحـــات الجديدة (خط كل خانة في ١٨٣٩ وما تبعه حتى ١٨٥٦)(٩). وقد اتضح هذا في فتـــة

١٨٦٠، التي استغلّها نظام الحكم العثماني الجديد ليضرب القوى التقليدية (العلماء وغيرهم) التي أخذت تقاوم أو تعرقل التنظيمات والإصلاحات[١٠]. وبفضل هذه الضربة تمكن نظام الحكم الجديد في متابعة تطبيق التنظيمات/الإصلاحات في أهم حصون العلماء (القضاء والتعليم). ففيما يتعلق بالقضاء تشكّلت حينئذٍ مؤسسات قضائية متخصصة (المحاكم الجزائية والمحاكم التجارية الخ). ومع هذا "الانتقاص" الكبير للقضاة/العلماء، الذي لم يبق لهم من صلاحياتهم الواسعة سوى النظر في الأحوال الشخصية للمسلمين، تقلص كثيراً دور العلماء/القضاة في الحياة الاجتماعية للولاية[١١]. وفيما يتعلق بالتعليم فقد بدأ التغير مع صدور قانون ١٨٤٦ الذي تولت الدولة بموجبه الإشراف على التعليم، بعد أن كان تحت إشراف العلماء، ونص على مجانية التعليم باختلاف أنواعه وتعيين معلمين من غير العلماء بعد أن أصبح التعليم يشمل العلوم الحديثة، وتنظيم التعليم على كافة مستوياته من الابتدائي وحتى العالي[١٢].

وعلى الرغم من هذه التطورات فقد تمكن العلماء من خلال أولادهم من التكيف مع النظام الجديد، وخاصة من خلال قانون الأراضي الذي تمكنوا بواسطته من الاستحواذ على ملكيات واسعة، مما جعلهم من جديد قوة محلية مهمة منسجمة مع النظام العثماني في مطلع القرن العشرين[١٣].

ويبدو هذا الانسجام لدى غالبية العلماء[١٤] ، في الموقف من الفكرة/الحركة العربية الصاعدة في ذلك الوقت. فقد كان موقف العلماء يتراوح بين المتحفظ والمتجهم والمهاجم لفكرة الحركة العربية[١٥]. ويبدو هذا بوضوح في الموقف من "مؤتمر باريس" (١٩١٣) الذي اتسم بمشاركة علماء دمشق، وعلى رأسهم المفتي ونقيب الأشراف وغيرهم، بإصدار بيان عنيف يدين عقد هذا المؤتمر[١٦]. وفي هذا الإطار شارك علماء دمشق (الشيخ عبد المحسن الأسطواني وغيره) فيما سمي حينئذٍ "مؤتمر استنبول" الذي عُدّ بدوره أن المشاركين في "مؤتمر باريس" لا يمثلون سوى أنفسهم،

ودعا إلى توطيد الإطار العثماني مع الاهتمام بالاصطلاحات التي تفيد العرب في الدولة العثمانية[١٧].

وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى حرص علماء دمشق على التعبير عن تأييدهم للدولة العثمانية في هذه الحرب بعد أن أعلن السلطان العثماني الجهاد، وخاصة في اللحظات الحاسمة. وهكذا فقد شاركت نخبة منهم (المفتي محمد أبو الخير عابدين والشيخ عبد المحسن الأسطواني والشيخ تاج الدين الحسني والشيخ عبد القادر الخطيب وغيرهم) في الوفد الذي ذهب إلى استنبول في أيلول ١٩١٥ للتهنئة بالانتصار العثماني في الدردنيل على القوات الإنجليزية[١٨]. ومع اندلاع الثورة العربية في الحجاز في حزيران ١٩١٦ لم يتوان مفتي دمشق الشيخ محمد أبو الخير عابدين عن إصدار فتوى بتكفير الشريف حسين بن علي[١٩].

علماء دمشق والحكومة/الدولة الجديدة:

في خريف ١٩١٨ وبعد انهيار الدولة العثمانية، وجد العلماء أنفسهم في موقف جديد لم يختاروه ولم يكن لهم خيار آخر سوى القبول به على مضض ثم التكيف معه بالتدريج. فمع وصول الأمير فيصل إلى دمشق (٣ تشرين الثاني ١٩١٨) وبيانه الأول إلى السكان (٥ تشرين الثاني) بدت في الأفق ملامح دولة جديدة غير مألوفة بالنسبة للعلماء حتى ذلك الوقت. ففي البيان الأول للأمير فيصل جاء فيه أنه " تشكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة" وأن هذه "الحكومة العربية" قد "تأسست على قاعدة العدالة والمساواة فهي تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي"[٢٠]. وفي الحقيقة لقد بدت دمشق بعد وصول الأمير فيصل وقوات الثورة العربية أقرب ما تكون إلى عاصمة الدولة العربية التي كانت تطمح إليها النخبة المحيطة بالأمير فيصل، والتي كانت تتشكل في معظمها من "أغراب" على السلطة بالنسبة للعلماء سواء

بالمفهوم المحلي أو الاجتماعي. فقد غصّت دمشق بالقوة الحجازية التي رافقت الأمير فيصل وكبار الضباط العراقيين والسوريين والمثقفين اللبنانيين والفلسطينيين (المسلمين والمسيحيين)، وتشكلت الحكومة العربية الأولى من هذا الخليط العربي برئاسة رضا الركابي (الدمشقي الذي لم يكن يمثل العائلات العريقة). وإذا أخذنا بعين الاعتبار المؤسسات الأخرى التي أخذت تتشكل حينئذٍ (مجلس الشورى، المؤتمر السوري، المجمع العلمي العربي الخ) لوجدنا أن الوضع الجديد كان غير مألوف بالنسبة للعلماء. فقد وجد هؤلاء أنفسهم، بعد عدة قرون من التمتع بالنفوذ في المجتمع المحلي والمشاركة القوية في السلطة العثمانية، يفقدون الكثير في "الدولة العربية" نتيجة للمفاهيم والممارسات الجديدة.

فمن ناحية كان يلاحظ أن نظام الحكم الجديد، سواء من خلال خطب الأمير فيصل، أو من خلال الجريدة الرسمية للحكومة (العاصمة)، كان يركّز على مفهوم جديد للعلاقة بين الدين والدولة الجديدة، وهو الذي لم يعتد عليه علماء دمشق الذين ارتبطوا أيديولوجياً وسياسياً واجتماعياً بالعثمنة والخلافة الإسلامية. ففي البيان الأول للأمير فيصل في ٥ تشرين الثاني ١٩١٨ تمّ التأكيد على أن الحكومة العربية الجديدة تقوم على المساواة بين جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم "ولا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي"، وهو ما كرره الأمير فيصل في خطاب له في حلب بعد عدة أيام (١١ تشرين الثاني ١٩١٩) حين ذكر أن "العرب هم عرب قبل عيسى وموسى ومحمد، وأن الديانات تأمر في الأرض باتباع الحق والأخوة"[٢١]. وتجدر الإشارة، كما سنرى لاحقاً، إلى أن هذا التركيز على الطابع الوطني (اللاديني) للدولة الجديدة سيبرز لاحقاً خلال المناقشات في المؤتمر السوري لوضع الدستور الجديد للدولة.

ومن ناحية أخرى فقد كان نظام الحكم الجديد يركّز منذ الأيام الأولى على مفهوم الجدارة وليس العراقة، وعلى مفهوم الكفاءة وليس الوراثة للمناصب العلمية والإدارية،

وهو لم يكن بالمألوف بالنسبة لمجتمع تركزت فيه المعرفة (الشرعية) والعراقة في عائلات محدودة. وهكذا فقد أكّد الأمير فيصل في خطبته المذكورة في حلب (١١ تشرين الثاني ١٩١٨) على مفهوم الجدارة والكفاءة بالنسبة للإدارة الجديدة "دون أن ينظر للمرء من حيث شرف عائلته وخصوصيته، بل ينظر إلى الرجل الكفء شريفاً كان أو وضيعاً، إذ لا شرف إلا بالعلم"(٢٢). وفي هذا الإطار نجد أن مجلس الشورى الجديد، الذي شكله الركابي في الأيام الأولى للدولة الجديدة، ضم الشيخ عبد المحسن الأسطواني من علماء دمشق كما ضم كبار رجال القانون من المسيحيين مثل فارس الخوري من دمشق، وقسطاكي الحمصي من حلب، وجورج رزق الله من بيروت(٢٣). وفي هذا الإطار نجد أن المجمع العلمي العربي الذي تشكل في ٣٠ تموز ١٩١٩ برئاسة الأستاذ محمد كرد علي ضم الشيخ عبد القادر المغربي من علماء دمشق، كما ضم نخبة من المثقفين المسيحيين كالمطران أفرام برهوم مطران السريان الأرثوذكس، وأنيس سلوم رئيس الطائفة الإنجيلية، وقسطاكي الحمصي وسليم عنجوري(٢٤). ولم يكن الوضع يختلف في المؤسسات الأخرى كمعهد الحقوق والمعهد الطبي وغيرها.

وفي الواقع إن الشهور الأولى للحكومة الفيصلية/الدولة العربية (تشرين الأول ١٩١٨– أيار ١٩١٩) شهدت بعض التطورات التي ساهمت في بلورة موقف العلماء من هذه الحكومة/الدولة:

١– قدوم بعض العلماء إلى دمشق خلال تلك الفترة، سواء من الدمشقيين المقيمين في القاهرة لأسباب سياسية (الشيخ كامل القصاب، محب الدين الخطيب) أو القادمين من المناطق المجاورة (الشيخ محمد رشيد رضا، الشيخ سعيد مراد الغزي) للمشاركة في المؤتمر السوري، والذين ساهمت مواقفهم في بلورة المفاهيم الجديدة (الوطنية والديمقراطية والمدنية الخ) للدولة الجديدة.

٢- التوجه نحو انتخاب مجلس/مؤتمر يعبر عن رغبات السكان أمام لجنة التحقيق المنبثقة من مؤتمر الصلح المنعقد في باريس، وهو ما كان يؤمل منه إعطاء غطاء شرعي للحكومة الفيصلية/الدولة العربية وأساس دستوري (وضع دستور جديد). وقد جرت الانتخابات بالفعل خلال أيار ١٩١٩ في المناطق الداخلية فقط (دمشق وحلب وحماة وحمص)، بينما تمت ترشيحات الأعضاء من قبل التجمعات والجمعيات المحلية في المناطق الأخرى (لبنان وفلسطين)[٢٥]. ونتيجة لذلك فقد كانت انتخابات دمشق العاصمة هي الأهم، لأنها فرصة لاستبيان القوى القديمة/الصاعدة في العهد الجديد. وهكذا فقد انتهت الانتخابات إلى فوز ساحق لقائمة العلماء والأعيان (١٤ من أصل ١٦ ممثلاً) بينما لم يتمكن من الفوز إلا اثنان من القائمة التي تمثل الحكومة الجديدة (نسيب البكري وفايز الشهابي)[٢٦]. وفي هذا الإطار كان ضمن القائمة الفائزة من علماء دمشق الشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ تاج الدين الحسني والشيخ مسلم الحصني، الذين أصبحوا الآن ممثلين لدمشق في المؤتمر السوري[٢٧].

وبعد تكامل أعضاء المؤتمر السوري، سواء بالانتخاب أو بالتوكيل والتعيين، افتتح الأمير فيصل هذا المؤتمر في ٧ حزيران ١٩١٩ وركّز على دوره بوضع دستور جديد للدولة[٢٨]. ومع المناقشات التي دارت بعدئذٍ في المؤتمر السوري، سواء حول السياسة الخارجية أو حول مواد الدستور الجديد أخذ يتبلور نوع من الانقسام بين العلماء على مستويين مختلفين، الأول سياسي والثاني فكري - اجتماعي.

فعلى الصعيد السياسي يمكن القول أن هذا الموقف أخذ يتبلور حول سياسة الأمير الخارجية، وبالتحديد حول العلاقة مع فرنسا. وتجدر الإشارة إلى أن بعض العلماء (الشيخ كامل القصاب والشيخ محمد رشيد رضا وغيرهم) كانوا في الأصل غير ميالين إلى الشريف حسين وأولاده، ولذلك ساهموا في القاهرة في تأسيس "حزب الاتحاد السوري" لأجل العمل على استقلال سورية خارج نطاق الحجاز أو الشريف

حسين وأولاده[٢٩]. وعندما جاء هؤلاء مع أركان الحزب إلى دمشق بعد إعلان الحكومة/الدولة العربية قبلوا بوجود الأمير فيصل على رأس هذه الحكومة/الدولة الذي اصبح يجمعهم معه حزب العربية الفتاة/حزب الاستقلال، ولكنهم اختلفوا مع الأمير فيصل حول العلاقة مع فرنسا. فبعد جولة الأمير فيصل في أوربا في خريف ١٩١٩ وعودته بأقصى ما تمكن من انتزاعه (اتفاق فيصل – كلمنصو في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠) تصاعدت المعارضة للأمير فيصل وخاصة من خلال "اللجنة الوطنية العليا" التي تأسست في تشرين الثاني ١٩١٩ مطلع ١٩٢٠ برئاسة الشيخ كامل القصاب، و"المؤتمر السوري" الذي تولى رئاسته في أيار ١٩٢٠ الشيخ محمد رشيد رضا بعد أن كان نائباً للرئيس منذ اليوم الأول له[٣٠]. وفي المقابل نجد أن علماء دمشق من العائلات العريقة أخذوا يتقربون أكثر من الأمير فيصل ويتقبلون أكثر سياسته الواقعية مع فرنسا. وقد تبلور هذا الموقف أكثر بمشاركة هؤلاء العلماء في تأسيس "الحزب الوطني السوري" في كانون الثاني ١٩٢٠، الذي عُدَّ بمثابة الحزب الدمشقي المعارض لنفوذ "الغرباء" أو "حزب الاستقلال"[٣١] على الرغم من التشابه الكبير في الأهداف المعلنة[٣٢]. وقد شارك حينئذ في تأسيس هذا الحزب من العلماء الشيخ تاج الدين الحسني والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ عبد المحسن الأسطواني والشيخ مسلم الحصني والشيخ محمد المجتهد[٣٣]. وقد لجأ الملك فيصل في ٢٦ تموز ١٩٢٤، أي بعد معركة ميسلون بيومين، إلى تشكيل حكومة جديدة من هذا الحزب برئاسة علاء الدين الدروبي، إلا أن هذا الحزب ذهب في تعاونه مع الفرنسيين إلى حد أنه طلب من الملك فيصل مغادرة البلاد بعد ثلاثة أيام فقط[٣٤].

أما على الصعيد لفكري — الاجتماعي فقد تبلور الموقف خلال المناقشات لمواد الدستور الجديد للدولة، وبالتحديد حول شكل نظام الحكم والعلاقة بين الدين والدولة وحقوق المرأة الخ.

وفي الواقع لقد كانت بعض الأمور أخذت تتبلور حتى قبل افتتاح المؤتمر السوري في حزيران ١٩١٩، وبالتحديد خلال المناقشات لتأسيس "حزب الاتحاد السوري" في القاهرة خلال صيف ١٩١٨، الذي انتخب ميشيل لطف الله رئيساً له، والشيخ محمد رشيد رضا نائباً للرئيس.

وتجدر الإشارة إلى أن مؤسسي هذا الحزب كانوا من المعارضين للشريف حسين، وبالتحديد لأي ربط لمصير سورية بالحجاز سواء بالمفهوم الديني أو السياسي، وهو ما يبدو بوضوح في برنامج هذا الحزب(٣٥). ومما يلفت النظر أن مشاركة علماء كالشيخ محمد رشيد رضا والشيخ كامل القصاب في تأسيس هذا الحزب وبلورة مبادئه، لم تمنع من تبني الحزب لنظام حكم علماني (مدني) لسورية المستقلة. فقد ورد في المبادئ الأساسية للحزب، أن يكون الحكم في سوريا المستقلة "على مبدأ الديمقراطية اللامركزية، ويكون أساس قوانينها وأحكامها مدنياً بحتاً ما عدا أحكام الأحوال الشخصية"(٣٦). ويعترف الشيخ رشيد رضا في وقت لاحق أنه رضي أن يكون من مؤسسي هذا الحزب المخالف لمذهبه السياسي، لأجل "الحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسورية بعد أن أطال الدعوة إلى مذهبه فلم يستجب له من فضلاء النصارى بمصر إلا أفراد قليلون"(٣٧).

وكان من الطبيعي بعد انتقال أركان هذا الحزب إلى دمشق وانضمامهم إلى "الحزب الحاكم" (العربية الفتاة — الاستقلال) وانتخابهم أعضاء في المؤتمر السوري (الشيخ رشيد رضا نائب الرئيس ثم الرئيس) أن يبرز تأثير هذا التوجه العلماني (المدني) في المناقشات التي كانت تدور سواء في جلسات المؤتمر السوري أو خارجه على صفحات الجرائد. وهكذا بعد الجلسة الافتتاحية للمؤتمر السوري في ٣ حزيران ١٩١٩، التي تم فيها الاتفاق على رفع عريضة شكر وتأييد للأمير فيصل لما قام ويقوم به في سبيل سورية، توتر الوضع في الجلسة الثانية حين اعترض علماء دمشق

على خلوّها من البسملة فقابلهم النواب الآخرون وكلهم من خريجي المعاهد الحقوقية والعلمية العالية أن "الأمة تتطلع إلى فجر جديد تتجلى فيه فكرة تأسيس حكومة تتفق وروح العصر لا دخل فيها للدين، فتبقى الأديان السماوية في حُرمتها وقداستها وتسير السياسة في انطلاقتها حسبما تقتضيه مصلحة الوطن أسوة بالأمم الراقية"(٣٨). إلا أن العلماء عادوا إلى المعارضة واحتدم الجدال بين الفريقين ووصل حداً يوحي باحتمال انقسام الأمة وراء نوابها إلى شطرين، إلا أن تدخل النائب يوسف الحكيم، الذي أوضح أن "التعددية" التي يرغب فيها بعض النواب لا تتناقض مع الاعتقاد بالله واستشهد على ذلك ببريطانيا التي تظهر في كل مناسبة تمسكها بالدين دون أن تدخله في السياسة، خفف في هذا التوتر وأقر المؤتمر حلاً وسطاً اقترحه، يتمثل من الاكتفاء ببسملة من كلمتين "بسم الله"(٣٩).

ونظراً لأن الأمير فيصل قد أشار في كلمته الافتتاحية للمؤتمر السوري إلى أنه من المستحسن أن يؤلف المؤتمر لجنة لتضع مشروع دستور للدولة السورية، فقد بادر المؤتمر بالفعل في جلسة خاصة خلال تموز ١٩١٩ إلى انتخاب هذه اللجنة برئاسة هاشم الأتاسي التي دخل في عضويتها بعض العلماء كالشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ عبد العظيم الطرابلسي. ويذكر لنا سكرتير هذه اللجنة عزت دروزه، أن اللجنة قد استأنست بدساتير كثيرة من بلاد عديدة لوضع مشروع الدستور خلال الدورة الأولى للمؤتمر السوري (حزيران — كانون الأول ١٩١٩) بينما لم تبدأ مناقشة مشروع الدستور إلا في الدورة الثانية للمؤتمر السوري (آذار — تموز ١٩٢٠)(٤٠). ويلاحظ هنا أن المناقشات التي دارت حول مواد مشروع الدستور أبرزت الانقسام حول موضوعين حساسين بالنسبة لذلك الوقت: العلاقة بين الدين والدولة، والحقوق السياسية للمرأة.

وفيما يتعلق بالموضوع الأول تجدر الإشارة إلى أنه قد أثير أولاً في جلسة ٧ آذار ١٩٢٠ التي خصصت لإعداد قرار باستقلال سورية. فقد اقترح بعض الأعضاء من غير المسلمين أن ينص في قرار المؤتمر على أن حكومة سورية لا دينية (لائيكية)، ووافقه بعض المسلمين وعارضه آخرون مقترحين أن ينص فيه على أنها حكومة إسلامية عربية أو دينها الرسمي الإسلام[٤١]. وحين احتدم الخلاف بين الطرفين تدخل الشيخ رشيد رضا باقتراح السكوت على هذه المسألة لأنه "إذا أعلنت الحكومة لا دينية يفهم منها جميع المسلمين أنها حكومة كفر وتعطيل، لا تتقيد بحلال ولا حرام، ومن لوازم ذلك أنها غير شرعية فلا تجب طاعتها ولا إقرارها بل يجب إسقاطها عند الإمكان"[٤٢]. وقد وافقت أغلبية الأعضاء على هذا الاقتراح والاكتفاء باشتراط أن يكون دين ملكها الرسمي هو الإسلام[٤٣]. وبعد إعلان استقلال سورية في اليوم التالي (٨ آذار ١٩٢٠) بدأ المجلس بمناقشة مواد مشروع الدستور الجديد وقد تأخر إقرار المادة الأولى التي تتعلق بنظام الحكم حتى ١٢ تموز/ ١٩٢٠. حيث جاءت منسجمة مع نتيجة المناقشة، التي دارت حول ذلك في جلسة ٧ آذار ١٩٢. وهكذا فقد تضمّنت المادة الأولى أن "حكومة المملكة السورية العربية حكومة مدنية نيابية عاصمتها دمشق الشام ودين ملكها الإسلام"[٤٤]، أي أن العلاقة بين الدولة والدين (الإسلام) انحصرت في ديانة ملكها فقط.

أما فيما يتعلق بالموضوع الآخر (الحقوق السياسية للمرأة) فقد دارت حوله مناقشات حامية أكثر وأخذت حيزاً أكبر من الجلسات خلال نيسان ١٩٢٠. وقد ثار النقاش نتيجة لإصرار بعض النواب على النص صراحة على مساواة المرأة بالرجل سياسياً ومدنياً وتمثيلاً وانتخاباً، مما أثار معارضة مضادة من علماء دمشق الذين قدموا مذكرة بخصوص عدم الموافقة على إعطاء المرأة حق الانتخاب[٤٥]. وكان ممن شارك في الدفاع في مساواة المرأة الشيخ سعيد مراد الغزي، الذي كانت له وقفة قوية إلى جانب حقوق المرأة ومساواتها في إطار آراء جريئة إصلاحية إسلامية عن المرأة في

الإسلام وحقوقها وأهليتها. ونتيجة لهذه المناقشات كان رأي الأغلبية لصالح إقرار المساواة السياسية للمرأة مع الرجل وحقها في الانتخاب والترشيح للمجلس النيابي، إلا أن هذه الأغلبية اكتفت حينئذٍ بتسجيل انتصارها في المحاضر لكي لا تثير "العوام" في الخارج، والإبقاء على النص الوارد في مشروع الدستور الذي يشمل في المطلق الرجل والمرأة[٤٦]. فقد نص البند (١٠) على "أن السوريين متساوون أمام القانون في الحقوق والواجبات"، بينما نص البند (٧٨) على أنه "لكل سوري أتم العشرين من سنه ولم يكن ساقطاً من الحقوق المدنية، الحق في أن يكون نائباً أول ويكون حائزاً على شهادة المدارس العالية منهم رأيان"[٤٧].

تأطير العلماء في الدولة الجديدة:

بادرت الحكومة الفيصلية/الدولة العربية في أيامها الأولى إلى تأليف "مجلس الشورى" الذي خول درس وإعداد لوائح القوانين والأنظمة والقرارات التي كانت ضرورية للإدراة الجديدة[٤٨]. وهكذا فقد صدر بعد أسبوعين فقط من تشكيل الحكومة العربية (١٣ تشرين الأول ١٩١٨) مشروع "قانون التشكيلات العدلية" الذي أدخلت عليه بعض التعديلات قبل إقراره بالشكل النهائي في ٩ كانون الثاني ١٩٢٠. وفي الواقع أن هذا القانون إنما يؤكد التقاليد التي تشكلت في سوريا منذ إصلاحات ابراهيم باشا و "تنظيمات" الدولة العثمانية في الفصل بين المحاكم الشرعية والمحاكم العادية — العدلية. وهكذا فقد بينت المادة الأولى من القانون وجود نوعين فقط من المحاكم (عدلية وشرعية)، وحددت مهام المحاكم الشرعية في المادة الثانية التي أصبحت تتناول "الدعاوى العائدة للمناكحات والنفقات والحضانة والوصية والدعوى على التركات بين الورثة والدعاوى المصدرة على الأوقاف الخ "بينما تركت كل القضايا الأخرى للمحاكم العدلية حتى تفصل بموجب القوانين المدنية[٤٩].

ومن ناحية أخرى كرّست الدولة تقليداً جديداً أصبح بموجبه الأمير/الملك فيصل يصادق بإرادة مطاعة على تنسيب "لجنة التوجهات العلمية" التابعة لدائرة الأوقاف بتعيين من تراه مناسباً في الشواغر (الإمامة والخطابة والتدريس والتولية على الأوقاف الخ). ويلاحظ هنا أن هذه الشواغر أصبحت تعلن في الجريدة الرسمية "العاصمة" ويطلب ممن يجدون في أنفسهم المؤهلات لذلك التقدم إلى دائرة الأوقاف، حيث كانت "لجنة التوجيهات العلمية" تقوم بإجراء مسابقة بين المتقدمين لاختيار الأفضل، ثم تصدر إرادة أميرية —ملكية بتعيين من تزكيه اللجنة المذكورة. وعلى هذا النحو أيضاً أصبح الأمير/الملك فيصل يصادق على تعيين المفتيين بعد انتخابهم وسواء في الأقضية[٥٠]، أو على مستوى المذاهب كما حدث مع مصادقته على انتخاب الشيخ عبد المحسن الأمين مفتياً على الشيعة في دمشق وأعمالها[٥١].

ومن الإجراءات الجديدة التي اتخذت في الأسابيع الأولى للدولة العربية قرار مجلس الشورى في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٨ باعتماد جدول للعلماء الذين يستحقون "المعاونة، والمساعدة على أمر تأمين معيشتهم للنفع الذي ينجم عن اشتغالهم بالعلم"، ولكن "إذا عيّن أحدهم في أي وظيفة كانت ذات راتب" تقطع عنه المساعدة فوراً. وقد ضم هذا الجدول عشرين من علماء دمشق أو المتواجدين في دمشق حينئذٍ (مفتي طرابلس الغرب، الشيخ عبد الله المنجد، الشيخ أمين سويد، الشيخ أحمد دهمان، الشيخ عبد الرحيم دبس وزيت، الشيخ بهجت البيطار وغيرهم)[٥٢].

ومن ناحية أخرى لم تقصر الدولة الجديدة في الاهتمام بالتعليم الديني وذلك لإصلاحه وجعله عصرياً أكثر، مع أن اهتمامها الأساسي كان في إكمال شبكة التعليم المدني من المدارس الابتدائية وحتى المعاهد العليا. وهكذا تورد "العاصمة" أن الأمير فيصل كان قد أوعز خلال زيارته لحلب بتنظيم المدارس الدينية، وطلب إلى ما تحتاجه من النفقات. وقد أكملت اللجنة المذكورة عملها ووضعت برنامجا للمدارس الدينية يقرب

من برنامج الأزهر في الإدارة والترتيب، حيث أصبحت مدة التحصيل اثني عشرة سنة وتقسم إلى ثلاثة أقسام (ابتدائي وثانوي وعال)، وأضافت بعض العلوم العصرية (التاريخ والجغرافيا والهندسة وعلم الفلك الخ) إلى هذه الأقسام[٥٣].

ومن أهم القوانين التي أصدرتها الدولة الجديدة في أواخر عهدها لتنظيم مؤسسة العلماء كان "قانون تشكيل مديرية الأمور العلمية" الذي أصدره رئيس الحكومة الركابي في ٢٩ آذار ١٩٢٠ وصادق عليه الملك فيصل في مطلع نيسان ١٩٢٠. ويلاحظ هنا أنه ولأول مرة ومع روح بناء المؤسسات الجديدة في الدولة، تشكل هيئة مرجعية مرتبطة برئاسة الوزراء مباشرة لكي تكون "مرجعاً للمفتيين والمدرسين ومشايخ الطرق، ولها حق الإشراف على المؤسسات الدينية الإسلامية" (البند ١)، كما أصبح من واجبها "الإدارة العامة للأوقاف الإسلامية (البند ٢)[٥٤]. ولاشك أن هذا القانون كان يمثل أهم "تدخل" للدولة العربية في دمشق لتأطير العلماء في مؤسسة مرتبطة مباشرة بالحكومة.

الهوامش

١- للمزيد حول هذه الصلة انظر: بيري أندرسون، **دولة الشرق الاستبدادية**، ترجمة بديع عمر نظمي، بيروت (مؤسسة الأبحاث العربية) ١٩٨٣، ص١٤ — ١٥. د. وجيه كوثراني، **السلطة والمجتمع والعمل لسياسي — من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، بيروت (مركز دراسات الوحدة العربية) ١٩٨٨، ص ٤١ — ٤٢.

٢- للمزيد حول الأحاديث المرغبة بالهجرة إلى الشام والاستقرار فيها انظر: أحمد بن محمد المقدسي، **مثير الغرام بفضائل القدس والشام**، تحقيق أحمد سامح الخالدي، يافا (المطبعة العصرية) د.ت.

وحول أهمية قافلة الحج لدمشق: د. عبد الكريم رافق، "**قافلة الحج الشامي، وأهميتها في العهد العثماني**"، دراسات تاريخية عدد ٦، دمشق ١٩٨١، ص ٥ — ٢٨.

٣- حول أصول هذه العائلات ومكانتها في دمشق بعد أن استقرت وتجذرت فيها انظر: Linda Schathowski Schilcher, **Families in politics** - Damancene Factions and Estates of the 18th and 19th centaries, Stuttgart 1985, pp 156 – 193.

4- Ibid, pp. 124-156 – 193; philip S. Khoury, Urban notables and Arab nationalism –The politics of Damascus 1860 – 1920, Cambridge 1983, pp. 13 – 16.

5- Khoury, Urban notables, pp. 13 – 16

٦- د. لطيفة محمد سالم، **الحكم المصري في الشام ١٨١٣ — ١٨٤١**، القاهرة (مكتبة مدبولي) ١٩٩٠، ص١٨.

ولكن يبدو بالاستناد إلى البيطار، إن علماء دمشق استجابوا فيما بعد بضغط ابراهيم باشا وأصدروا فتوى بخلع السلطان محمود الثاني. وقد اشترك حينئذٍ في إصدار هذه الفتوى مفتي دمشق وعلماؤها من المذاهب الأربعة: عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر**، ج١ دمشق ١٩٦٠، ص٢٣.

٧- إن أفضل من يعبر عن نقمة العلماء هذه الشيخ عبد الرزاق البيطار الذي يصف كما يلي ابراهيم باشا في ترجمته: "غشوم ظالم ... قدم العيسوية على المحمدية، وأذل أهل الشرف والعلم والاحترام، وأعز الأسافل الطغاة اللئام"، المصدر السابق، ص٢٣.

٨- سالم، **الحكم المصري في الشام**، ص ٩١.

٩- يتضح هذا في اليوم الثاني لعودة الحكم العثماني، حين بادر مفتي دمشق (الشيخ محسن الأسطواني) إلى كتابة "خلاصة" تطالب المسيحيين بعدم التشبه بالمسلمين (عدم ركوب الخيل وحمل السلاح واقتناء الجواري واعتماد اللفة البيضاء الخ)، مما أثار احتجاج المسيحيين لدى المتسلم العثماني الجديد. ولما استدعى المتسلم المفتي وسأله عن ذلك أجابه إنما فعل ذلك "لأن النصارى خرجوا عن طورهم وصاروا يقلّدون الإسلام بجميع أمورهم". ولكن في اليوم التالي جاء القائد العثماني الجديد أحمد زكريا باشا وأمر بالمناداة في شوارع دمشق "أن النصراني يقتني جواري ويلف لفة بيضاء ويركب ويشرب عرق وخمر ويكون مثل أيام ابراهيم باشا وزيادة...": مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سورية، تحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق (دار قتيبة) د.ت، ص١٣٨ — ١٣٩.

١٠- ومن ناحية أخرى يعبر قاضي دمشق الشيخ محمد سعيد الأسطواني في مذكراته عن مشاعر العلماء حين وصل وقرى في دمشق خط ١٨٥٦، الذي كان يحمل "التوصية الكلية بالمسيحيين المتضمن اللمساواة والحرية وغيرها من مصادقات الشريعة المطهرة. . ." الشيخ محمد سعيد الأسطواني، **مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر**، جمع وتحقيق الدكتور أسعد الأسطواني، دمشق (د.ت) ١٩٩٣، ص ١٦٢.

١١- كوثراني، **السلطة والمجتمع**، ص ٨٢. د. تيسير خليل محمد الزواهرة، **تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق من ١٨٤٠ — ١٨٦٤**، الكرك (جامعة مؤتة) ١٩٩٥، ص ١٩٠.

١٢- كوثراني، **السلطة والمجتمع**، ص ٩٠.

١٣- الزواهرة، **تاريخ الحياة الاجتماعية**، ص ١٤١.

12- Khoury, Urban natables, pp. 30 – 35

١٤- في المقابل نجد أن خير من يمثل الأقلية المختلفة الشيخ طاهر الجزائري، الذي قام بنشاط كبير في الربع الأخير للقرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى أن اضطر في ١٩٠٧ إلى الهجرة إلى القاهرة تعبيراً عن احتجاجه لمضايقة السلطات العثمانية له. وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ الجزائري قد شكل حلقة علمية انضم إليها الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ سليم البخاري وغيرهم م الجيل الشاب (عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وعبد الرحمن الشهبندر) التي أخذت تعمل على إحياء التراث العربي والاجتهاد الإسلامي والانفتاح على الصالح من الحضارة الغربية، وقد أدت هذه الحلقة إلى تشكل حلقة أضيق م العلماء الذين قدموا إلى المحكمة في عام ١٨٩٥ فيما عرف بـ "حادثة المجتهدين".

للتوسع حول ذلك انظر: كوثراني، **السلطة والمجتمع** ص ١٤٥ — ١٥٠

وللمزيد عن الشيخ الجزائري انظر: عدنان الخطيب، **الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وإعلام من خريجي مدرسته**، القاهرة (معهد البحوث والدراسات العربية) ١٩٧١.

١٥- **مذكرات محمد عزة دروزة**، ج١، بيروت (دار الغرب الإسلامي) ١٩٩٣، ص٢٧٧، شكيب أرسلان، **سيرة ذاتية**، بيروت (دار الطليعة) ١٩٦٩، ص ١٠٨ — ١٠٩.

١٦- . كوثراني، **السلطة والمجتمع**، ص ١٨٦، د. علي سلطان، **تاريخ سورية ١٩٠٨ — ١٩١٨**، دمشق (دار طلاس) ١٩٨٧، ص١٨٠.

١٧- للمزيد عن هذا المؤتمر انظر: أرسلان، **سيرة ذاتية**، ص ١١٠ — ١١٣.

١٨- **مذكرات محمد عزة دروزة**، ج١ ص ٢٥٨.

وقد شارك وفد العلماء أربعة صحفيين معروفين (محمد كرد علي وحسين الحبال ومحمد الباقر وعبد الباسط الأنس) كانوا يغطون أخبار هذه الزيارة ونشروا لاحقاً كتاباً حول هذه الزيارة وما قيل خلالها في بيروت ١٩١٦ بعنوان "**البعثة العلمية إلى دار الخلافة**".

ويذهب دروزة في تعليقه على ما قيل خلال هذه الزيارة (ص٢٥٨ — ٢٥٩) إلى أن الهدف الحقيقي لها هو امتداح ما قام به جمال باشا في سوريا حتى ذلك الحين.

١٩- سليمان موسى، **الحركة العربية — المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ — ١٩٢٤**، بيروت (دار النهار) ١٩٧٧، ص٢٨٥.

٢٠- ساطع الحصري، **يوم ميسلون صفحة من تاريخ العرب الحديث**، بيروت (مكتبة الكشاف) د.ت، ص ١٩٤.

٢١- **المصدر السابق**، ص ١٩٨.

٢٢- **المصدر السابق**، ص ١٩٩.

٢٣- يوسف الحكيم، **سورية والعهد الفيصلي**، بيروت (دار النهار) ١٩٦٦، ص٣٩.

٢٤- المصدر السابق، ص٤٤.

٢٥- يكشف دروزة في مذكراته (ج١، ص ٣٤٨ — ٣٥٠) أن هذه الترشيحات/التزكيات كانت تقابل بمعارضة أحياناً وتؤدي إلى إضافة أسماء أخرى لحفظ توازنات معينة. ومن ناحية أخرى يبين رسل في رسالته للدكتوراه أن ممثلي جبل لبنان كانوا يتساوون تقريباً بين المسلمين والدروز والأرثوذكس دون أن يكون بينهم أي ماروني. ومن ناحية أخرى فقد كان المسيحيون يمثلون مناطق ليس فيها ثقل مسيحي ولا يتمثلون في المناطق ذات الثقل المسيحي كبعلبك مثلاً:

Malcom B. Russell, The First Modern Arab State – Syria under Faysal 1918 – 1920, Minneapolis 1985, p.62.

وعن تمثيل المؤتمر انظر الجزء الخاص بذلك في تقرير لجنة كينغ — كراين:

The program of the Syrian Congress, Hashimite Dynasties, Vol. 10, part one, Syria: The Reign of king Fasal, Edited by Alan de L. Rush, London (Arshive Editions) 1995, p. 313.

٢٦- تجدر الإشارة إلى حزب العربية الفتاة أرسل جميل مردم بك، باعتباره سليل إحدى العائلات الدمشقية البارزة، إلى محمد فوزي باشا العظم ممثل القوى التقليدية

لدعم القائمة القومية والترشيح معهم، إلا أن العظم رفض هذا الاقتراح فوراً باعتباره إهانة لكرامته:

مذكرات خالد العظم، ج١ بيروت (الدار المتحدة للنشر) ١٩٧٣، ص ٩٤ — ٩٥.

وانظر أيضاً: Khoury, Urban natables, p.87

٢٧- **مذكرات محمد عزة دروزة**، ج١، ص٣٥١.

٢٨- الدكتور أحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٩٣، ص١٢٢.

٢٩- **مذكرات محمد عزة دروزة**، ج١، ص ٢٣٩، ٤٠٧ — ٤٠٩ وللمزيد حول هذا الحزب انظر:

خيرية قاسمية، ا **لحكومة العربية في دمشق** بين ١٩١٨ — ١٩٢٠، بيروت (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ١٩٨٢، ص٧٢، صبحي العمري، **أوراق الثورة العربية: ميسلون نهاية عهد**، لندن — قبرص (رياض الريس للكتب والنشر) ١٩٩٣، ص ٦٦ — ٨٦.

٣٠ — الحكيم، **سورية والعهد الفيصلي**، ص ٩٥.

٣١- **مذكرات محمد عزة دروزة**، ج١، ص ٤٢١.

ويضيف دروزة (ص٤٢١) أن تحريض زعماء هذا الحزب ضد "الغرباء" (أي الوافدين إلى دمشق) قد أثرت على نفسه كثيراً وجعلته يرفض دعوة من ساطع الحصري للذهاب إلى العراق للمشاركة في بناء عهد الملك فيصل فيه، ويحذر الحصري من "تكرار تنبه" ولمزيد حول هذا الحزب انظر:

العمري، **أوراق الثورة العربية**، ص ٦٩ — ٧٠؛ د. سهيلة الريماوي، **الحكم الحزبي في سورية أيام العهد الفيصلي** ١٩١٨ — ١٩٢٠، عمان (مجدلاوي)١٩٩٧، ص٥٠ — ٥٢.

٣٢- الريماوي، **الحكم الحزبي**، ص ٥١ — ٥٢ ويلفت النظر، كما يقول دروزة (ج١، ص٤٢١) إن عدداً من مؤسسي هذا الحزب كانوا أعضاء قدامى في جمعية العربية الفتاة وحزب الاستقلال الريماوي، **والحكم الحزبي**، ص ٥٣.

٣٣- قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية**، ص ١٧٣، مذكرات محمد غرة دروزه، ج١، ص ٤٢١، الريماوي، الحكم الحزبي، ص ٥٣.

٣٤- قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية**، ص ٢٧٥؛ مذكرات محمد عزة دروزة، ج١، ص ٤٨٣، Russell. The First Modern Arab State p.105

٣٥- **مذكرات محمد عزة دروزة**، ج١، ص ٤٠٨ — ٤٠٩.

٣٦- العمري، **أوراق الثورة العربية**، ص ٦٨.

٣٧- محمد رشيد رضا، "**المسألة السورية والأحزاب**". المنار، المجلد ٢١، الجزء٤، القاهرة ١٩١٩، ص ٢٠٢ — ٢٠٣.

٣٨- الحكيم، **سورية والعهد الفيصلي**، ص ٣٩.

٣٩- **المصدر السابق**، ص ٣٩.

٤٠- **مذكرات محمد عزة دروزة**، ج١، ص ١٩٠.

٤١- الشيخ محمد رضا، "**العبرة بسيرة الملك فيصل**". المنار، المجلد ٣٤، الجزء ١، القاهرة ١٩٣٤، ص ٦٩.

٤٢- **المصدر السابق.**

٤٣- **المصدر السابق.**

٤٤- تجدر الإشارة إلى أن هذا البند الأول من الدستور لم يقر إلا في جلسة ١٢ تموز ١٩٢٠: العاصمة عدد ١٤٠، دمشق ١٥ تموز ١٩٢٠، ص٢.

٤٥- جريدة "العاصمة" عدد ١٣٩، دمشق ١٥ تموز ١٩٢٠، ص١؛ **مذكرات محمد عزة دروزة**، ج١، ص ٤٦٢.

٤٦- **المصدر السابق**، ج١، ص ٣٩٠ — ٤٦٢.

٤٧- قاسمية، **الحكومة العربية**، ص ٢٩٢ — ٣٠٠.

٤٨- الحكيم، **سورية والعهد الفيصلي**، ص ٣٩.

٤٩- جريدة "**العاصمة**"، عدد ١٤، دمشق ٣ نيسان ١٩١٩، ص ٦ — ٧.

٥٠- انظر على سبيل المثال جريدة "العاصمة" (عدد ٩، دمشق ١٩١٩، ص٨) حيث لدينا إعلان عن الشواغر (وظيفة الإمامة في جامع السادات، وظيفة الإمامة والخطبة في جامع السروجية، ووظيفة الإمامة والخطبة في جامع الدلبة). وفي العدد نفسه (ص٦) لدينا مصادقة من الأمير فيصل على توجيه إمامة جامع التل إلى الشيخ حسين الخطيب والإمامة والخطبة في جامع درويش باشا إلى الشيخ سعيد البكري الخ.

٥١- **جريدة** "**العاصمة**"، عدد ٥٢، دمشق ٢١ آب ١٩١٩، ص ٤.

٥٢- **جريدة** "**العاصمة**"، عدد ٨، دمشق ١٤ آذار ١٩١٩، ص ٥.

٥٣- **جريدة** "**العاصمة**"، عدد ٥٣، دمشق ٢٥ آب ١٩١٩، ص ٥-٦.

٥٤- **جريدة** "**العاصمة**"، عدد ١١٨، دمشق ١٩ نيسان ١٩٢٠، ص ٣-٤.